

# التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ١٢٨ - شتاء ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م - السنة الثانية والثلاثون



## ملف العدد: دراسات أندلسية وفيه:

أ.د. علي دياب «ولادة بنت المستكفي في عيون الباحثين»

د. محمد دوالبي «نظرية التحدي لدى ابن شهيد»

د. وليد السراقي «أصول النقد النحوي عند ابن السيد في ضوء كتابه (صلاح الحال)»

د. محمد زلاقي «الفكر الصوفي في ديوان المديح النبوى لابن جابر الأندلسي»

# التراث العربي



مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ١٢٨ - شتاء ١٤٢٤ / ٢٠١٣ م

كتاب التراث

أ.د. راتب سكر

كتاب التراث

أ.د. حسين جمعة

كتاب التراث

أ.د. عبد الله نبهان

كتاب التراث

أ.د. أحمد علي محمد

د. عبد الرحمن بيطار

أ.د. عبد الفتاح محمد

أ.د. عبد الله الجيدل

أ.د. علي دياب

أ.د. محمد سالم

أ.د. وهب رومية

كتاب التراث

أ.م. عبد الكريم محمد حسين

كتاب التراث

وفاء الساطي

اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي،

دمشق-ص.ب (٢٢٠)

فاكس: ٦٦١٧٢٤٤

E-mail:aru@net.sy البريد الإلكتروني:

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت:

[www.awu.sy](http://www.awu.sy)

- دخل القططر للأفراد : ٨٠٠ ل.س

- في الأقطار العربية للأفراد : ٢٥٠٠ ل.س أو (٥٠) دولاراً أميركياً

- خارج الوطن العربي للأفراد : ٣٠٠٠ ل.س أو (٦٠) دولاراً أميركياً

- الدوائر الرسمية داخل القططر : ١٠٠٠ ل.س

- الدوائر الرسمية في الوطن العربي : ٢٠٠٠ ل.س أو (٤٠) دولاراً أميركياً

- الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي : ٣٥٠٠ ل.س أو (٧٠) دولاراً أميركياً

- أعضاء اتحاد الكتاب : ٢٥٠ ل.س

الاشتراك يرسل حواله بريدية أو شيكأً يدفع تقدماً إلى مجلة التراث العربي

## شروط النشر في مجلة التراث العربي

- ١ - أن يكون البحث ذات صلة وثيقة بالتراث العربي .
- ٢ - جدة البحث، وتقيده بالمنهج العلمي الدقيق، والتزامه الموضوعية، والتوثيق والتخرير، والسلامة اللغوية.
- ٣ - تقديم البحث منضداً على الحاسوب، ومشفوعاً بضرور مدمج (CD) فضلاً عن النسخة الورقية.
- ٤ - أن يراعي البحث علامات الترقيم، وأن لا يتجاوز الحجم مع الهوامش والمصادر والمراجع، عشرين صفحة.
- ٥ - توثيق البحث علمياً وفق الأسس المتمدة في المجالات الجامعية السورية المحكمة، ولاسيما مجلة جامعة دمشق.
- ٦ - تقديم البحث مشفوعاً بملخص مناسب، وسيرة علمية وذاتية لمؤلفه، تبين موقعه من الوظائف العلمية، وعنوانه.
- ٧ - يجري تحكيم البحث، وفق الأسس المتمدة في المجلة والمتطابقة مع المجالات الجامعية المحكمة.
- ٨ - ترتيب البحوث في كل عدد، يخضع للأسس الفنية المتمدة في المجلة من دون مراعاة مكانة الكاتب العلمية والتلقافية.
- ٩ - يمنع مؤلف البحث موافقة علمية على النشر بعد تحكيمه بناء على طلبه، مرة واحدة في السنة.



التوزيع في الجمهورية العربية السورية:  
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات  
فاكس: ١٢٢٥٢٢ / هاتف: ٢١٣٧٩٧ / صنب: ١٢٠٣٥

مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

رابط بديل: [lisanearb.com](http://lisanearb.com)

# في هذا العدد من التراث العربي

## افتتاحية العدد

- رسالة "التوابع والزوايا" في ملخص الدارسين ..... أ.د. راتب سكر ..... ٥

## بحوث العدد

- أوضاع الشعر العربي القديم: منظومات تعليمية ..... أ.د. محمود سالم ..... ١٩  
علم الأدب عند الفتنى المتوفى سنة ٥٦٠هـ ..... أ.د. أحمد علي محمد ..... ٤٢  
شبل الجملة في النحو العربي، مفهومها وأهميتها في السياق ..... د. سعد محمد الكردى ..... ٥٧  
تأويل النص الأدبي عند أبي العلاء المعرى (تأويل الشعر) ..... أ.م.د. عبد الكريم محمد حسين ..... ٧٧

## ملف العدد: دراسات أندلسية

- ولادة بنت المستكفي في عيون الباحثين والمستشرقين ..... أ.د. علي دياب ..... ٩٩  
صور المقاومة في الشعر الأندلسي ..... أ.د. فیروز الموسى ..... ١١٧  
ابن الخطيب الأندلسي وإحاطته ..... د. فريد أمضاشو ..... ١٢١  
نظريّة التحدّي لدى ابن شهيد (رسالة التوابع والزوايا) نموذجاً ..... د. محمد دوالبي ..... ١٥٧  
أصول النقد النحوي عند ابن السيد في ضوء كتابه "إصلاح الخلل" ..... د. وليد السراقي ..... ١٧٣  
تجليات الفكر الصوفي في ديوان المديح النبوى ..... د. محمد زلاقي ..... ١٨٩

## أوراق تراثية

- من أخبار التراث ..... أ.د. عبد الإله نبهان ..... ٢٠٧

## كتب وكتاب

- أحمد راتب النفاخ وجهوده في خدمة التراث ..... د. سمر روحى الفيصل ..... ٢٢٥

## آخر الكلام

- العمل المؤسسى المبكر لإحياء التراث العربى ونشره ..... د. نهاد الجرد ..... ٢٢١



# رسالة "التوابع والزوايا" في مرأى الدارسين

□ أ. د. راتب سكر\*

احتفت الدراسات الأدبية المنجزة في العصر الحديث بتاريخ العرب الأدبي والثقافي في الأندلس احتفاء واسعاً، مانحة ما حفل به من قيم التجديد، ودوره التاريخي في تأصيل الأدب القصصي وتطوره، وريادته في فن الموشحات، ومكانته العالمية، وتأثيره في الآداب الأوروبية، حيزاً مهماً من اهتمامها.

يتتنوع المنجز العربي الأدبي والثقافي في ذلك التاريخ الطويل الممتد زهاء ثمانية قرون، تبرز خطبة<sup>(١)</sup> طارق بن زياد (٩٥٠ هـ - ١٠٢ هـ) عام ٩٢ هـ - ٢١١ م) في مطلعها، وكلمات أم عبدالله الصغير<sup>(٢)</sup> في محطاتها الأخيرة، علامتين وجدا نيتين ثريتین بدلالة تهم الثقافية والتاريخية.

\* عضو المكتب التنفيذي في اتحاد الكتاب العرب، رئيس تحرير مجلة التراث العربي. Email:ratebs@hotmail.com

<sup>(١)</sup> أبو خليل، شوقي، ١٩٧٦ - فتح الأندلس، معركة وادي لكة بقيادة طارق بن زياد. دار الرشيد، دمشق، (١٠٣ ص)، ص ٤٦  
<sup>(٢)</sup> عنان، محمد عبدالله، ١٩٨٨ - أندلسيات. كتاب مجلة العربي العشرون، الكويت، (٢٢٣ ص)، ص ٩٩

تميز القرنان الخامس والسادس الهجريان من ذلك التاريخ، بعطاء أدبي ونقدi وفلسفـي، يكاد يشكل ذروة ثقافية لعطاء تلك القرونثمانية في هذا المصمار، على الرغم مما اعتبرـى ذينك القرنين من انكسارات ألوت عـضـد الوجود العربي في الأندلس، بمـتغيرات سياسـية كبيرة، دالتـ معها دولة الخلافـة الأموـية، ليبدأ عـصر مـلوك الطوائف حافلاً بـفتـنه وصـراعـاته الداخـلـية والخارجـية، متـطـلـعاً إـلـى دـولـةـ المـرابـطـينـ، ثـمـ إـلـى دـولـةـ الـموـحـديـنـ، فـيـ المـغـربـ، لـنجـدـتهـ وـنـصـرـتهـ، بعد تـالـيـ الهـجـماتـ الإـسـبـانـيـةـ، وـسـقوـطـ الـخـواـصـرـ الأـنـدـلـسـيـةـ، وـاحـدـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ<sup>(١)</sup>.

حـفلـ القرـنـانـ الخـامـسـ وـالـسـادـسـ الهـجـريـانـ منـ ذـلـكـ التـارـيخـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـاـ اـعـتـرـاهـ مـنـ أـسـىـ الـصـرـاعـاتـ السـيـاسـيـةـ وـالـخـرـوبـ، بـعـطـاءـ أـدـبـيـ وـفـكـرـيـ مـيـزـ فـيـ عـلـاقـاتـهـ بـالـبـسـاتـينـ الفـنـيـةـ وـالـمـعـرـفـةـ لـفـنـ الـقـصـةـ وـالـنـقـدـ الـأـدـبـيـ وـالـفـلـسـفـةـ، تـمـيزـ اـرـتـبـطـ بـهـ ظـهـورـ مـؤـلـفـاتـ قـطـفـتـ مـنـ ثـمـارـ تـلـكـ الـبـسـاتـينـ، جـامـعـةـ بـيـنـ سـمـاتـ أـكـثـرـ مـنـ بـابـ فـنـيـ وـمـعـرـفـيـ فـيـ آـنـ مـعـاـ. وـمـنـ أـبـرـزـ الـمـؤـلـفـاتـ الـتـيـ ظـهـرـتـ فـيـ هـذـاـ الـمـصـمـارـ، رـسـالـةـ التـوـابـعـ وـالـزوـايـعـ<sup>(٢)</sup> لـابـنـ شـهـيدـ (٣٨٢ـ ٤٢٦ـ هـجـ)، وـ"طـوقـ الـحـمـاماـةـ فـيـ الـأـلـفـ وـالـأـلـافـ"<sup>(٣)</sup> لـابـنـ حـزمـ (٣٨٣ـ ٤٥٤ـ هـجـ)، وـ"الـرـسـالـاتـ الـجـدـيـةـ وـالـهـزـلـيـةـ"<sup>(٤)</sup> لـابـنـ زـيدـونـ (٣٩٤ـ ٤٦٣ـ هـجـ)، وـ"الـمـقـبـسـ"<sup>(٥)</sup> لـابـنـ حـيـانـ (٣٧٧ـ ٤٦٩ـ هـجـ)، وـ"رـسـائـلـ اـبـنـ باـجـةـ الـإـلـهـيـةـ"<sup>(٦)</sup> لـابـنـ بـسـامـ الشـتـرـيـ (٤٥٠ـ ٥٤٢ـ هـجـ)، وـ"حـيـ بنـ يـقـظـانـ"<sup>(٧)</sup> لـابـنـ طـفـيلـ (٥٠٤ـ ٥٨١ـ هـجـ)، وـ"شـروحـ مـؤـلـفـاتـ

<sup>(١)</sup> البـاشـاـ، دـ.ـ مـهـجـ، ٢٠٠١ـ - سـقطـ الـأـنـدـلـسـ، تـارـيخـهـ وـأـسـابـيهـ. شـرـاعـ للـدـرـاسـاتـ وـالـنـشـرـ، دـمـشـقـ، (٢٠٨ـ صـ).

<sup>(٢)</sup> ابنـ بـسـامـ الشـتـرـيـ، ١٩٩٧ـ - الذـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الـجـزـيـرـةـ. قـ، ١ـ، تـحـقـيقـ دـ.ـ إـحـسانـ عـبـاسـ، دـارـ الـشـفـافـةـ، بـيـرـوـتـ، (٥٦٧ـ صـ) (نـشـرـ اـبـنـ بـسـامـ فـصـولاـ مـنـ رـسـالـةـ اـبـنـ شـهـيدـ بـيـنـ صـ ٢٤٥ـ مـنـ كـتـابـهـ حـتـىـ صـ ٣٠١ـ، وـنـشـرـ بـعـدـ ذـلـكـ حـتـىـ صـ ٣٣٥ـ أـخـبارـ اـبـنـ شـهـيدـ شـاعـرـاـ وـنـاقـداـ).

<sup>(٣)</sup> اـبـنـ حـزمـ، ١٩٩٣ـ - طـوقـ الـحـمـاماـةـ فـيـ الـأـلـفـ وـالـأـلـافـ. تـحـقـيقـ دـ.ـ إـحـسانـ عـبـاسـ، المؤـسـسـةـ الـعـرـبـيـةـ، بـيـرـوـتـ، (٣٢٢ـ صـ).

<sup>(٤)</sup> خـفـاجـةـ، محمدـ عـبدـ النـعـمـ، ١٩٦٢ـ - قـصـةـ الـأـدـبـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ. مـكـتبـةـ الـعـارـفـ، بـيـرـوـتـ، (٤٣٠ـ صـ)، صـ ٢٠٦ـ.

<sup>(٥)</sup> اـبـنـ باـجـةـ، ١٩٦٨ـ - رـسـائـلـ اـبـنـ باـجـةـ الـإـلـهـيـةـ. حـقـيقـهاـ وـقـدـمـ لـهـاـ مـاجـدـ فـخـريـ، دـارـ النـهـارـ، بـيـرـوـتـ، (١٨٩ـ صـ).

<sup>(٦)</sup> اـبـنـ بـسـامـ الشـتـرـيـ، ١٩٤٥ـ - الذـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الـجـزـيـرـةـ. قـ، ١ـ، تـقـدـيمـ عـبدـ الـوهـابـ عـزـامـ، جـامـعـةـ فـؤـادـ الـأـوـلـ، الـقـاهـرـةـ، (٢٣٥ـ صـ).

<sup>(٧)</sup> اـبـنـ طـفـيلـ، أـبـوـ بـكـرـ، ١٩٦٣ـ - حـيـ بنـ يـقـظـانـ. قـدـمـ لـهـ وـعـلـقـ عـلـيـهـ دـ.ـ أـبـيرـ نـصـريـ نـادـرـ، الـمـطـبـعـةـ الـكـاثـولـيـكـيـةـ، بـيـرـوـتـ، (٩٩ـ صـ).

أرسسطو" لابن رشد (٥٢٦ - ٥٩٥) "وهي أوسع مؤلفاته انتشاراً"<sup>(١)</sup>، و"المطرب في أشعار أهل المغرب"<sup>(٢)</sup> لابن دحية (ت ٦١٣ هـ). وغيرها.

انعكس الشعور بشراء العطاء الأدبي والفكري الأندلسي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، في مرأى الباحثين والدارسين، فأشاد معظم دارسي الأدب الأندلسي باحتضانهما للتاريخي منجزات أدبية وفكرية، نوعية، عدت ذرى ازدهار ذلك الأدب، وعلامات مميزة في تاريخ الأدب العربي مشرقاً ومغارباً، وخصص بعضهم عطاء ذينك القرنين، أو واحد منها، بمؤلف خاص، انطلاقاً من ملاحظة احتشاد هذه المرحلة من تاريخ العرب في الأندلس بأسماء شعراء وناثرین ونقاد ومؤرخین وفلاسفه، أثروا المكتبة العربية والعالمية بأعمال ومؤلفات نوعية جديرة بالبحث والدرس، ولا سيما مؤلفات ذات خصائص تنتهي إلى فن القصة والنقد الأدبي والفلسفة، انتماء ذا قيم فنية وفكرية ثرية الدلالات، مما يسوغ ظهور بحوث ومؤلفات تختصص اهتمامها لمنجز هذه المرحلة، مثل مؤلفي د. إحسان عباس "تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمراقبين"<sup>(٣)</sup>، ود. جوزيف كلاس "أعلام الفكر الأندلسي، الحياة الفكرية في الأندلس في القرن الخامس للهجرة"<sup>(٤)</sup>.

### ١ - ابن شهيد ورسالة "التوابع والزوايا":

ترجم ابن بسام الشنتريني (٤٥٠ - ٤٥٤ هـ)، لمعاصره أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ترجمة ضافية، في كتابه "الذخيرة في محسن أهل الجزيرة"، ضمنها فصولاً من رسالته "التوابع والزوايا" أو "شجرة الفكاهة"، . فأفاد دارسو الرسالة، وسيرة صاحبها، من كتاب ابن بسام فوائد مهمة واسعة.

<sup>(١)</sup> كلاس، د. جوزيف، ٢٠٠٦ - أعلام الفكر الأندلسي، الحياة الفكرية في الأندلس في القرن الخامس للهجرة. دار طлас، دمشق، (٢٣٧ ص).

<sup>(٢)</sup> ص ١٨٤.

<sup>(٣)</sup> ابن دحية، ١٩٥٤ - المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وزميله، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، (٣٠٤ ص).

<sup>(٤)</sup> عباس، د. إحسان، ١٩٦٢ - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمراقبين. دار الثقافة، بيروت، (٣٥٩ ص).

<sup>(٥)</sup> كلاس، د. جوزيف، ٢٠٠٦ - أعلام الفكر الأندلسي، الحياة الفكرية في الأندلس في القرن الخامس للهجرة. دار طлас، دمشق، (٢٣٧ ص).

برز ابن شهيد في ميادين الشعر والثر وال النقد، أدبياً وناقداً لاماً، حظي بتقدير نقاد عصره، والعصور اللاحقة، فشخص الدارسون في العصور المختلفة، عطاءه: شاعراً وناثراً وناقداً وعلمياً من أعلام الفكاهة في الأدب، بدراسات متعددة، توقفت على المكانة المتميزة لرسالة "التوأمة والزوايا" بين ما تركه من أعمال شعرية ونشرية ونقدية.

لم تحفظ عوادي الدهر رسالة ابن شهيد كاملة، فما وصل منها إلى العصور الأدبية الحديثة، يقتصر على ما حفظه منها صاحب "الذخيرة في محسن أهل الجزيرة"، بالغا نحو أربع وخمسين صفحة، يبيّنها الباحثون في الأدب الأندلسي، كاملة أو مجزأة، في كتب خاصة، أو في سياق دراساتهم، مبينين دور ابن بسام (٤٦٠ - ٥٤٢ هـ) في حفظها من الضياع، بمثل قول د. شوقي ضيف: "لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله، وخاصة رسالة التوأمة والزوايا، لفقد النثر الأندلسي درراً بدعة من لائقه وروائعه. وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوأمة والزوايا جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها"<sup>(١)</sup>. وكان ابن بسام قد قدم لما اختاره من الرسالة، بما يعيّن عن اختياره فصولاً منها، وتقديره لقيمها الأدبية المتعددة، بقوله: "فصل من رسالة سماها بالتوأمة والزوايا، وإن صدرت عنه مصدر هزل، فتشتمل على بدائع وروائع"<sup>(٢)</sup>.

يتلخص المطلع على ترجمة ابن بسام لابن شهيد، وما تضمنته من قصائده ورسائله، ومن سيرته وأخبار علاقاته المشتبعة بمثقفي وسياسيي عصره، إلى تقدير أهمية البحث المتعدد في شعره ونشره ونقده وأخباره، وفي علاقة أدبه بالأدب الساخر والفكاهة، نظراً لما يقدمه البحث الجاد في هذه الميادين من فوائد للدراسات المعنية بتاريخ الأدب الأندلسي، ويلاحظ أن رسالته "التوأمة والزوايا" جديرة بعناية خاصة من باحثي العصر الحديث، تفيد من جديد علم السرديةات ومناهج الأدب المقارن، تمكنهم من كشف إسهامها في نشأة جنس القصة في الأدب العربي، ومكانتها في تاريخ الفن القصصي عربياً وعالمياً.

<sup>(١)</sup> ضيف، د. شوقي، ١٩٩٩ - تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس، ط٣، دار المعارف، القاهرة، (٤٥١ ص)، ص ٥٥٠.

<sup>(٢)</sup> ابن بسام الشترتي، ١٩٩٧ - الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، ف١، م١، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (٥٦٧ ص) (نشر ابن بسام فصولاً من رسالة ابن شهيد من ص ٢٤٥ من كتابه حتى ص ٣٠١، ونشر بعد ذلك حتى ص ٣٣٥ أخباراً عن ابن شهيد شاعراً وناثراً وناقداً).

## ٢ - بين التوابع والزوابع والأدب الساخر:

يتسم أدب ابن شهيد بنزعة قوية إلى التهكم والسخرية، وهي نزعة منحت قسماً من أدبه هوية الانتماء إلى الأدب الساخر، تحت عنوانات متنوعة مثل أدب الفكاهة، والأدب الهازل، وأهلته ليكون موضوعاً لنظر النقاد والباحثين المعنيين بظواهر الفكاهة في الأدب.

لم تكن هذه النزعة محل تقدير المهتمين بأدبه دائماً، فيلاحظ أن معاصره ابن بسام في ترجمته له، يعد رسالته من البدائع والروائع، على الرغم من نزوعها إلى الهزل، في إشارة لا تعبر عن تقدير ذلك التزوع، يقول ابن بسام في العنوان الطويل لما اختاره من رسالة "التوابع والزوابع": "قصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع، وإن صدرت عن مصدر هزل، فتشتمل على بدائع وروائع" <sup>(١)</sup>.

يشير غمز ابن بسام من طوابع الهزل في رسالة ابن شهيد استغراب القارئ، لأن كثرين من المهتمين بابن شهيد قدروا تلك الطوابع، ولم يروا فيها مثابة، فقال فيه ابن دحية: "لهذا الوزير كتب كثيرة الهزل والجلد، بعيدة عن الحصر والعد، منها كتاب التوابع والزوابع، وكتاب حانوت العطار، وكتاب كشف الدك وإيضاح الشك" <sup>(٢)</sup>، فضلاً عن كون الأدب الهازل منتشرًا في الأدب الأندلسي انتشاراً واسعاً، جعل دارسيه في العصور الحديثة يقدرونها ويخصونه بمباحث ومؤلفات خاصة، مثل مبحث د. إحسان عباس "الاتجاه الهزلي" الذي عنى بمكانة ابن شهيد في هذا الاتجاه، فرأى أن حظ رسالته منه غير كبير، بقوله: "ولما كتب ابن شهيد "شجرة الفكاهة" أو رسالته المعروفة بالتوابع والزوابع، لم يكن للفكاهة فيها حظ كبير ب المناسب مقدار ما فيها من عجب وزهو ذاتيين. أما في هذا العصر فقد احتلت الفكاهة مكانة واسعة في الشعر والشعر" <sup>(٣)</sup>، وتبع عباس المواقف والأراء النقدية في الرسالة، في كتابه "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" مهتماً

<sup>(١)</sup> المصدر السابق.

<sup>(٢)</sup> ابن دحية، ١٩٥٤ - المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وزميله، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، <sup>(٣)</sup> ص. ١٦٠

<sup>(٤)</sup> عباس، د. إحسان، ١٩٦٢ - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين. دار الثقافة، بيروت، (٣٥٩ص). ص ١٥٠

بما تضمنته من "صور تهكمية غضّ فيها من شأن علماء اللغة، وبخاصة ابن الإفليلي شارح ديوان النبي"<sup>(١)</sup>، وجاء كتاب د. رياض قزيحة "الفكاهة في الأدب الأندلسي" ليمثل معلماً خاصاً في مضمون دراسة هذا الاتجاه، متناولاً ابن شهيد علماً من أعمال الفكاهة في الأدب الأندلسي، محدداً ميدان سخريته وتهكمه بجماعة أدباء عصره ومعلميه ومنتقديه الذين تتبعوا هفواته وأخطاءه، بمثل قوله: "سخر أبو عامر من الأدباء المعاصرين له، والمتقدسين لمفواته وأخطائه، كأبي القاسم الإفليلي، وابن الفرضي، والشاعر الحناظ الأعمى وجماعات المعلمين"<sup>(٢)</sup>. وقد عني قزيحة بفكرة عباس السابقة حول حظ الفكاهة غير الكبير في رسالة ابن شهيد قياساً على ما فيها من عجب وزهو، فرأى - من دون الإشارة إلى عباس - أن استعلاء صاحب الرسالة الشديد يهيمن على ما يعتمل في كتابته من مكونات الفكاهة، يقول: "وتکاد تكون فکاهاته مقتصرة على السخرية والتهكم بهؤلاء الذين لم يشهدوا له بالتفوق والمقدرة في فنِي الشعر والنشر، مصحوبة باستعلاء شديد، يکاد يطغى على العنصر الفکاهي عنده"<sup>(٣)</sup>

## ٢- رسالة التوبيخ والزوابع. مؤلفاً نقدياً:

جاء اهتمام د. إحسان عباس بابن شهيد ورسالته في سياق دراساته "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" ، فرأى في مبحثيه عن النقد الأدبي في الأندلس، أن ابن شهيد وصديقه ابن حزم<sup>(٤)</sup>، "أعظم اثنين ترسا بالنقد في القرن الخامس، وربما ظلّا أعظم من نقاهمَا في تاريخ النقد هنالك"<sup>(٥)</sup>. وتتبع عباس المواقف والأراء النقدية في الرسالة، موازناً بين ابن شهيد وغيره من أعمال النقد، مرجحاً تأثره بالمشاركة مثل الجرجاني، وتفصيقه في قضايا نقدية متعددة ، بمثل

<sup>(١)</sup> عباس، د.إحسان، ١٩٨١ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط٣، دار الثقافة، بيروت، (٦٥٧ص)، ص٤٧٥. (الطبعة الأولى للكتاب في عام ١٩٧١) ص٤٧٨.

<sup>(٢)</sup> قزيحة، د. رياض، ١٩٩٨ - الفكاهة في الأدب الأندلسي. المكتبة المصرية، بيروت، (٤٠٠ص)، ص٢٩٦.

<sup>(٣)</sup> قزيحة، د. رياض، ١٩٩٨ - الفكاهة في الأدب الأندلسي. المكتبة المصرية، بيروت، (٤٠٠ص)، ص٢٩٦.

<sup>(٤)</sup> ابن حزم اهتم مع صديقه ابن شهيد بالنقد الأدبي، وهو غير ابن حزم صاحب طرق الحمام (٤٥٤-٢٨٣ هـ).

<sup>(٥)</sup> عباس، د.إحسان، ١٩٨١ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط٣، دار الثقافة، بيروت، (٦٥٧ص)، ص٤٧٥. (الطبعة الأولى للكتاب في عام ١٩٧١)

قوله: "أما في إصابة الحكم على من درسهم من الشعراء، فإنه ربما تفوق على ابن رشيق وابن شرف. وربما لم يبلغ أي ناقد أندلسي آخر مبلغه في إرهاف الذوق والإحساس بالجمال الفني" <sup>(١)</sup>.

تقدمت عنية الدارسين بقيم النقد الأدبي في "رسالة التوازع والزوايا" على العناية بقيمها السردية والقصصية، مما يفسر إهمال د. رضوان الداية لابن طفيل وقصته "حي بن يقطان"، في كتابه "تاريخ النقد الأدبي في الأندلس"، واهتمامه بالمحمول النقدي مؤلف ابن شهيد، وأراءه التقديمة، التي قال فيها: "إن آراء ابن شهيد التقديمة - معظمها إن لم نقل كلها - صادرة عن عي ورأي تجربتي لا رأي نظري" <sup>(٢)</sup>. واقتصر اهتمامه في دراسته لابن شهيد على ما تضمنته رسالته من آراء تقديرية، مهملاً طوابعها السردية، ومكانتها التاريخية في تطور الفن القصصي.

جاءت رؤية د. رياض قزحية لرسالة "التوازع والزوايا" منسجمة مع اتجاه توصيفها عملاً تقديماً، ذات فكاهية تهكمية، مهملة علاقتها الأدبية بالفن القصصي، مانحة هذه الرسالة قيمة تقديرية مهمة في تاريخ الأدب العربي، بالقول: "هي تمثل جانباً تقديرياً هاماً في الأدب العربي" <sup>(٣)</sup>.

#### ٤- إسهام "التوازع والزوايا" في تأصيل الأدب القصصي:

عدّ بعض الدارسين "رسالة التوازع والزوايا" لأبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي الأندلسي (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ)، ومؤلف "حي بن يقطان" للفيلسوف الغرناطي الطيب أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (٥٠٤ - ٥٨١ هـ)، من الأعمال الأدبية العربية الرائدة في تأصيل فن القصة وتطوره في التراث العربي، ويغيل غير باحث إلى ذكرهما في مقام واحد، عندما يتعلق البحث بنشأة القصة وتطورها في الأدب العربي، ومن الذين تناولوا قيمتي عملي ابن شهيد وابن طفيل في تأصيل الأدب القصصي عربياً، ونزعوا إلى تقديمهما ضمن رؤية تقديرية

<sup>(١)</sup> المرجع نفسه، ص ٤٨٤.

<sup>(٢)</sup> الداية، د. محمد رضوان، ١٩٦٨ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس. دار الأنوار، بيروت، (٥٥٩ ص)، ص ٢٩٦.

<sup>(٣)</sup> قزحية، د. رياض، ١٩٩٨ - الفكاهة في الأدب الأندلسي. المكتبة المصرية، بيروت، (٤٠٠ ص)، ص ٣٠٥.

واحدة في هذا المضمار، د. شفيع السيد الذي عبر عن أصالة الفن القصصي في التراث العربي قائلاً: "أقرب ما يصدق عليه ذلك في تراثنا القديم عملاً اثنان من إبداع العقل العربي في بلاد الأندلس"<sup>(١)</sup>. وهذه الرؤية التي تجمع عملين أدبيين مهمين في التاريخ الأدبي العربي الأندلسي بمنظور تقريري يوازي بينهما، تبدو غير مكترثة بما سبقها من مواقف باحثين قللوا من شأن قيمة قصة ابن شهيد قياساً على قصة ابن طفيل، أو منحوها رتبة قصصية أدنى.

اختلفت مواقف أولئك الدارسين من قيمة الفن القصصي في ذينك العملين الأدبيين، فعبر بعضهم عن ضعف تلك القيمة في رسالة ابن شهيد، وثرائتها في رسالة ابن طفيل، وتناول بعضهم تلك القيمة في الرسالتين بعيداً عن الموازنة بينهما، بينما أهمل باحثون كثيرون دراسة علاقة الرسالتين بفن القصة، مهتمين بقيم النقد الأدبي في رسالة ابن شهيد، والقيم الفلسفية في رسالة ابن طفيل.

#### - القيمة القصصية لرسالة ابن شهيد في مراجع الدارسين:

عني د. محمد غنيمي هلال بالعلاقة بين رسالة ابن شهيد والأدب القصصي، غير أنه قلل من أهمية قيمها القصصية فانياً، قائلاً: "القيمة الفنية القصصية لرسالة ابن شهيد ضئيلة هينة... وفي الرسالة كثير من الحكايات العارضة التي من شأنها أن تضعف القيمة الفنية القصصية للرسالة"<sup>(٢)</sup>، في الوقت الذي أشاد فيه بأهمية عمل ابن طفيل، قائلاً: "قصة حي بن يقطان هي التي تهمنا بخاصة في هذا الموضوع، لصيغتها الأدبية القصصية"<sup>(٣)</sup>.

إن التقليل من شأن القيمة الفنية القصصية لرسالة ابن شهيد، في رؤية هلال، لا ينسحب على موقف الدارسين جمِيعاً، فشلة باحثون أشادوا بتلك القيمة، مانحين دلالتها اهتماماً جديراً بالدراسة والبحث.

<sup>(١)</sup> السيد، د. شفيع، ٢٠٠٥ - فصول من الأدب المقارن. دار النصر، القاهرة، (٥٢١٥ ص)، ص ٣٩

<sup>(٢)</sup> هلال، محمد غنيمي، من دون تاريخ - الأدب المقارن. ط٩، دار المودة، بيروت، (٤٦٩ ص)، ص ٢٢٨

<sup>(٣)</sup> هلال، محمد غنيمي، من دون تاريخ - الأدب المقارن. ط٩، دار المودة، بيروت، (٤٦٩ ص)، ص ٣٢٤

موقف مختلف عن موقف هلال، قدمه محمد عبد المنعم خفاجة في دراسته لابن شهيد، متضمنا تقديرها لمكانته القصصية، وإشادة برسالة "التابع والزوابع" وعلاقتها بفن القصة، ودلالتها مع غيرها من رسائل صاحبها على "ميل خاص للكتابة القصصية، وبراعة في التصرف في المعاني وأساليب التعبير وسعة الخيال، واطلاع واسع على كتب الأدب وأراء الأدباء، وما كان معروفاً لديهم في النقد الأدبي"<sup>(١)</sup>، وهذه الإشارة الخجولة إلى علاقة "التابع والزوابع" بالنقד الأدبي، تعبير عن رؤية الباحث لقيمتها الثانوية في الرسالة، على أهميتها، قياساً على ما فيها من قيم قصصية، يفصل في توصيفها وتحليلها.

عدّ بعض الدارسين المتأخرين رسالة ابن شهيد انعطافة مهمة في تاريخ الفن القصصي عربياً، فرأى فيها د. أحمد أبو موسى بداية تاريخية للنشر القصصي الأندلسي واضح الملامح والسمات، قائلاً: "إذن فقد عرف الأدب الأندلسي النشر القصصي بوضوح ملامحه وسماته، منذ القرن الخامس من خلال ابن شهيد في "التابع والزوابع"<sup>(٢)</sup>. غير أن موقفه من ريادة رسالة ابن شهيد قصصياً، سيدخل طي النسيان قليلاً، عندما يتطرق في قصة ابن طفيل اللاحقة، فيمنحها بتقويمه النقدي قيمة أدبية رفيعة، "ليس بالنسبة لعصرها، بل بالنسبة لكل زمان وزمان"<sup>(٣)</sup>.

تناول د. حسين جمعة رسالة "التابع والزوابع" في مبحثه عن تأثير قصة "المعراج النبوى" في الأدب "رأى أنها "رحلة خيالية إلى العالم الآخر"<sup>(٤)</sup>، تأثر مؤلفها بقصة "المعراج النبوى"، وهو بهذه الرؤية ينطلق من اعتراف ضمني بعلاقة هذه الرسالة بأدب الرحلات الخيالية والفن القصصي، فيعبر في سياق تحليله المكونات العلمية لمبحثه عن تقدير القيمة الفنية القصصية لرسالة ابن شهيد.

<sup>(١)</sup> خفاجة، محمد عبد المنعم، ١٩٦٢ - قصة الأدب في الأندلس. مكتبة المعرف، بيروت، (٤٣٠ ص)، ص ٢٩٩.

<sup>(٢)</sup> أبو موسى، د. أحمد، ١٩٩٧ - التراث الفني الأندلسي في عصر الموحدين. نشر المؤلف، دمشق، (٦٩ ص)، ص ٢٠٥.

<sup>(٣)</sup> المرجع نفسه، ص ٣٦٢.

<sup>(٤)</sup> جمعة، د. حسين، ٢٠٠٦ - مرايا للالقاء والارقاء بين الأدبين العربي والفارسي. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٥٣ ص)، ص ٩١.

لم تكن القيمتان السرديتان لذينك العملين الأدبيين المهمين، الباعث الرئيس لاهتمام دارسي التراث العربي بهما، فمعظم الذين عنوا بهما انطلقا من تقدير "رسالة التوابع والزوايا" في مضمون النقد الأدبي الأندلسي، ومن تقدير "حي بن يقظان" في مضمون الفلسفة".

#### ٥ - بين "رسالة الغفران" و"رسالة التوابع والزوايا":

عني الباحثون بعناصر التشابه بين "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"رسالة التوابع والزوايا" لابن شهيد، فتنوعت مواقفهم من وجود علاقة تأثر وتأثير بينهما، فرجح د. محمد غنيمي هلال أسبقية رسالة ابن شهيد على رسالة المعري، قائلاً: "إذا صح أن هذه الرسالة سابقة على رسالة أبي العلاء، كان مؤلفها الفضل في البدء برحلة أدبية إلى عالم آخر، يشبه عالم الأرواح في الإسراء والمعراج"، غير أن ترجيح هلال لأسبقية رسالة ابن شهيد، لا يقوده إلى استنتاج تأثر المعري بها، فهو لا يعتقد بوجود مثل هذا التأثر، الذي يقول فيه: "وحتى لو سلمنا أن رسالة أبي العلاء هذه متأخرة عن رسالة ابن شهيد السابقة، فإننا لا نعتقد أن أبي العلاء تأثر بابن شهيد في شيء. ذلك أن رسالة أبي العلاء أعمق، وأوسع مجالاً، وأغنى في نواحيها الفنية القصصية من رسالة ابن شهيد"<sup>(١)</sup>.

توقف د. شوقي ضيف على موضوع التأثر والتأثير بين الرسالتين، مناقشاً مواقف الباحثين منه، قائلاً: "ومنهم من ذهب إلى تأثر أبي العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذي تأثر بأبي العلاء، وكل الرأيين يجانبه الصواب. وحقاً الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنهما بعد ذلك تبادلان في موضوعيهما... واضح من موضوع الرحلتين أنهما لا يلتقيان أي التقاء وأن من الخطأ، كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداهما في الأخرى"<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> هلال، محمد غنيمي، من دون تاريخ - الأدب المقارن. ط٩، دار المودة، بيروت، (٦٩٤ص)، ص ٢٢٩.

<sup>(٢)</sup> ضيف، دشوقى، ١٩٩٩ - تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الأندلس. ط٣، دار المعارف، القاهرة،

٤٥٧ص)، ص ٥٠٠.

عني د. رياض قزححة بقضية الأسبقية بين الرسالتين، فأيد ترجيح المستشرق بروكلمان أن زمن تصنيف رسالة "التابع والزوابع" قبل رسالة الغفران بعشرين سنة<sup>(١)</sup>. ورأى أن ابن شهيد توفي "قبل كتابة رسالة الغفران بستين، بعد علة لا زمته بضع سنوات"، مشيرا إلى رأي المستشرق الإسباني غارسيا غوموس بأسبقية رسالة ابن شهيد.

واهتم د. حسين جمعة بقضية التشابه بين الرسالتين، في كتابه "إبداع ونقد"، فرأى أن (رسالة الغفران) شيء مختلف كل الاختلاف عن (التابع والزوابع)<sup>(٢)</sup>، ورأى أن التشابه بين مطلع الرسالتين، "في منهج السخرية والتهمّ من الشخصية المفتاح فيهما، مجرد تشابه ظاهري"<sup>(٣)</sup>، كما رأى أن ابن شهيد الذي كتب رسالته بعد عام ٤١٢ هـ، لم يستلهم من المعري فكرة شياطين الشعراء، كما ناقش جمعة ما ذهب إليه بطرس البستاني من "أن المعري عرف (رسالة التابع والزوابع)، وإن اتجه المعري بالرحلة إلى العالم الآخر اتجاهات مغايرة"، فلم يوافقه الرأي، لأن الرحلة إلى العالم الآخر معروفة في الثقافة الإسلامية قبل المعري، وليست دليلا على تأثر المعري برسالة ابن شهيد، التي رأى أن المعري لم يعرفها، قائلا: "لذا نزعم بـ لا يكون المعري قد اطلع عليه"<sup>(٤)</sup>. وعاد د. حسين جمعة إلى مناقشة قضية التشابه والتأثير والتأثير بين الرسالتين، في كتابه "مرايا للالقاء والارتفاع" الصادر بعد كتابة السابق بنحو ثلاثة سنوات، فأكّد موقفه القديم، مستبعدا تأثر إحداهما بالأخرى، على الرغم من روئيته أسبقية رسالة ابن شهيد على رسالة المعري، منطلقا من تاريخ إنجاز ابن شهيد رسالته، "وقد كتبها نحو عام ٤١٢ هـ - ١٠٤٣ م)", فالأسقبيّة لا تقوّد الدارس إلى ترجيح وجود التأثير الأدبي، الذي تقوم دراسته على منهجية موازنة ومقارنة مناسبة. وعني بتشابه بعض مكوناتهاما الأسلوبية والفكريّة، فرده إلى تأثيرهما معا بقصة "المراج البوي"<sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> قزححة، د. رياض، ١٩٩٨ - الفكاهة في الأدب الأدلسي. المكتبة العصرية، بيروت، (٤٠٠ ص)، ص ٣٠٥

<sup>(٢)</sup> جمعة، د. حسين، ٢٠٠٣ - إبداع ونقد، قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي. دار النمير، دمشق، (٢٣٦ ص)، ص ١٧٣

<sup>(٣)</sup> المرجع نفسه، ص ١٥٩

<sup>(٤)</sup> المرجع نفسه، ص ١٥٩

<sup>(٥)</sup> جمعة، د. حسين، ٢٠٠٦ - مرايا للالقاء والارتفاع بين الأدبين العربي والفارسي. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (١٥٣ ص)، ص ٩٢ و ٩١

تشير طوابع الترجيح في مواقف كثيرين من الباحثين، وغياب الوضوح عن رؤاهم بتأثير رسالة المعربي بر رسالة ابن شهيد، أو تأثيرها فيها، إلى أهمية استكمال البحوث الجادة في هذا المضمار، وجدارته ببحوث علمية خاصة قادمة، تفيد من الفرضيات العلمية الجادة حول انتفاء التأثر والتأثير بين الرسالتين، ورد التشابه بينهما إلى مرجعياتهما الثقافية العربية والإسلامية المشتركة.

تشير قضية غياب النص الكامل لرسالة "التابع والزوايا" ريبة ما في نفس المهم بدراستها، لكن الاطلاع على ما حفظه ابن بسام الشنطري في كتابه "الذخيرة" من فصولها، يقدم مساحة مرضية للدرس الأدبي، قادرة على توفير فرصة مناسبة لاطلاع يقدم متعة أدبية، ومادة مفيدة لمتطلبات التوصيف والتحليل والتقويم.

إن توصيف مواقف الدارسين من رسالة "التابع والزوايا"، وتحليل مكوناتها، يبين أن ما تحمله من القيم الأدبية والنقدية، ولاسيما القيم المتصلة بالفنون السردية والقصصية، يتتجاوز مقتضيات الرؤية التاريخية للدراسات الأدبية، في اقتضائها الاهتمام بمنجز أدبي مهم من منجزات الأدب الأندلسي، نظراً لأهمية علاقة ابن شهيد بالفن القصصي العربي : جوهرا وتطورها.

# **بِحَوْثِ الْعَدْد**



# أوضار الشعر العربي القديم منظومات تعليمية

□ أ.د. محمود سالم

لحق الشعر العربي منذ بداية العصر العباسي ظواهر غريبة عنه، اتخذت شكله والتبتست به. واستمرت هذه الظواهر بالازدياد والتنوع مع تقدم الزمن حتى أساعت إليه، وشوهدت صورته، وخاصة حين جعلها بعض الدارسين ظواهر شعرية، أو انحرافات وماخذ عدوها على الشعر العربي في عصوره القديمة.

فقد ظهرت منظومات علمية في الدين والتاريخ والأخلاق، اتخذت الشكل الخارجي للشعر من وزن وقافية، وكانت في معظمها من المزدوجات، ثم اتخذ بعض الأدباء شكل الشعر وسيلة تعليمية، وبعد ذلك تالت المنظومات التي شملت جميع جوانب المعرفة، لتقرير العلوم وتثبيتها، ولتسهيل حفظ المتنون العلمية على طلبة العلم، لأن النظم أطلق بالدهن من النثر وأسهل في الحفظ. والتيس النظم بالشعر حتى أطلق عليه /الشعر التعليمي/ وهذه التسمية تحمل تناقضًا واضحًا، وتجمع نشاطين مختلفين، مما يستدعي مناقشتها وبيان حقيقتها.

## مفهوم الشعر

اختلف أهل الأدب قديماً وحديثاً في تعريف الشعر وتحديد مفهومه، لاختلاف طبائعهم ونظرتهم إليه وغايتهم منه، فالشعر أحد الفنون الجميلة، مادته اللغة وغايتها المتعة، وقد يحمل غاية أخرى مفيدة، تشكل رسالة من المبدع إلى المتلقى، تحمل موقفه من إحدى مسائل الحياة.

وربما جاء اللبس بين الشعر والمنظومات التعليمية من مفهوم بعض القدماء للشعر وتحديثهم لعناصره، مثل قولهم "الشعر كلام موزون مفهي دالٌ على معنى" وفي هذا المفهوم بلقى الشعر بالنظم وهو ما أكدته ابن رشيق بقوله: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية"<sup>(١)</sup> فكلامهما كلام موزون مفهي دالٌ على معنى، وقد أطلق العرب على كل علم اسم الشعر، وإن غالب على الكلام المنظوم لشرفه بالوزن والقافية.<sup>(٢)</sup>

وفي هذا الإطار يأتي قول الأزهري في تهذيب اللغة عن الشعر بأنه: "القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، وقاتله شاعر، لأنه يشعر ملا يشعر غيره، أي يعلم".<sup>(٣)</sup>

ولكنَّ هذا المفهوم للشعر لم يرق سائداً عند النقاد، وأهل الأدب، فاقتربوا أكثر من المفهوم الحقيقي للشعر الذي يتعدَّ عما ينطبق على المنظومات لاشتماله على عناصر أخرى غير التي ذكرت سابقاً، كقول الجاحظ إنَّ الشعر "صناعة وضرب من النسج و الجنس من التصوير"<sup>(٤)</sup>

فأضاف التصوير الذي تفتقر إليه المنظومات، وسار على بن محمد الجرجاني في مفهوم الشعر شوطاً أبعد، فقال: "والشعر في اصطلاح المنطقين قياس مؤلف من المخيلات، والغرض منه انفعال النفس بالترغيب والتنفير"<sup>(٥)</sup> فزاد انفعال النفس بالشعر وذكر الخيال، وهو ما تفتقر إليه المنظومات. وبذلك يظهر الشعر فنا جمالياً، يختلف عن غيره من ألوان الخطاب المعروفة في اللغة، وإن ظهرت في شكله، ولبست لبوسه.

<sup>(١)</sup> ابن رشيق : العمدة ص ٢٤٥

<sup>(٢)</sup> القاموس المحيط ، مادة "شعر"

<sup>(٣)</sup> الأزغري: تهذيب اللغة، مادة "شعر" ٤٢٠/١٠

<sup>(٤)</sup> الجاحظ : الحيوان ١٣٢/٣

<sup>(٥)</sup> الجرجاني، التعريفات ص ٦٧

## الشعر العربي قبل المنظومات

كان الشعر قد يداوِي ديوان العرب وفَنِّهم الوحيد تقريباً في الجاهلية، ضمَّنَهُ قيمهم وأخلاقهم ونظرتهم إلى الحياة، وذكروا فيه ملامح حياتهم وبيئتهم، فكانت له أهميَّتان: أهميَّة أدبية لغوية، وأهميَّة تاريخية وثائقية.

تأتي الأهميَّة الأدبية من أنه بداية الشعر العربي، وقد وصلنا تماماً ناضجاً، له تقاليد الفنية وعناصره الواضحة، فبني عليه الشعراء بعد ذلك وظلوا في حدود صورته التي رسمها الأقدمون.

أما أهميَّة اللغوَيَّة فجاءَت من كونه أحد مصادر اللغة التي اعتمد عليها اللغويون في جمعها، وفي استبatement قواعد نحوها وصرفها ومذاهب أهل اللغة في كلامهم، وطراوئهم في نظمها واستخدامها، لذلك اعتمدوا عليه في تفسير القرآن الكريم.

وتكمِّن أهميَّة التاريخية في أنه أهمَّ مصدر لدينا عن حياة العرب في جاهليتهم، فلم تصلنا كتب ووثائق تظهر أحوالهم، كما هو الأمر عند الأمم الأخرى، ولم نجد نقوشاً تشير إلى نظامهم الاجتماعي والسياسي، وإلى نمط نشاطهم الاقتصادي كتلك التفاصيل التي خلقتها أمم قديمة كثيرة، لذلك كان الشعر الجاهلي الوثيقة الأولى التي اعتمد عليها الباحثون لمعرفة كل ما يتعلَّق بهم. فيه ذكر لأيامهم وحروفهم ولبعض معتقداتهم وعاداتهم وفنونِ بقيمهِم ومثلهم<sup>(١)</sup>.

لكنَّ الشاعر الجاهلي لم يكن يقصد أن يجعل قصيده وثيقة تاريخية، أو أن يجعلها معلومات محددة، فتحتَّمَ إلى منظومة علمية، وإنما فرضت البيئة نفسها عليه وعلى شعره، ولأنَّه كان منغمساً في حياة قومه، يعني ما يعانون، ويتعلَّمُ إلى ما يتطلَّعون ولم تكن أمامه وسيلة أخرى للتعبير، فحمل شعره رسالة إلى قومه، توَضَّح موقفه ومشاعره من الأحداث التي تمسَّه والأوضاع التي يجد نفسه في داخلها، فجمع الشعر الجاهلي بين الفنِّ والمهمة الاجتماعية، وربما لو امتلكَ أهل الجاهلية وسيلة أخرى للتعبير خلا شعرهم من هموم الحياة، ولما استحال إلى وثيقة تاريخية.

وفي العصر الإسلامي حمل الشعر العربي غاية أخرى غير الغاية الجمالية، هي الدعوة الإسلامية، فزادت نسبة الفائدة والمنفعة في الشعر عمَّا كانت عليه من قبل، فاستخدم الشعر سلاحاً في الحرب القائمة بين المسلمين والمرتدين، يمحِّج كلَّ فريقٍ لوقفه، ويعرض معتقداته، ويروج مقولاته، ولذلك كثُرت في شعر الدعوة والبردة والفتح المعلومات، ولكنها لم تحولها إلى منظومات علمية، لأنَّ الشعراء لم يكونوا

<sup>(١)</sup> انظر ديوان حاتم الطائي ص ٤٢ وتعليق طرقه في شرح التبزيزي للقصائد العشر ص ٨١.

علماء وأصحاب اختصاص، ولأنهم عبّروا عن مواقفهم ومشاعرهم في هذا الشعر، وأرادوا من استخدام الشعر في عرض مواقفهم أن يكون هذا العرض مؤثراً وفاعلاً، أي يجمع بين التأثير العقلي والتأثير العاطفي. فكان الشعر في صدر الإسلام دالاً على أحداث العصر، ومتضمناً لرأف المسلمين وأعدائهم، وفيه الكثير من المعلومات العقائدية والاجتماعية، لكنه لم يتحول إلى نظم علمي خالص، وظلَّ مثل الشعر الجاهلي يجمع بين المتعة والمنفعة، وإن اخذَ وثيقة من وثائق دراسة العصر ورصد أحداثه وموافقه والأفكار السائدة فيه، ولكن الأهمية التاريخية لهذا الشعر تراجعت بسبب قرب العصر من مرحلة التدوين، وبسبب أهميته الدينية التي جعلته موضع تققص ونظر دائم من العلماء فيما بعد، بيد أنه استمر في إظهار افعال الشاعر بيته، وفي تحويل شعره رسالة معينة إلى جانب الغاية الفنية المشودة من إنشائه.

أما في العصر الأموي، فقد كثر الشعر واختلفت بيئاته، وانقسم المسلمون إلى أحزاب متصارعة حول الحكم والخلافة، وعادت العصبية القبلية إلى سابق عهدها، واتسعت الفتوح فوصلت إلى مداها. وقد استخدم الشعر في التعبير عن هذه الأحداث، وانخذ سلاحاً في الصراع، كلّ حزب يعرض آراءه ويدافع عن مواقفه، ويهاجم الحزب الآخر ويسفة مواقفه وآرائه ولذلك لم يبق الشعر فناً خالصاً، يقدم المتعة لملقيه، بل يحمل رسالة يريد الشاعر إيصالها إلى الناس، فكانت له أهمية تاريخية ووثائقية كذلك.

لهذا فقد شيئاً من جماليته، واحتوى كثيراً من المعلومات عن عصره، لكنه لم يبلغ مرحلة النظم العلمي، ولم تكن غايته معرفة صرفة، بل جمع بين غایتين ولامع خطابين، وهذا حال الشعر قبل العصر العباسي، فإنه يدلّ على عصره وبيئته، وهذا يعني أنه ليس من المستغرب أن يعمد بعض الأدباء بعد ذلك إلى زيادة الفائدة المعرفية في الشعر على حساب الفن والجمال والمتعة، لأنّهم وجدوا الشعراً من قبل يعمدون إلى ذلك، ولكن الفرق بين السابق واللاحق يكمن في أنّ السابق حافظ على مقومات الخطاب الشعري في حين أنّ اللاحق أهدر هذه المقومات، ولم يحتفظ إلا بالشكل الخارجي للشعر.

فالشعر قبل العصر العباسي عكس أحوال أصحابه، وأظهر أنه شعر نابع من صميم الحياة، يحمل قيم الناس ومثلهم العليا وما يشغلهم، ويظهر أيضاً ذوقهم وقيمهم الجمالية، ويشبع حاجتهم الفنية.

وفي العصر العباسي انتفع المجتمع العربي على المجتمعات الحبيطة به، وانفتحت الثقافة العربية على ثقافات الأمم التي وقعت تحت سيطرتهم والأمم المجاورة لهم، وشارك المسلمين من غير العرب في بناء الحضارة العربية الإسلامية، وتلقف الأدباء والشعراء هذه الثقافات، وظهر أثرها في شعرهم.

كما اطلع الأدباء على بعض الفتوح الأدبية عند الأمم الأخرى وتأثروا بها، وعلى بعض الظواهر الثقافية التي لا عهد للعرب بها من قبل مثل المنظومات العلمية التي أخذت طريقها إلى الثقافة الأدبية، حتى

عدها بعض دارسي الشعر العربي من الفنون الشعرية الجديدة، على الرغم من اختلافها في الأسلوب والغاية عن الشعر بالمفهوم الذي حددناه من قبل.

وصرنا نجد في الكتب التي تؤرخ للأدب العربي أو التي تدرس الأدب العباسي فصولاً عن فن شعرى جديد، أطلقوا عليه اسم الشعر التعليمي والتسمية تحمل في ذاتها مغالطة، إذ تجمع بين خطابين مختلفين، وبين غایتين متباعدتين، الخطاب الأول الشعر، وهو فن جميل يعتمد على الموسيقى والخيال والكلام المتنقى الذي يحمل دلالات مفتوحة، وغاية المتعة.

والخطاب الثاني التعليم، وهو ذكر لمعلومات من علم معين، يعتمد الدليل والبرهان والجحجة ويعبر عنه بلغة واضحة ومحددة ومقيدة الدلالة، وغايته إيصال المعلومات إلى الناس وإفادتهم، ذلك يخاطب الوجدان ويشير المشاعر، وهذا يخاطب العقل ويستهدف الإقناع.

إن هذا الخلط بين القصائد الشعرية والنظمومات التعليمية في المرحلة الأولى، ثم بفنون البديع وألعاب التسلية في المرحلة الثانية قد أساء إساءة كبيرة إلى صورة الشعر العربي القديم، واستدعاى التنبية على ذلك وعلى أن الأمرين مختلفان، هذا نشاط فني، وهذا نشاط علمي، ولا موجب للجمع بينهما، حتى لو اخترت النظمومات العلمية والألعاب اللفظية الشكل الخارجي للشعر من وزن وقافية.

بدأت تظهر في العصر العباسي منظومات في الدين والتاريخ وغير ذلك، واستمرت في الازدياد مع تقدم الوقت، حتى صارت ظاهرة في الثقافة العربية وفي الأدب العربي لم يستطع الدارسون تجاهلها، فتوقفوا عندها، واختلفوا في طبيعتها من غير أن يستقرروا على رأي فيها، فبعضهم جعلها فنا شعرياً، وبعضهم شكك في نسبتها إلى الشعر، وكذلك اختلف في أصل هذه الظاهرة، فمنهم من أرجعها إلى أصول غريبة عن الثقافة العربية، ومنهم من نسبها إلى الثقافة العربية، بل إلى الشعر العربي نفسه.

يذهب أصحاب الرأى الأول إلى أنَّ العرب نقلوا النظمومات التعليمية عن الثقافات الأخرى، فيرى أحمد أمين أنه كان للهنود تأثير في نشأة الفن التعليمي عند العرب<sup>(١)</sup> معتقداً على قول البيروني: "أول الهنود بهذا النوع من النظم، حتى أنهم نظموا قواعد الرياضة والفلك"<sup>(٢)</sup>.

واشتكى البيروني من هذا النظم لأنَّه يخرجهم أحياناً عن ضبط القواعد وما يستلزمها من دقة في التعبير، لا يتسرى في النظم.

<sup>(١)</sup> أحمد أمين، ضاحي الإسلام ٢٥٨/١

<sup>(٢)</sup> البيروني: تحقيق ما للهنود من مقوله، ص ٧١

ورأى يوهان فك أنَّ هذه المنظومات العلمية التي وضعت على شكل مزدوجات "مطابقة للمثنوي الفارسي تمام المطابقة" <sup>(١)</sup>

أما الدكتور طه حسين فأرجع المنظومات العلمية إلى اليونان الذين عرفوه منذ زمن بعيد، وقال: "لعلَّ أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني (هسيود) الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيحية، ونظم طائفنة من القصائد، فيها جمال شعري لا يُأس به، ولكنَّه قصد بها إلى تقييد طائفنة مما كان اليونان يرونَه علمًا في ذلك الوقت. فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم، كما نظم القصيدة المشهورة التي تعرف بالأعمال والأيام، وبين فيها فصول السنة وما يلائمهَا من ضروب الزراعة وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن" <sup>(٢)</sup>

وذكر في قصة الأدب أنَّ الشاعر اللاتيني (فرجيل) نظم مجموعة بعنوان (أشعار الحقول) وهي أشودة الفلاح حين يحرث الأرض ويرعى الزرع والماشية ... حتى تعدد كتاباً نادراً في أصول الزراعة... <sup>(٣)</sup> وأشار إلى ذلك ابن رشيق فقال أنَّ اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء الفيسية والطبيعية التي يخشى ذهابها. <sup>(٤)</sup>

فيهؤلاء يرون أنَّ العرب أخذوا فنَّ المنظومات العلمية عن اليونان أو الفرس أو اليونان، أو عنهم مجتمعين، وبذلك يكون فناً دخيلاً على الثقافة العربية، وهذا ما لا يراه باحثون آخرون، وفي مقدمتهم الدكتور شوقي ضيف الذي أرجع المنظومات التعليمية إلى أصول لها في الثقافة العربية، وإلى الأراجيز تحديداً التي عمد أصحابها إلى الإغراب وإلى حشد الألفاظ التي بعدها عن الاستخدام، فقال: "نحن إذن بإزاء متون تؤلف، لا بإزاء أشعار تصاغ، ويعبر بها أصحابها عن حاجاتهم الوجدانية أو العقلية... كان الرجال يؤلفون أراجيزهم من أجل الرواية، ومن أجل أنْ يعدهم بكلِّ لفظ غريب وكلِّ أسلوب شاذ، ومن هنا يمكن أن نسميهَا متوناً لغوية".

والدليل على ذلك قول رؤبة بن العجاج (ت ١٤٧ هـ) <sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> يوهان فك : العربية ص ١٠٥

<sup>(٢)</sup> طه حسين: حديث الأربعاء ٢٢١/٢

<sup>(٣)</sup> أحمد أمين و زكي نجيب محمود: قصة الأدب في العالم ٢٦٨/١

<sup>(٤)</sup> العددة ٢٦/١:

<sup>(٥)</sup> ديوان رؤبة بن العجاج ص ٦١

لا ينضر النحوي فيها نظري  
إن لوى لثيَّة بالتحكَّر  
وقوله:

يلتمس النحوي فيها قصدي مُجَدَّت نصراً وهو أهل المجد<sup>(١)</sup>

فأصبحت الأرجوزة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تريده من الشواهد والأمثال،  
”الأرجوزة الأموية تعد أول شعر تعليمي قام في اللغة العربية“<sup>(٢)</sup>

وفي هذا القول ظلم للأراجيز، لأنها اشتغلت على العواطف والمشاعر والخيال والموضوعات الشعرية ولكن أصحاب هذا الرأي قالوا ما قالوه لأنهم شموا رائحة الغاية التعليمية في الأراجيز، فضلاً عن أنَّ شكل الأرجوزة هو الشكل الذي اتبَعه أصحاب المنظمات التعليمية.

وسواء كان أصل المنظمات التعليمية عربياً أم أجنبياً، فإنَّ الغاية التعليمية هي الأصل في إنشائها، لا شك في ذلك، وهو ما التبس على بعض أهل الأدب ودارسيه، فرأى الدكتور محمد مصطفى هدارة اتجاهًا جديداً من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ولكنه استدرك فقال: ” فهو في نظرنا ليس فنا مؤثراً، ولا شعراً خالداً، وليس له من الشعر إلا اسمه... وقد كان لهذا النوع من النظم أثر خطير بعد ذلك في حياة الشعر العربي، إذ أصبح في العصور المتأخرة النوع الوحيد الذي يسمى شعراً وما هو بشعر“<sup>(٣)</sup>.

وفي كلامه تناقض ومتغالطة، فنجد أنه يسمى المنظمات التعليمية شعراً في البداية، ثم يخرجه من الشعر في نهاية كلامه، ويصدر حكماً غريباً بأنَّ هذا النوع هو الذي يسمى شعراً في العصور المتأخرة، وهذا لم يحدث، ولم نقف على قول واحد في هذه العصور يسمى المنظمات التعليمية شعراً.

وقد اعتمد في رأيه هذا على قول الدكتور طه حسين في فن المنظمات العلمية: ” وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ولا سيماء في العصور المتحضررة كعصر العباسين وإنما قيمته في تلك العصور التي لا حظ لها من علم ولا من حضارة، التي لا تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد لأنه أيسر حفظاً من التتر“<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> ديوان رؤبة ص ٤٨

<sup>(٢)</sup> شوقي ضيف: التطور والتتجدد في الشعر الأموي ص ٣١٩

<sup>(٣)</sup> هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٩٣

<sup>(٤)</sup> طه حسين: حديث الأربعاء ٢٢١/٢

فلم يقل الدكتور طه حسين إنَّ النظم التعليمي هو الضرب الوحيد الذي يسمى شعراً في العصور المتأخرة، وإنما أشار إلى ازدياد أهمية النظم التعليمي لأنَّه يسهل حفظ الم-tone التعليمية عند طلاب العلم، وهذا ما عاد إليه الدكتور هدارة عندما قال : "اصطنه الشعراً لنظم أنواع شتى من العلوم والمعارف تسهيلاً لحفظها، وما لا شك فيه أنَّ نشأة هذا الفن إنما تقترب باتساع المعارف والعلوم، وازدياد الإقبال على التعليم والتعلم في القرن الثاني" <sup>(١)</sup>.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن أثر التعليم في نشوء المنظومات التعليمية، فقد وجد المعلمون أن طلبة العلم يحفظون الشعر بسهولة ويسر أكثر من حفظ الشر، ولذلك جلُّوا إلى نظم علومهم على شكل الشعر ليتمكن الطلبة من استظهارها وحفظها.

ونجد ذلك عند ابن دريد محمد بن الحسن ت ٣٢١ هـ العالم اللغوي الشاعر، الذي ضمن شعره بعض علمه، وخاصة في مقصورته المشهورة التي مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال والمي الأهواز وابنه إسماعيل، وضمنها ثلث الألفاظ المقصورة في اللغة العربية فكان هاجس ابن دريد المعلم أن يوصل للناس المعلومات اللغوية، ومنها الألفاظ المقصورة، ودفته الحاجة أو الامتنان إلى مدح ابن ميكال، فأخرج الرغبيين في قصيدة واحدة، استفرقت مثنتين وثلاثة وخمسين بيتاً، افتتحها بالغزل، واستكمل من الدهر، وذكر من أصيب قبله وثبت، ثم وصف الصحراء وحيواناتها قبل أن يشرع في المدح ومنها قوله :

إِمَّا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنَه طَرْرَةٌ صَبَحَتْ حَتَّى أَذِيَالِ الدَّجْزِي  
وَاشْتَعَلَ الْبَيْضُ فِي مَسُودَه مُثْلِ أَشْتَعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْفَضْيِ

ففي المقصورة جمع ابن دريد بين سمات الشعر وسمات النظم التعليمي، أو أنه أدرج الغاية التعليمية ضمن الشعر، فلم يستقل النظم عنده عن الشعر.

ولكنه في منظومة أخرى يظهر المدف التعليمي واضحاً، فيجمع في كل بيت منه بين حالٍ للفظة الواحدة في القصر والمد، ومنها قوله :

لَا تَرْكُنْ إِلَى الْمَوْءُوا وَاحْذَرْ مَفَارِقَةَ الْمَوْءَاءِ  
وَفِرْوَزْ غَيْرُكَ بِالثَّرَاءِ يَسُومَ تَصْبِيرَ إِلَى الثَّرَاءِ

<sup>(١)</sup> هدارة : اتجاهات الشعر العربي صفحة ٣٨٠

<sup>(٢)</sup> شرح مقصورة ابن دريد للتبريزى صفحة ٢

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه صفحة ٢٢٦

ما فعله ابن دريد يعد المرحلة الأولى من الانحراف نحو نظم العلوم، غير أنه لم ينص على ذلك صراحة، وظلّ بنظم الشعر الذي يحمل موضوعاً شعرياً، وله سمات الشعر وخصائصه، ويضمّنه بعض علومه، فإذا حفظ الطالب قصيده، استظهر ما ينفعه في معرفته اللغوية.

ونرى التدرج عند ابن دريد بين قصيده الأولى التي اقتصر فيها على استجلاب قافية مقصورة لها غاية علمية، وبين قصيده الثانية التي حرص فيها على إدراج الكلمة مقصورة وممدودة في بيت واحد فزاد التكليف لإتمام ذلك.

### **ظهور المنظومات التعليمية**

في بداية العصر العباسي اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى، ونقلوا علومهم، ونشأت العلوم العربية الجديدة في الدين واللغة كالفسير والحديث والفقه والقراءات، واللغة والنحو والصرف والعروض، وكلها تحتاج إلى متون تنظم أجزاءها وتلّم شعثنا ليسهل ضبطها وإيصالها إلى شداتها. فاشتدت الحاجة إلى وسيلة تسهل على الطلاب حفظ هذه المتون، ووُجد المعلمون أنَّ الطلاب يميلون إلى حفظ المنظوم أكثر من المنشور، فوضعوا متونهم على شكل منظومات تعليمية، وربما ساعدتهم في ذلك وشجعهم عليه ما وجدوه عند الأمم الأخرى التي نقلوا ثقافتها وعلومها، فاجتمعت الحاجة إلى وسيلة تعليمية سهلة مع التأثير بالثقافة الأجنبية لنشأة عندهم المنظومات الحاوية على متون علمية.

وهذه الغاية العلمية من المنظومات تدفع رأي من وضعها في سياق الشعر، وجعلها فناً من فنونه، وأطلق عليها اسم الشعر التعليمي، فهي ليست شعراً، بل نظم المادة العلمية على شكل الشعر ليسهل حفظها، فظروف نشأتها والأسباب الباعة عليها تخرّجها من إطار الشعر بل إنَّ أصحابها لم يطلقو عليها اسم الشعر، ولم يروها ترقى إلى مكانة الشعر، فكيف سلكها بعض الباحثين المحدثين في مسلك الشعر؟  
ونلاحظ منذ بداية ظهور المنظومات التعليمية أنَّ أصحابها استخدموها في نظمها بغير الرجز، والمزدوج منه خاصة، لسهولة نظمها وسهولة استجلاب قافيته، وقد عرف الرجز المزدوج في العصر الأموي، ونقل عن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد ت ١٢٦ هـ أنه خطب يوماً، وبدأ خطبه بقوله:<sup>(١)</sup>

الحمد لله ولِيَ الْحَمْدُ أَحْمَدَهُ فِي يُسْرَنَا وَالْجَهَدِ  
وَهُوَ الَّذِي فِي الْكَرْبَ أَسْتَعِنُ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ قَرِينٌ

واستهوى هذا الضرب من النظم الشعراء والعلماء لسهولته، فوضعوا أفكارهم وعلومهم فيه، حتى أخذ النقاد عليهم ذلك، فقال ابن رشيق :<sup>(١)</sup> "رأيت جماعة يركبون المحمّسات والمسّطات ويكترون منها، ولم أر متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها، لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه". وهذه إمكانية العلماء في النظم، لذلك لجأوا إليه في نظم علومهم.

### **الشعر والحكمة وبده المفارقة**

نشر الشعراء الجاهليون الحكم والأمثال في شعريّة شعرهم، أو وضعوها في ختام قصائدهم مثلما فعل زهير بن أبي سلمى في معلقته وهي في المعلقة توحّي بانفصالها عن القصيدة لأنها لا ترتبط موضوعياً بضمونها، ولأنها تخلو من المشاعر والأحساس، استمدّها من تجاربها وتجارب قومه، فلم تفصل عن الحياة لتشكل علماً مستقلاً كالفلسفة، وظل الأمر عند الشعراء العرب على هذا النحو في صدر الإسلام وأيامبني أمية. أما في العصر العباسي فالتفت الثقافة العربية بالثقافات الأخرى، وزاد نصيب الفكر في الشعر عما كان عليه من قبل، فقلّ نصيب الشاعرية فيه فلولا عمق فكر أبي العلاء المعري وجرأته لما علق شعره في الذهن، ولا ذكر في الكتب لاشتماله على الفلسفة ولكثره إعمال العقل فيه .

وازن الشعراء الكبار كبسار وأبي نواس بين المكونات الفكرية الوافية والمكونات الفنية لشعرهم، فظلّ مقبولاً، سائغاً عند الناس . ولم يستطع شعراء آخرون فعل ذلك فغلب الفكر على شعرهم حتى اقترب أو دخل في المنظومات التعليمية . فقبل أن يوغل أبو العناية اسماعيل بن القاسم ت ٢١١ هـ في مذهبه الفكري، كان شعره جميلاً ماتعاً، ولكنه بعد أن استغرق الزهد التأثير بأفكار غربية عن المجتمع العربي الإسلامي، تحول شعره إلى نظم، لأن غایته من إذاعته في الناس الدعوة إلى منهج اجتماعي جديد، وليس إشباع حاجتهم الجمالية، ومن ذلك قصيده ذات الأمثال التي قال فيها :<sup>(٢)</sup>

استغن بالله تكون غنياً      ارض عن الله تعش رضياً  
ما انتفع المرء بمثل عقله      وخير ذخر المرء حسن فعله

وعلى الرغم من أن أبو العناية سرد حكمه سرداً، واضطر إلى شيء من التقديم والتأخير في بناء الجمل ليوافق الوزن والقافية، فحدّ هذا الأمر من استرساله، فقد حافظ على قدر من الشاعرية، لأنّه شاعر

<sup>(١)</sup> ابن رشيق : العمدة ١/١٢

<sup>(٢)</sup> شكري فيصل : أبو العناية أشعاره وأخباره صفحة ٤٤٤

متدرس موهوب من ناحية ، ولأن موضوع مزدوجته موضوع شعري من ناحية ثانية ولكن الواضح في هذه المنظومة أنه لم يسع إلى تجوييد نظمه وإلى الخيال كما هو شأنه في شعره الآخر ، وأظهر أنه ينظم شيئاً مغايراً لما اعتاد الناس أن يسمعوه منه ، فغايته من منظومته إيصال رسالة إلى متلقيه وإفاداته بأفكار محددة ، وليس إمتناعه.

فكان الشاعر إذا أراد أن ينظم علمًا اتبع نظام المزدوjas ، وإذا أراد الشعر اتبع الطريقة المعروفة لتنظيمه ، وبيدو - كما رأى بعض نقاد الشعر قديماً - أن المزدوج يدل على ضعف قرحة الشاعر ، لذلك جاء إليه العلماء ، لأنه يخلصهم من تنوع الأوزان ووحدة القافية في القصيدة الواحدة وتبعد في ذلك الشاعر أبو الفضل السكري (أحمد بن زيد) الذي نظم مزدوجة ، أدرج فيها أمثل الفرس ، ومنها :<sup>(١)</sup>

من مثل الفرس ذوي الأبصار      الثوب رهن في يد القصار  
إن البعير بغض الخشاشا      لكنه في أنه ما عاشا  
ولأن حظهم من موهبة الشعر ضئيل .

وأخذت الشقة تبعد بين الشعر والنظم ، حتى استقلَّ النظم عن الشعر ، وأدرك الناس آنذاك غایيات كل منها وطبيعتهما ، فلم يختلطوا بينهما ، وسموا الأشياء بأسمائها ، ومن المستغرب أن يأتي الباحثون المحدثون ليعيدوا الخلط بين النظم والشعر متخدعين بالشكل الخارجى ، أو لإظهار أنهم اكتشفوا شيئاً جديداً ، لم يسبقهم إليه أحد .

وهكذا بدأ النظم يستقلُّ عن الشعر ، وكثير عند أهل الأدب والعلم ، فوجدناه عند أبان بن عبد الحميد اللاحقي ت ٢٠١ هـ الأديب الكبير الذي يعدَّ رأس الناظمين حين نظم كتاب كليلة ودمنة بعد أن ترجمها ابن المقفع إلى العربية ، أو أنه أعاد ترجمتها شرعاً ، لأنَّ الصولي يقدم لها بقوله: "قال في قصيده التي نقل فيها كليلة ودمنة" <sup>(٢)</sup> وكلمة (نقل) تعنى (ترجم) ، ويقيل إنه نظمها في أربعة عشر ألف بيت ، وقد لفت الانتباه إلى هذا الكتاب ، فنظمه غير واحد قبل أن ينظمها ابن الهبارية محمد بن صالح ت ٥٠٤ هـ في منظومة طويلة أطلق عليها اسم (نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة) ونظم ديواناً آخر ، هو ديوان الصادح والباغم الذي يتضمن أراجيز قصصية ووعلقاً وحكمـاً.

<sup>(١)</sup> بتيمة الدهر ٨٨/٤

<sup>(٢)</sup> الصولي : أخبار الشعراء المحدثين ، كتاب الأوراق ص ٤٦

وقد بدأ أبان نظم كتاب كليلة ودمنة بقوله : <sup>(١)</sup>

هذا كتاب أدب ومحنة  
فبيه احتيالات وفيه رشد  
فوصفو آداب كل عالم  
فالحكماء يعرفون فضله  
وهو على ذاك يسيراً الحفظ

واضح أنَّ ما فعله أبان ليس شعراً ، بل نظم لقصة قرأها ، فقد أراد أن يدهش معاصره بقدرته على تحويل كتاب ثري إلى نظم ، وليس إلى شعر مatum ، فاكفى بالوزن والقافية المتغيرة ، وترك عناصر الشعر الأخرى.

وقد كان لأبان ما أراد ، فقد أعجب الناس بفعله ، وسعى الأدباء إلى مجاراته ، ومن فعل ذلك ابنه حمدان بن أبان الذي نظم منظومة طويلة في وصف الحب وأهله ، قال فيها : <sup>(٢)</sup>

وابتدى الكتابا بالوصف ببابا بابا

ويضي حمدان في منظومته ، يصف أحوال الحبّين ويقدم النصّ لهم لتسقّي أمورهم ، وكان حمدان ورث عن أبيه حبَّ النظم ، وظنَّ أنه الطريقة المثلثة للتغيير عن كلِّ الأمور ، لا يستعصي عليه موضوع ، وهذا يدلُّ على مدى شبيع النظم وإقبال الناس عليه ، وربما كان ضرباً من التجديد في طرائق التعبير يحمل طرافه وبراعة ، ويخرج النشاط الثقافي من رتابته ، مستفيداً من إقبال الناس على الشعر وحرصهم على استظهاره وحفظه ، فسارع كلَّ صاحب علم لديه أدنى قدرة على النظم إلى وضع متن علمه في منظومة ، واستمرَّ ذلك إلى عصور متأخرة ، فصار لديناكم ضخماً من المنظومات في علوم الدين واللغة والتاريخ والفلسفة والطب والفلكلور والحيوان وغير ذلك من ضروب المعرفة.

ففي علوم الدين نجد منظومات كثيرة في التفسير والقراءات والحديث والأصول والفقه وغير ذلك ، بسبب الإقبال الكبير على تحصيل هذه العلوم ، ووجد العلماء أنَّ وضع متون علوم الدين في منظومات يساعد الطلاب على حفظها ، ويشتت مسائل كلِّ علم ويجدها. وببدأ النظم في هذه العلوم أبان بن عبد

<sup>(١)</sup> المصدر السابق ص ٤٦

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه ص ٥٧

الحمد لله الذي وضع منظومة في الصوم والزكاة، قال فيها: <sup>(١)</sup>

قال أبو يوسف أما المفترض فرمضان صومه إذا عرض  
والصوم في كفارة الأيمان من حيث ما يجري على اللسان

ويستمر أباً في نظم كلام أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، فيوضح أحكام الصوم وأنواعه، وبعد أن ينتهي من حديث الصيام، ينتقل إلى حديث الزكاة، بنظم ليس له علاقة بالشعر من قريب ولا من بعيد على الرغم من كونه أدبياً شاعراً مجيداً، لأنه هنا يعرف أنه يقدم شيئاً آخر غير الشعر وإن كان منظوماً، فيحرص على دقة العبارة ووضوحها، مبتعداً عن الخيال وجمال الأسلوب، على الرغم من أنَّ الحديث عن الدين يكون شاعرياً بطبعه بسبب المشاعر الحميمية الصادقة التي يستثيرها، وبسبب اتفاق الدين والأدب في الغاية وهي تهذيب النفس الإنسانية والسمو بها، ولأنَّ المتحدث في الدين يكون متهدِّماً ويريد التأثير في الناس، فيهذب أسلوبه ليأتي في أفضل صورة ممكنة. ولكنَّ تناول الدين شعرياً شيء ونظمه شيء آخر، وهذا ما تؤكده المنظومات الكثيرة في علوم الدين، مثل منظومة حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع للشاطبي، القاسم بن نيرة ت ٥٩٠ هـ التي بدأها قائلاً :

الذي قال في قراءة الفاتحة: <sup>(٢)</sup>

ومالك يوم الدين راويه ناصر وعند سراطِ والسراط لقنبلا  
بحيث أتى والصاد زايا أشمها لدى خلفِ واشمش خلاد أو لا

وتبدو المنظومة من الصعوبة بمكان، ويحتاج فهمها إلى ضبط وشرح مستفيض، وبدلًا من تسهيل الأمر على الطلبة بنظم القراءات، جاء النظم شاقاً عليهم، وهنا أعطى النظم عكس المرجو منه، فكيف يمكن إلحاقه - وهو على هذه الصورة - بالشعر على وجه من الوجوه.

ومن ذلك منظومة السخاوي، هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيان متشابه الكتاب، منها في باب الألف (أنزلنا) :

واقرأ (فأنزلنا) بآي البقرة (على الذين ظلموا) محمرة  
لكن (فارسلنا عليهم) جاء في سورة الأعراف يقيينا فأعترف  
فيها وفي الأعراف (يظلمونا) وأخر الآية (يفسقونا)

<sup>(١)</sup> الصولي: أخبار الشعراء، المحدثين ص ٦١

<sup>(٢)</sup> الشاطبي: حرز الأماني ص ٢٧.

فهداية المرتاب نظم علمي خالص، لا يحتوي على أي ملامح شعرية، عرف الناظم هدفه، فقصد إليه من غير لبس، ولم يخلط منظومته بأي تعبير شعري، ولا يمكن لأحد أن يقول: إنَّ ما صنعه السخاوي شعر. ومن ذلك أيضاً المنظومات التي تناولت بعض جوانب علم الحديث الشريف، مثل منظومة أَحمد بن الفرج الإشبيلي التي اشتهرت باسم (غرامي صحيح)، ذكر فيها ألقاب الحديث الشريف ودرجاته مضمنة في قصيدة غزل متكلفة، وجاء فيها :<sup>(١)</sup>

غرامي صحيح والرجا فيك مفضلُ  
حزني ودمعي مرسلٌ ومسلسلُ  
خذِ الوجه عنِي مسندًا ومعنىَنا فغيري موضوع الهوى يتجمَّل

بني الناظم منظومته على ظاهر وباطن، ظاهر من الغزل، وباطن باستيفاء صفات الحديث الشريف، ويظهر التكفل واضحاً في تضمين ألقاب الحديث والتوجيه بها، لأنَّه بني على معانيها قبل أن تصبح مصطلحات علمية، ومثل هذه المحاولات هي التي أوقعت بعض الباحثين في الالتباس والخلط بين النظم والشعر، لأنَّ الناظم تناول غرضاً شعرياً كثير التداول هو الغزل، وحاول أن يأتي على معانيه وصوره، ولكن هذا الجمع لم يسلم له، لأنَّه رهن المعاني والمشاعر والتعبير الشعري لمصطلحات علم الحديث، فظلَّ صنيعه ضمن المنظومات على الرغم من محاولته الإيهام بأنه ينظم شعراً.

وبذلك نرى أنَّ المنظومات الدينية تختلف في أشكالها وأساليبها وطرائق أدائها، فمنها ما كان على شكل القصيدة ومنها ما كان على شكل المزدوجة، وربما جاءت فيها بعض العبارات الشعرية في المقدمة والخاتمة، ولكنها في الغالب تستغرق في سرد جوانب العلم الذي تتناوله، وتخلص لغایتها العلمية مبتعدة عن الشعر وسماته وخصائصه وغاياته، مثل منظومة بهجة الحاوي لابن الوردي، التي نظم فيها كتاب الحاوي الصغير في الفتنة الشافعي فيما يزيد على خمسة آلاف بيت، وقد جاء :<sup>(٢)</sup>

وجاء في باب الوضوء قوله :

فرض الوضوء غسل وجه وهو أنْ  
يغسل بين الرأس وانتهاء الذقن  
ووجه لحيبيه وأذنيه وعمَّ  
من نازل اللحية وجهاً والغم

<sup>(١)</sup> أَحمد بن الفرج الإشبيلي : غرامي صحيح ص ١١

<sup>(٢)</sup> ابن الوردي : الغرر البهية في شرح منظومة بهجة الوردية ٤٩٧/١٠

وعلى الرغم من أنَّ ابن الوردي أديب شاعر، له ديوان شعر ونصوص ثرية أدبية كثيرة، فإنه عندما شرع في نظم مسائل الفقه كبا، ولم يحسن الإفصاح عن مراده، فاحتاج نظمته إلى شرح، وهذا يثبت بعد الشقة بين النظم والشعر.

أما منظومات علوم اللغة فهي لا تحدُّ، ولا يحيط بها حصر، شملت اللغة والنحو والعروض والبلاغة وتالت منذ استوى علم اللغة حتى بداية العصر الحديث، وظلَّت موضع اشتغال اللغويين وال نحويين شرحاً وإيجازاً، وقد بدأ مسيرة هذه المنظومات الكسائي علي بن حمزة ت ١٨٩ هـ، الذي أوضح أهمية علم النحو بقوله: <sup>(١)</sup>

إِنَّمَا النَّحْوَ قِيَاسٌ يَتَّبَعُ  
وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَنْتَفِعُ  
فَإِذَا مَا أَبْصَرَ النَّحْوَ فَتَسَعُ  
مِرْفَى الْمُنْطَقِ مَرَّاً فَاتَّسَعَ

لا توجد في أبيات الكسائي شاعرية، ولكنه لم يصل إلى مرحلة النظم، بل عبر عن مراده مباشرةً ووضوح، لأنَّه لا ينظم مسائل النحو وقواعده، وإنما يتحدث عن علم النحو وأهميته، ولذلك لا تدرج هذه الأبيات ضمن المنظومات العلمية، وإن كانت تفتقر إلى مقومات الشعر، ولكنَّ الذين جاؤوا بعده رأوا ما فعله الناظمون في العلوم الأخرى ففعلوا فعلهم، فقد نظم الحريري القاسم بن علي ت ٥١٦ هـ ملحمة الإعراب، ونظم ابن أبي الحميد عبد الحميد ابن هبة الله ت ٥٦ هـ فصيح ثعلب، ونظم ابن معطي صحاح الجوهري وجمهورة ابن دريد وكتاباً في العروض، لكنه اشتهر في الدرة الآلية مثلما اشتهر ابن مالك محمد بن عبد الله ت ٦٧٢ هـ في ألفيته، وكذلك ابن الحاجب عثمان بن عمر ت ٦٤٦ هـ صاحب منظومة الكافية في النحو والشافية في الصرف.

وقد بدأ ابن معطي يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور ت ٦٢٨ هـ ألفيته بالحمد والصلوة والإشارة إلى أهمية علم النحو، ثم ذكر أنه نظم ألفيته نزولاً عند رغبة بعض إخوانه، فقال: <sup>(٢)</sup>

وَذَا حَدَا إِخْرَانَ صَدَقَ لِي عَلَى  
أَنْ اقْضِيَ مِنِّي لَهُمْ أَنْ أَجْعَلَ  
أَرْجُوزَةَ وَجِيزَةَ فِي النَّحْوِ  
عَدَّتْهَا أَلْفَ خَلْتَ مِنْ حَشْوَ  
وَفَقَ الذَّكِيَّ وَالْبَعِيدَ الْفَهْمَ  
لَعْنَهُمْ بِأَنْ حَفْظَ النَّظَمِ

<sup>(١)</sup> المطيب البندادي: تاريخ بغداد ٤١٢/١١

<sup>(٢)</sup> إبراهيم بن الحسن: الصفوحة الصفة في شرح الدرة الآلية ١/١

**بِاللَّهِ رَبِّي فِي الْأُمُورِ أَعْتَصُمْ**  
**الْفَوْزُ إِن يَفْدِي هُوَ الْكَلَامُ** **خُو: ماضِي الْقَوْمِ وَهُمْ كَرَامٌ**

واستمر ابن معطي في إبراد أبواب النحو على ترتيب المصنفين في هذا العلم برشاقة ووضوح مع ضرب المثل على القاعدة والمسألة، لم يتجلج ولم يضطرب، وكأنه يسردها ثراً، وهذا يدل على أنه متمكن من علمه وأن إيقاع الرجز قد استقر في نفسه، ومع ذلك تبقى الألفية منظومة علمية لا علاقة لها بالشعر، نظمها صاحبها - كما قال - لمساعدة الطلبة في حفظ بحوث علم النحو، وهذه ستة منظومات علم اللغة، بل قد تكون أكثر غموضا من هذه الألفية، لأن جميع علماء اللغة لم يرزقوا قدرة ابن معطي.

وفي علم التاريخ منظومات كثيرة مختلفة، بعضها يجمع بين الشعر والنظم وخاصة عندما يكون صاحب المنظومة شاعراً متمراً وشاهداً على الأحداث التي ينظمها فيعقب عليها مظهراً موقفه ومشاعره نحو الأحداث التي يذكرها، وبعضها الآخر نظم خالص لمن، يريد الناظم الإحاطة به وتقديمه لطلابه من أجل حفظه واستظهاره.

وقد بدأ النظم في التاريخ بقصيدة منسوبة إلى الأصمسي عبد الله بن قربت ٢١٦ هـ، يذكر فيها من أهلk الله عز ذكره - من الملوك، وأباد من الأمم الحالية، قال فيها:

**أَعْلَقْتُ تَبَعًا حَبَالَ الْمَنُونَ** **وَانْتَهَتْ بَعْدَهُ عَلَى ذِي جُدُونَ**

يلاحظ أن أبيات الأصمسي تقترب كثيراً من النظم، لأنها يروي الأحداث من غير أن يظهر موقفه منها، أو أن يستخدم خياله في تصويرها، وظل حيادياً، يقدم المعلومات، وهي غايتها من نظمها، وليس الشعر.

ومن أوائل المنظومات التاريخية (المخبرة في التاريخ) لعلي بن الجهم ت ٢٤٩ هـ، وهي مزدوجة تجاوزت ثلاثة بيت، جعلها في جزأين، تناول في الأول بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وتناول في الثاني تاريخ الإسلام والخلافة حتى أيامه. وقد بدأ بعد الحمد والصلوة بقوله:

**يَا سَائِلِي عَنْ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ** **مَسْأَلَةُ الْقَاصِدِ قَصْدُ الْحَقِّ**  
**أَخْبَرْنِي قَوْمٌ مِنَ الشَّفَّاقَاتِ** **أُولُو عِلْمٍ وَأُولُو هَيَّنَاتِ**

(١) الباحث: الحيوان ١٤٩٦

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٢٨

أنَّ الَّذِي يَفْعُلُ مَا يَشَاءُ وَمَنْ لَهُ الْعَزَّةُ وَالسَّقَاءُ  
أَنْشَأَ خَلْقَ آدَمَ إِنْشَاءً وَقَدْ مَنَّهُ زَوْجَهُ حَوَاءُ

في هذه المقدمة، أظهر أنَّ نظم أرجوزته إجابة لسؤال سائل، ولم يدع العلم لنفسه، بل أنسندها إلى علماء ثقات، وهذه طريقة العلماء، فالاهتمام بالسند ليس من عمل الشعراء، وهذا يشير إلى أنه هنا ترك الشعر إلى النظم ليثبت على طريقته شيئاً من التاريخ، وليساعد على استظهاره وحفظه.

وبداً منْذَ أَنْ شَرَعَ فِي سَرْدِ حَوَادِثَ مَرْتَبَكَا لَا يَسِيرُ عَلَى سُجِيَّتِهِ، فَقَدْ أَلْجَاهُ النَّظَمَ إِلَى اخْتِيَارِ صَفَاتِ  
وَأَسْمَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - تَنَاسُبُ الْوَزْنِ لِلنَّيْاقِ الْمُعْنَوِيِّ، فَالنَّظَمُ لَا يَتَبَعُ لِلنَّاظِمِ الْإِسْتِرْسَالِ عَلَى سُجِيَّتِهِ،  
بَلْ يَقِيَّدُهُ بِقَبْوِدِ الْوَزْنِ وَالْقَافِيَّةِ، فَيُضْطَرُ إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالْحَشُوِّ، وَهُنَّتِي عَنِ الدُّخُولِ فِي سَرْدِ  
الْأَحَدَاثِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَظَهَرُ فِيهِ الشَّاعِرِيَّةُ، لَمْ يَظَهُرْ عَلَيْهِ بْنُ الْجَهَمَ مَا عَرَفَ عَنْهُ مِنْ رَقَّةٍ وَابْدَاعٍ،  
فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ قَصَّةَ آدَمَ وَحَوَاءَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَنَزَّلُوهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ : <sup>(١)</sup>

لَبِشْ مَا اعْتَاضَ عَنِ الْجَنَانَ وَعَنْ جَوَارِ الْمَلَكِ الْمَنَانَ  
وَالْعَضُوفُ مِنْ خَلِيقَةِ الإِنْسَانِ لَاسِيَّمَا فِي أُولَى الزَّمَانِ

والسبب في ذلك أنَّ بْنَ الْجَهَمَ لَمْ يَضُعْ فِي ذَهَنِهِ أَنَّهُ يَنْظِمُ شِعْرًا، بل يَنْظِمُ شِيَّئًا آخرَ غَيْرَ الشِّعْرِ، ولَذَلِكَ  
الْتَّرَمُ بِسَمَاتِ النَّظَمِ وَلَمْ يَغَدِرْهَا إِلَى سَمَاتِ الشِّعْرِ الَّذِي يَعْرَفُهُ جَيدًا.

وَمِنْ مِنْظُومَاتِ التَّارِيخِ الْمُشْهُورَةِ مِنْظُومَةِ بْنِ الْمُعْتَزِ ٢٩٦ هـ الَّتِي احْتَوَتْ سِيرَةَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ  
الْمُعْتَضِدِ، بِدَأْهَا بِالْحَمْدِ وَالصَّلَاةِ، وَأَشَارَ فِيهَا إِلَى حَقِّ بْنِ الْعَبَاسِ فِي الْخَلَافَةِ، فَقَالَ فِي خَتَامِ الصَّلَاةِ عَلَى  
الْبَنِيِّ : <sup>(٢)</sup>

مَسْنِي وَأَبْقَى لِبْنَيِّ الْعَبَاسِ مَسِيرَاتِ مَلَكِ ثَابِتِ الْأَسَاسِ  
ثُمَّ وَصَفَ حَالَ الْخَلَافَةِ قَبْلَ الْمُعْتَضِدِ، فَقَالَ : <sup>(٣)</sup>

هَذَا كَتَابُ سِيرَةِ الْإِمَامِ  
أَعْنَى أَبَا الْعَبَاسِ خَيْرَ الْخَلْقِ  
مَهْذِبًا بِجُوهرِ الْكَلَامِ  
لِلْمَلَكِ قَسْوَلِ عَالَمِ بِالْحَقِّ

<sup>(١)</sup> ديوان علي بن الجهم ص ٢٢٩

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن المعتز ص ٣٩٩

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه ص ٤٠٠

قام بأمر الملك لما صاعا  
وكان نهبا في السورى مشاعا  
منذلا ليست له مهابه بخاف إن طنت به ذبابه

وتسير المزدوجة على هذه الطريقة في سرد الأحداث والتعليق عليها بسلاسة ويسر، لأنَّ نظامها شاعر متتمكن، يخصُّه الأمر، وكان شاهداً على الأحداث التي يرويها، فبذا متأثراً، متحمساً، وهذا التأثر والحماس أظهرها الشاعرية في المنظومة، فانتشرت فيها اللمحات الشعرية الجميلة، وخاصة عندما يصف أو يدح أو يهجو أو يتهكم، وهي من موضوعات الشعر التي أجادها الشاعر، وأحسن تصميئها في كتابه التاريخي المنظوم، فجاءت منظومته متفردة بين المنظومات التاريخية، ومع ذلك يصعب إدراجها ضمن الشعر، لأنَّ غايتها منها غاية علمية، وأدت شاعرته أن تواري.

ومثل هذه المنظومة تدخل اللبس على المصنف، فيحار في تصنيفها، لأنَّها تحمل سمات النظم العلمي من ناحية، وتكتُر في ثناياها سمات النظم الشعري، والسبب في ذلك أنَّ الحوادث التاريخية يمكن أن تكون موضوعاً للشعر إذا اكتفي بسردها وإظهار الموقف منها، ولم يعمد راويها إلى التحليل والتدقيق والوقوف على الأسباب والنتائج.

ومثل ذلك أرجوزة ابن عبد ربه أحمد بن محمد بن ٣٢٨هـ التي ذكر فيها مغازي عبد الرحمن الناصر في الأندلس، فجاري بها ابن المعترَّ واتَّبع طريقته، وأبي أدبه إلا أن يظهر فيها، فقال بعد المقدمة :<sup>(١)</sup>

أقول في أيام خير الناس ومن محلّى بالسندى والباس  
ومن أباد الكفر والنفاقا وشرد الفتنة والشقاوة  
ونحن في حنادسِ كالليل وفتنة مثل غشاء السبيل  
حتى تولّى عابد الرحمن ذاك الأغرَّ منبني مروان

إنَّ الناظم لحوادث شهدتها لم يكن محايضاً، فكان يستخذل موقعاً منها، فيتشيد بما يراه حسناً، ويهاجم ما يراه سيئاً، ويصف بعض المواقف، فتظهر الشاعرية هنا وهناك في المنظومة، ولكنه عندما يكون بعيداً عن الحوادث، ويتخذ سمة المؤرخ الموضوعي، فإنَّ هذه الشاعرية تتوارى، ولا يظهر لها أثر إلا في مقدمة الحمد والصلوة، وفي الخاتمة، وهذا يدلُّ على أنَّ المنظومات التاريخية كانت تسير على نهجين متباغبين، نهج تخلص فيه المنظومة للنظم، ونهج يختلط فيه النظم بالشعر، وقد استقرَّ الناظمون بعد ذلك على النهج الأول،

<sup>(١)</sup> ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥٠١/٤

وتحلّلت المنظومات التاريخية من آثار الشعر على الرغم من أنَّ الناظمين شعراً، لأنَّ مفهوم المنظومة استقرَّ عند أهل العلم والأدب وتواضعوا على أنَّ النظم شيءٌ والشعر شيءٌ آخر، فكثُرت المنظومات التاريخية في العصور المتأخرة، والتزم أصحابها بإيراد متن الحوادث التاريخية وسردها من غير تعقيب أو تدخل، ومن غير أن يقحم الناظم نفسه فيما ينظم، مثل أرجوزة العقود الدرية في الأمراء المصرية لجمال الدين الجزار يحيى بن عبد العظيم ت ٦٧٩ هـ، التي ذكر فيها من تولى أمر مصر منذ الفتح الإسلامي إلى أيامه، وقال فيها بعد المقدمة :<sup>(١)</sup>

يَا سَائِلِي عَنْ أَمْرَاءِ مَصْرِ	مِنْ حِبَابِهَا عَمْرُ لِعْمَرِ
خَذْ مِنْ جَوَابِي مَا يَزِيلُ الْبَسَا	وَاحْفَظْهُ حَفْظَ ذَاكِرٍ لَا يَنْسِي
أَوَّلُ مَنْ كَانَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ	مَفْوَضًا بَعْدَ الْفَتْحِ عَمْرُ

على هذا الشكل استقرَّت المنظومات التاريخية، منفصلة تماماً عن الشعر، وأصبحت غايتها ضبط المتن التاريخي وتحديد حوادثه، ومساعدة طلبة التاريخ على الحفظ والاستظهار.

ووصل النظم إلى الفلسفة على قلة المشغلين بها في الثقافة العربية الإسلامية، وقد خالطت الفلسفة الشعر، فكان بعض الشعراء ينطلقون في معالجة الموضوعات من منطلق فلسفياً، أو يضمّنون شعرهم نظرات فلسفية، ومثل هذا الأمر يقيِّي ما يفعلونه شعراً، أما إذا سرد الناظم القضايا الفلسفية سرداً بغرض إيصالها إلى المتعلمين فيكون ما يفعله نظماً لا غير، وإنْ تخلَّته لحات شعرية، ومن أوائل من تناول الفلسفة شعراً العالم ابن سينا الحسين بن عبد الله ت ٤٢٨ هـ في قصيدته المشهورة عن النفس التي قال فيها :<sup>(٢)</sup>

هَبَطَ إِلَيْكَ مِنَ الْمُحْلَّ الْأَرْفَعِ      وَرَقَاءُ ذَاتِ تَعْزِيزٍ وَتَمْنَاعِ

وهذه القصيدة ذات مستويين في المعنى، مستوى ظاهر يشير إلى المستوى المستور، وقد اتبَع ابن سينا طريقة رمزية للتعبير عن مراده، ساعدته في الحفاظ على الأسلوب الشعري في المعالجة، ولكنَّ هذا الأسلوب أقل بمحض الحالات الفلسفية وعباراتها، فاقتربت من النظم، وهذا احتيال لطيف من ابن سينا الذي أراد لأفكاره حول النفس الانتشار، فلم يجد وسيلة أفضل من وضعها على شكل الشعر.

<sup>(١)</sup> السيوطي: حسن المعاشرة ١٨٨/١

<sup>(٢)</sup> ابن أبي أصيبيعة: عيون الأنباء، ص ٤٤٦

ولابن الشبل البغدادي محمد بن الحسين ت ٤٧٣ هـ قصيدة مشهورة نسبت إلى ابن سينا، يتساءل فيها عن الكون وجود الإنسان فيه، والمصير الذي سيؤول إليه، وفيها يقول :

بريك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار

والمنظومة كلها تساؤلات تشيرها الفلسفة وتحاول الإجابة عنها، ووضعها في هذا الشكل يتبع لها الانتشار، لأن عبارات الفلسفة اصطلاحية غامضة، لا يدركها إلا المشغل بها، أما نظمها فيتيح الاطلاع عليها لأكبر عدد من الناس.

ولم يصل ابن الشبل البغدادي وابن سينا إلى النظم الخالص، لأنهما وضعما من علم الفلسفة بطريقة تعليمية ذكية، مستفيدين من قدرة الشعر على التخفيف من جفاف الأفكار الفلسفية، ولكن هذا الأمر لا نجد له عند أبي طالب عبد الجبار بن محمد المعاوري ت ٥٦٦ هـ الذي تطرق إلى الفلسفة في أرجوزة له، فقال :

وكل شيء جوهر أو عرض	إلا الذي الطوع له مفترض
فإن فحصت قائلًا ما الجوهر	وما هو العرض إذ يُفسَّر
فالجوهر الحامل للأعراض	وهو الذي ليس بذِ أبعاض
والعرض المحمول كالألوان	وحركات الجسم والإسكان

هنا وصل أبو طالب إلى النظم الخالص في الفلسفة، لأنه يقرر مسائلها، ويعرض متها، وهو يعرف أنه ينظم علمًا ولا يقول شعراً، فحرص على أن يكون واضحاً دقيقاً، لم يظهر مشاعره، ولم يستخدم طرائق الشعر في التعبير، فوصلت المنظومات إلى الفلسفة، كما وصلت إلى علوم الدين واللغة والتاريخ.

ولم يقتصر أمر المنظومات على العلوم النظرية، بل وصل إلى العلوم التطبيقية، مثل الطب والصيدلة والزراعة والحيوان والفلك والكميات وغير ذلك من العلوم، وهنا لا مجال للالتباس بالشعر، لأن التعبير عن هذه العلوم لا يحتمل خلطه بأيّ سمة من سمات الشعر، حتى عندما يفتخر العالم بعلمه مثل فخر إسحاق بن حنين العبادي ت ٢٩٨ هـ بأنه من قوم أتقنوا الطب وعرفوا أسراره في قوله :

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢٤/١٠

(٢) ابن سما: الذخيرة ٩٢٣/١

(٣) ابن أبي أصييع: عيون الأنباء ص ٢٧٥

أنا ابن الذين استودع الطبَّ فيهم  
وسمّوا به طفل وكهل ويافع  
يُصْرِنِي ارستطاليس بارعاً  
يقوم مني منطق لا يدافع

وهذه منظومة ثقيلة ركيكة لعالم حظه من العربية قليل، ليست من النظم ولا من الشعر، ولكنها لفت انتباه بعض المشتغلين في الطب إلى إمكانية نظم مسائله تسهيل حفظها على الطلبة، مثل الطبيب محمود بن عمر ابن دقيبة ت ٦٣٥ هـ الذي وضع أرجوزة في الفصد، ونظم مسائل حنين وكليات القانون لابن سينا تحت اسم (لطف المسائل وتحف السائل) منها : <sup>(١)</sup>

تسوق الامتلاء وعذّ عنه      وإدخال الطعام على الطعام

وهي نصائح طبية منظومة في وزن وقافية، لا علاقة لها بالشعر إطلاقاً، وإنما المراد منها إطلاع الناس على فوائد طبية ومسائل في الطب بطريقة يسهل عليهم حفظها وترديدها ليفيدوا منها بعيداً عن مسائل الطب المقدمة ومصطلحاته التي لا يعرفها غير الأطباء.

وكذلك ما نظم في علم الحيوان، فإنَّ المهتمين بدراسة حياة الحيوان، نظموا بعض المنظومات في غرائب الحيوان وطبيعته وبعض الأوهام المتعلقة به، يريدون الموعظة من خلقه، مثلما فعل بشر بن المعتمر في منظومتين، أوردهما الجاحظ : <sup>(٢)</sup>

وفيهما تأمل بشر بن المعتمر حياة الحيوان من حوله، فرصد بعض أحوالها مقدماً معلومات عنها إلى الناس ومذكراً بديع خلقها وحكمة خالقها، ولم يستخدم طرائق الشعر، ولم يدخل الخيال في تعبيره، لأنَّه يعلم مسبقاً أنه ينظم معلومات علمية يخاطب بها العقل، ولا ينظم شعراً يستثير به العواطف.

وعلى هذا النحو كان نظم علم الحيوان عند من جاء بعده، سوى الترديدات التي أغري أصحابها بوصف الصيد وحيواناته، ولكنهم ظلوا في إطار الشعر، وإن تحولت بعض قطعهم إلى وصف جامد للحيوان، يأتون على أعضائه وصفاته بالتفصيل وباللفاظ غريبة وكأننا أمام منظومة في صفات الكلب أو الفهد أو الصقر، مثل قول صفي الدين الحلبي عبد العزيز بن سرابيات ت ٧٥٠ هـ ضمن أرجوزة في وصف كلب الصيد من طردية : <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن أبي أصيحة: عيون الأنباء، ص ٢٢٧

<sup>(٢)</sup> الجاحظ: الحيوان ٢٨٤ / ٦

<sup>(٣)</sup> ديوان صفي الدين الحلبي ص ٢٦٣

**وأهرت من الكلاب أخطل      أصفر مصقول الإهاب أشعل  
ختصر الشلو ثقيل الحمل      منفسح الهمامة ناتي المقل**

وبذلك نرى أن المنظومات العلمية شملت كل ألوان المعرفة آنذاك ، وأن أصحابها كانوا يقررون الحقائق ويوجزون المسائل ، واختاروا شكل النظم لتسهيل حفظ متون العلم على الطلاب ، ولا يغير هذه الحقيقة وجود بعض اللمحات الشعرية في المنظومات التاريخية. فلا بد من إخراجها من نطاق الشعر وأن نعدها نشاطا آخر غير النشاط الشعري.

### المصادر والمراجع:

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د/ محمد مصطفى هنارة، المكتب الإسلامي ط١، ١٤٠١ / ١٩٨١ م.
- أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق للصولي، دار المسيرة، ط٢، بيروت ١٩٨٢ م.
- الأغاني للأصبهاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الشعب، القاهرة .
- تاريخ بغداد، أحمد علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.
- تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة أو مرذولة لليروني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ١٩٥٨ م.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ط٤.
- التعريفات: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، ط٤، القاهرة، ١٩٩٨ م.
- تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين / المؤسسة العربية العامة للكتاب القاهرة ١٩٦٤ م.
- حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف، مصر .
- حرز الألماني ووجه التهاني في القراءات السبع للشاطبي، دار الكتاب النفيسي ط١ - بيروت ١٩٨٧ م.
- حسن المحاضرة للسيوطى، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٨٨١ م.
- الحيوان للجاحظ، الجمع العلمي العربي الإسلامي، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت ١٩٩٦ م.
- ديوان رؤبة بن العجاج ضمن مجموع أشعار العرب، رتبه وليم بن الورد البروسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠ / ١٤٠٠.
- ديوان صفي الدين الحلبي، دار صادر، بيروت.
- ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، لجنة التراث العربي، بيروت، ط٢ .
- ديوان ابن المعتز، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقام.
- الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشتيري، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٣٩٨ / ١٩٧٨ م.
- شرح مقصورة ابن دريد للتبرizi، المكتب الإسلامي، ط١ - دمشق ١٩٦١ م.
- الصفوحة الصحفية في شرح الدرة الأنفية - نقى الدين إبراهيم بن الحسن، تحقيق محمد العميري، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤١٩ م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية.
- أبو العناية: "أشعاره وأخباره، شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ م.

- العربية، يوهان فلك، ترجمة رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٠ م.
- العقد الفريد لابن عبد ربه ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣ م.
- العمدة لابن رشيق القيرواني ، تحقيق علي البعاوي ، مكتبة البابي الحلبي.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيحة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، تحقيق نزار رضي .
- غرامي صحيح في أنواع الحديث لأحمد بن الفرج الإشبيلي ، تحقيق عبد الحميد درويش ، دمشق ١٩٩٨ .
- الغرر البهية في شرح منظومة البهجة الوردية ، الإمام ابن الوردي ، قام بضبط النص محمد بن عبد القادر عطا ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١٤١٨ / ١٩٩٧
- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي. مؤسسة الرسالة ، ط ٧ ، بيروت ٢٠٠٣ م.
- قصة الأدب في العالم ، أحمد أمين و زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ ، القاهرة ١٩٤٣ م.
- معجم الأدباء ، ياقوت ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان عن دار المستشرق بيروت.
- وفيات الأعيان : ابن خلkan ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت.
- يتيمة الدهر الشعالي ، ت محمد بن حبيبي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٥ م.



# علم الأدب عند العنترى الم توفى سنة ٥٦٠

## دراسة في أصول الحكمة

د.أ. أحمد علي محمد \*

١. من دوافع دراسة سيرة العنترى وأثاره مقالة أشاعها ابن أبي أصيبيعة في معرض كلامه على أخبار العنترى فذكر: "أنه كان طيباً مشهوراً وعالماً مذكوراً، حسن المعالجة، جيد التدبير، وافر الفضل، فيلسوفاً متميزاً في علم الأدب وله شعر كثير في الحكمة"(١). والمهم في هذا الكلام قوله "فيلسوف متميز في علم الأدب"، وأظن أن مصطلح علم الأدب الذي أورده ابن أبي أصيبيعة هنا كان مستقراً ومعروفاً في زمانه،

وربما كان ابن عباس فيما أورده الحافظ على لسانه أول من استعمله، إذ قال: "كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل"(٢)، في حين زعم كثير من النقاد أن علم الأدب منجزٌ اصطلاحياً مُخذّث، جاء في سياق الثقافة الحالية والتقدّم الجديد، مطوقاً بدلالة تتحدد بمعرفة الأدب وتصنيفه وبيان خصائصه وأعلامه، وغير ذلك، ييد أن مراد ابن أبي أصيبيعة في قوله الآنف يجانب تلك الدلالة، ليحيل على الجانب المعرفي في الأدب نفسه، وقد وضّح مراده في قوله: "وله شعر كثير في الحكمة"، أي إن علم الأدب عنده هو الفلسفة والحكمة.

\* أستاذ في جامعة دمشق، كلية الآداب الرابعة في القنطرة.

٢. كان الباحثون في مجال أداب العربية قد انصرفوا عن الجانب المعرفي في الأدب ، ذلك لأنَّ الاتجاهات الوجданية التي مضى وفقها أدب العرب كانت غالبة ، إلا أنَّ ذلك لا يعني أنَّ العرب اخازت في آدابها إلى خواطر الوجدان ونوازع الذات ؛ ذلك لأنَّ طائفة غير يسيرة من آدابها اتصلت بالفکر والحكمة والعلم ، ولئن كان الأولون من أهل الجاهلية والإسلام قد استودعوا أشعارهم ما تناهى إلى فتوسهم من معارف بسيطة وتأملات فطرية ، فإنَّ الطور العقلي الذي جازه التفكير الأدبي قد أفتح اتجاهات جديدة تتمثل في إعادة صياغة كثير من المعارف العميقـة والأفكار الدقيقة التي جرت فيما يشبه المجال التخصصـي المعروـف في الحياة العلمـية المعاصرـة ، وعلى هذا الأساس تحول الشـعر العربي في الأزمنـة المتأخرـة متـأثـراً من متـون المـرـفة ، قبس أوهام الحياة العلمـية التي تألفت بدءاً بظهور الدولة العباسـية ، فصار لزاماً لهذا السبـب إماتـة اللـثـام عن تلك النـزـعة في نـتـاجـ الشـعـراءـ الذين أظهـروا لـوـنـاـ من التـخصـصـ المـعـرـفـيـ ، فـكـانـ شـعـرـهـمـ منـطـوـيـاـ عـلـىـ تـلـكـ النـزـعةـ ، وـمـنـ هـنـاـ بـداـ لـنـاـ أـنـ العـنـتـريـ مـثالـ جـيدـ لـذـلـكـ التـحـولـ فـيـ مـسـيـرـةـ الشـعـرـ العـرـبـيـ ، وـكـانـ اـبـنـ أـبـيـ أـصـيـعـةـ (تـ ٦٦٨هـ) فـيـ عـبـارـتـهـ السـابـقـةـ قـدـ عـمـقـ فـهـمـ إـزـاءـ ذـلـكـ التـحـولـ الـمـهـمـ الـذـيـ اـسـتـهـدـفـ مـفـهـومـ الشـعـرـ وـوـظـيـفـتـهـ ، لـيـرـنـاـ لـأـوـلـ مـرـةـ شـيـئـاـ مـنـ عـلـمـ الـأـدـبـ ، مـثـلاـ بـالـحـكـمـةـ عـنـ الشـاعـرـ العـنـتـريـ.

٣. العنتري ، كما ذكر ابن أبي أصيوعة ، هو أبو المؤيد محمد بن الجلي بن الصائغ الجزيـيـ ، كان طيبـاـ مشهـورـاـ ، وـعـالـماـ مـذـكـورـاـ ، حـسـنـ المـعـالـجـةـ ، جـيدـ التـدـبـيرـ ، وـافـرـ الفـضـلـ ، فـيـلـوـفـيـاـ ، وـكـانـ فـيـ بـادـئـ أمرـهـ مشـغـلـاـ بـتـدوـينـ سـيـرـةـ عـنـتـرـةـ العـبـسـيـ فـنـسـبـ لـهـذـاـ سـبـبـ إـلـيـهـ ، ثـمـ تـحـولـ إـلـىـ الطـبـ فـبـرـعـ فـيـهـ ، كـمـاـ مـهـرـ فـلـسـفـةـ وـالـأـدـبـ ، وـقـدـ جـرـىـ نـتـاجـهـ فـيـ الـأـدـبـ خـاصـةـ مجـرـىـ الـحـكـمـةـ كـمـاـ سـنـرـىـ ، وـقـدـ عـنـيـ بـتـرـجمـةـ أـخـبـارـ مـؤـلـفـانـ : الـأـوـلـ : اـبـنـ أـبـيـ أـصـيـعـةـ فـيـ كـتـابـهـ "ـعـيـنـ الـأـنـبـاءـ فـيـ طـبـاتـ الـأـطـبـاءـ"ـ ، وـالـآخـرـ صـلـاحـ الدـينـ الصـفـدـيـ (تـ ٧٦٤هـ) فـيـ كـتـابـهـ "ـالـوـافـيـ بـالـوـفـيـاتـ"ـ ، كـمـاـ تـأـثـرـتـ شـذـراتـ مـنـ أـخـبـارـهـ ، وـبـذـ منـ حـكـمـهـ وـقـطـعـ مـنـ أـشـعـارـهـ فـيـ بـعـضـ الـصـادـرـ الـأـدـبـيـةـ.

للعنـتـريـ جـمـلةـ مـنـ الـمـؤـلـفـاتـ ذـكـرـ مـنـهـ اـبـنـ أـبـيـ أـصـيـعـةـ ستـةـ وـهـيـ :

الـنـورـ الـجـنـتـيـ مـنـ روـضـ النـدـماءـ وـتـذـكـارـ الـفـضـلـاءـ الـحـكـمـاءـ.

نـزـهـةـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ ، وـقـدـ رـتـبـهـ بـحـسـبـ فـصـولـ الـسـنـةـ وـضـمـنـهـ أـشـعـارـاـ وـفـوـائدـ حـسـنةـ .

الـجـمـانـةـ فـيـ الـعـلـمـ الـطـبـيـعـيـ وـالـإـلـهـيـ .

كتـابـ الـأـقـرـابـاـذـينـ وـقـدـ ذـكـرـ فـيـ الـأـدـوـيـةـ الـمـرـكـبـةـ .

رسـالـةـ الـشـعـرـ الـيـمـانـيـةـ إـلـىـ الـشـعـرـ الـشـآـمـيـةـ .

رسالة حركة العالم.

ثم ذكر صلاح الدين الصفدي له رسالتين هما :

رسالة في الفرق بين الدهر والزمان والكفر والإيمان.

رسالة العشق الإلهي والطبيعي.

٤. تبدت ظواهر النزعة الحكمية فيما روی عنه من مقالات اهتم فيها بالتعريفات على نحو خاص، ثم أظهر ميلاً علمياً إلى الطب فتكلم على الأدوية والأمراض والعلل، وهو المجال نفسه الذي بدا في الشعر المنسوب إليه، ليكون الشاعر المختص بهذا المجال، فمن آقواله في الحكم : "بني تعلم العلوم، فلو لم تزل من الدنيا إلا الغنى عنمن يستبعدك بحق أو بباطل" (٣)، وقوله: "بني إن الحكم العقلية تربك العالم يقاد بأزمة الجهل إلى الخطأ والصواب" (٤)، وقوله: "الحكمة سراج النفس فمتى عدتها عميت النفس عن الحق، والحكمة غذاء النفس وجمالها" (٥). ومن آقواله في الطب والأدواء قوله: "الآس بارد يابس، دهنه يقوى الشعر وينع تساقه ويطليه ويسوده، وورقه اليابس ينفع صنان الإبط ويطيب رائحة الجسم، وإذا طبخ وغصمض بمائه قوى الأسنان والثلة، وينع من الصداع الحاد، وشمه يقوى القلب المخمور وينزل خفقانه، وينع جبه من الإسهال ويقوى المعدة" (٦).

٥. كان العتري شاعراً محسناً، وقد قصر معظم شعره على الحكمه ووصف النبات، من أجل ذلك تبدت فيه النزعة العلمية، وهو ما يؤكّد مقوله ابن أبي أصيّعه إزاء تميّزه في علم الأدب وكلفه بالحكمة والفلسفة والطب، وقد متنح من هذه العلوم معانٍه واستبنت موضوعاته وأغراضه، ولعل أشهر شعره في هذا الباب وصيّته الطيبة التي قال فيها:

<p>فالطُّبْ مَجْمُوعٌ بِنَصْ كَلَامِي فِي حِفْظٍ قُوَّتَهُ مَعَ الْأَيَامِ وَالضُّدُّ فِيهِ شَفَاءٌ كُلُّ سَقَامِ مَاءُ الْحَيَاةِ يُرَاقِ فِي الْأَرْحَامِ وَاحْذَرْ طَعَامَكَ قَبْلَ هَضْمِ طَعَامِ كَالنَّارِ يُضْبِحُ وَهِيَ ذَاتُ ضَرَارِمِ فَاحْتَلْ لِرْجَعَةٍ حَلْ عَقْدِ نِظَامِ</p>	<p>احْفَظْ بُنِيَّ وَصِبَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا قَدِيمٌ عَلَى طِبِّ الْمَرِيضِ عِنَانِيَةٌ بِالشَّبَّهِ تَحْفَظْ صِحَّةً مَوْجُودَةٌ أَقْلِلْ بِنَكَاحِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ وَاجْعَلْ طَعَامَكَ كُلُّ بَوْمِ مَرَةٌ لَا تَحْقِرْ الْمَرَضَ الْبَسِيرَ فَإِنَّهُ وَإِذَا تَغَيَّرَ مِنْكَ حَالٌ خَارِجٌ</p>
---	--

أو تأكلن بعقب شرب مُدام  
بهمـا وليس بنوع كُلـ قيام  
بالاحتلام وكثرة الأحلام  
فدواء مـا في الجـلد بالحـمام  
فتقد طبعك لـلأدـى بـزـمام  
زادـت فـتنـصـ فـضـلـها بـتـامـ  
حـلـ وـعـقـدـ طـبـيـعـةـ الـجـسـامـ  
ولـعـقـلـ تـدـبـيرـ المـرـاجـ فـضـيـلـةـ  
يـشـفـيـ المـرـيضـ بـهـاـ وـبـالـأـوـهـامـ

قال ابن أبي أصيـعـةـ: "تنسب هذه القصيدة إلى الشـيخـ الرـئـيسـ ابنـ سـيـناـ، وإلى المـختارـ ابنـ الحـسـنـ بنـ بطـلـانـ (تـ ٤٥٠هـ)، والـصـحـيـحـ أنـهـاـ لـمـحـمـدـ بـنـ الجـلـيـ لماـ قـدـمـهـ منـ إـنـشـادـ سـدـيدـ الدـينـ حـمـودـ بـنـ عـمـرـ، ليـ ماـ أـنـشـدـهـ مـؤـيدـ الدـينـ بـنـ العـنـتـريـ لـوـالـدـهـ مـاـ سـمـعـهـ مـنـهـ، وـذـكـرـهـ أـيـضاـ فيـ كـتـابـهـ المـسـمـيـ بـالـنـورـ الـجـبـتـيـ وـقـالـ إنـهـ لـهـ" (٧).

ومـاـ يـعـضـدـ قـولـ ابنـ أبيـ أـصـيـعـهـ فـيـ نـسـبـهـ القـصـيـدـةـ لـلـعـنـتـريـ، عـلـامـاتـ الـأـسـلـوبـ الـتـيـ تـكـرـرـ باـطـرـادـ فـيـ  
مـقـطـعـاتـ الـعـنـتـريـ وـقـصـائـدـ عـامـةـ، مـثـلـ تـقـويـتـهـ جـانـبـ الـخـطـابـ بـعـيـارـةـ "بـنـيـ تـعـلـمـ"ـ، يـضـافـ إـلـىـ ذـلـكـ مـضـامـينـ  
ذـلـكـ الـخـطـابـ الـتـيـ لـاـ تـخـرـجـ عـنـ حـدـودـ الـدـعـوـةـ إـلـىـ اـتـابـ الـحـكـمـةـ وـالـعـلـمـ كـتـوـلـهـ" (٨)ـ:

بـنـيـ تـعـلـمـ حـكـمـةـ النـفـسـ إـنـهـاـ  
طـرـيقـ إـلـىـ رـشـدـ الـفـتـىـ وـدـلـيلـ  
قـلـيلـ وـعـمـاـ رـقـدـةـ سـيـزـوـلـ  
فـمـاـ لـلـأـدـىـ بـوـمـاـ إـلـيـهـ دـلـيلـ  
وـلـاـ تـطـلـبـ الدـنـيـاـ فـيـانـ كـثـيرـهـاـ  
وـمـنـ تـرـكـ الدـنـيـاـ وـأـصـبـ رـاهـبـاـ  
أـوـ "ـأـسـمـعـ يـاـ بـنـيـ"ـ كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ (٩)ـ:

يـاـ بـنـيـ النـصـحـ مـنـيـ وـالـرـشـادـاـ  
واـحـرـزـ الـعـلـمـ وـجـبـ فـيـهـ الـبـلـادـاـ  
واـشـرـبـ الـسـرـاحـ وـلـاـ تـبـغـ الـفـسـادـاـ  
جـاءـكـ الـمـوتـ فـقـدـ نـلـتـ الـمـرـادـاـ  
أـقـسـمـ الـعـمـرـ نـلـاـئـاـ وـاسـتـمعـ  
فـاطـلـبـ الـحـكـمـةـ فـيـ أـوـلـيـهـ  
وـاـكـسـبـ الـأـمـوـالـ فـيـ الثـانـيـ وـكـلـ  
وـتـرـقـبـ آـخـرـ الـعـمـرـ فـيـانـ

أو "بنيَّ كنْ" كقوله (١٠) :

بُنيَّ كُنْ حافظاً للعلم مطْرحاً  
فقد يسود الفتى من غير سابقة  
غَيْرُ الْعِلْمَ بِتَذَكَارِ تَزْدَادَا  
إِنِّي أَرِي عَدْمَ الْإِنْسَانِ أَصْلَحَ مِنْ  
قَضَى الْحَيَاةَ فَلَمَّا ماتَ شَيْعَهُ  
جَهَلَ وَفَقَرَ فَقَدْ قَضَاهُمَا نَصِباً

ـ أنت تلاحظ أنَّ جهة الخطاب في الشواهد السابقة بما فيها وصيته في الطب ، تستهدف الوعظ والتصح والإرشاد ، من أجل ذلك شخصت العبارات التي تجعل من المخاطب ظاهراً في نسيج القول ، قبلة المتكلم ، وذلك ببروز صيغة "احفظ بُنيَّ" و "استمع بُنيَّ" و "بنيَّ كنْ" ، مما يدل على أنَّ هذه الصيغة ملزمة لخطاب الإرشادي أو الوعظي ، لتسريح تلك العبارة ، بعامل التكرار علامه من علامات أسلوبه الخطابي ، يضاف إلى ذلك المضامين المشابهة ، إذ هو ينصح بطلب العلم والحكمة ويدعو إلى نوع من التزهد المتوازن ، بمعنى أنه لم يدعُ كسائر الواقعين إلى الانصراف كلية عن مباح الدنيا ، بل دعا إلى كسب المال وشرب الراح مع الامتناع عن المفاسد ، فهذا عنده لا يضرُّ طالما أنَّ المرءَ آخذَ بنصيب موفور من الحكمة والعلم .

استحالات الحكمة عند العنتري موضوعاً لكثير من أشعاره ، وكان مهوى حكمته الدعوة إلى العلم والمال معاً ، وهذه الدعوة تفرق وعظه عن وعظ الزاهدين ، ذلك لأنَّهم دعوا إلى مكارم الخلق والإعراض عن زيتها ولasisima المال ، كذلك لم يرفعوا من شأن العلوم الدنيوية ، كما صنع العنتري ، إذ يقول (١١) :

كُنْ غَنِيًّا إِذَا اسْتَطَعْتَ وَلَا  
كُنْ حَكِيمًا فَمَا عَدَا ذِيْنَ غَفَلْ  
إِنَّمَا سُؤَدَ الدُّفْتَى الْمَالُ وَالْعِلْمُ  
وَمَا سَادَ قَطُّ فَقَرَ وَجَهَلُ

إنَّ هذا الشعر وأمثاله يدفع بالعنترى إلى مضمار الفلسفه العقليين ، الذين تشويبوا بعضاً من آرائهم من حرقة الحياة والتاريخ ، كما تدفع به شواهد أخرى إلى الاغياز إلى الشريعة ، مشيراً إلى مكمن الحكمة فيها ، يقول (١٢) :

إِنَّ الشَّرِيعَةَ الْفَتَى بِصَلَاجِهَا  
الشَّرِيعَ أَصْلَحَ كُلَّ غَاءِ مَارِدٍ  
لَوْلَا الشَّرِيعَةَ مَا تَجَمَّعَ وَاسْتَوَى  
لِلْعَالَمِ الْمُتَضَادِ وَالْمُتَمَازِجِ  
وَأَمَاتَ شَرَّةَ كُلِّ جَانِبِ مَارِجٍ  
شَمْلُ الْوَرَى وَمُنْمَنُوا بِشِرِّ هَائِجٍ

للعالم المحسوس غير مممازج  
فسدَتْ أمورُكَ كُلُّها من خارج  
الستانى لـذوي السُّرُى  
من أجل ذلك كانت تصورات العنتري متصلة بالعالم المعقول كاتصالها بعالم ما وراء العقل، وهو ما عَبر عنه بقوله " النوع المركب " ، يقول (١٣) :

ووجودي به من كُلُّ نوع مُرَكَّبٍ  
فذهني هِشَّاكَةٌ ونفسي زُجاَجَةٌ  
ونوري من الستُّور الإلهي دائمًا  
وزيتي من الزيتونة العذبِ دِهْنُها  
كأنني في وصفِي الشفافِ أشرفِ كوكبٍ

انظر كيف يكشف عن وجوده من خلال إدراكه عناصر وعيه التي بلغها بتصوره المعقول تارة ، وبثقافته الدينية تارة أخرى ، لهذا كانت نفسه مزيجًا من وعي تنوّع مشاربه ، لتلوّح له حقيقة وجوده من خلال ذهن متقد كمشكاة ، كما تراءت له النفس كزجاجة تضيء بمصباح العقل ، وهذا إنما يكشف عن شعر مناصر في بوتقة الفكر العميق والتأمل الواسع ، متصلًا بالأساس بميل إلى العلم والحكمة ، وهذا من أعظم الطوابع التي وسمت شعره عامّة لتركته سابحاً في فضاء تأملي لا ينطوى ، يقول (١٤) :

تدبرت السَّبَعَ الطَّبَاقَ وفارقتْ على شرفِ منها سجن العناصر

تبدي من خلال هذا الشاهد روح صوفية ، ولا سيما في نزوعه إلى المطلق ، إلا أنه يختلف عن أهل التصوف في ذلك التزوع من جهة اعتماده على العقل ، في حين كان التصوف يعتمدون في نزوعهم إلى المطلق على الحدس . وهو مختلف أيضًا عن أهل التزهد عامّة ، إذ كثيراً ما يصدر في أقواله الزاهدة وأشعاره الوعظية عن الإيمان بمقدرات العقل في دحض الرذيلة ، يقول (١٥) :

نفسي تطالبني بما في طبعها  
والنفس تعلم أن ذلك واجبٌ  
والطبع يقصّر عن مراد كلّيهما  
والنفس من خمر الحياة سُكّرها

العقل عند العنتري سند يفضي إلى معرفة يقينية، لأن تلك المعرفة كما يزعم يبلغها عقله بالقياس، يقول (١٦) :

أَبْلَغُ الْعَالَمِينَ عَنِّي بِأَنِّي كُلُّ عَلْمٍ يَتَصَوَّرُ وَقَيْاسٌ  
قَدْ كَشَفْتُ الْأَشْيَاءَ بِالْعُقْلِ حَتَّى ظَهَرَتْ لِي وَلَيْسَ فِيهَا التَّبَاسُ  
كَمَا أَنَّهُ شَدِيدُ الْأَخْيَازِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، لِهَذَا كَانَتُ الدُّعَوَةُ إِلَى الْعِلْمِ جَوْهِرُ حُكْمِهِ وَمُحْوِرُ وَعْدِهِ،  
يقول (١٧) :

جَمِيعًا لَكُنْتَ صَدِيقَ كُلِّ الْعَالَمِ	لَوْكُنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ مَا عَلِمَ الْوَرَى
يَهُوَرِي خِلَافَ هَوَالَّ لَيْسَ بِعَالَمٍ	لَكِنْ جَهَلْتَ فَصَرَتْ تَخْسَبُ كُلَّ مِنْ
بِالطَّبِيعِ حَتَّى صَارَ ضَرِبَةً لَازِمَّ	وَضُعَّ إِلَهُ الْخُلُوفِ فِي كُلِّ الْوَرَى

هذا مثال متقدم في التفكير النقدي، وهو بتزنته العقلية يقر بجهور اختلاف في الرأي وفي العلم والمعرفة عامة، إذ المرء ليس بوسعي الإحاطة بأطراف العلوم، ولو حدث ذلك لجاز الفضل كلّه، غير أن ذلك ليس بالمستطاع، فاحتاج العلم من هذه الجهة إلى الخلاف في الرأي، لأن الاختلاف يفضي إلى تمام العلم وتكامل المعرفة، وهو من ثم طبع استودعه الإله في النفوس فكان ضربة لازم .

العلم والعقل عند العنتري يفضيان إلى معرفة الحق، ومن أجل ذلك كان يرى في الجهل ما يحول بين المرء والفضلية، يقول (١٨) :

الْحَقُّ يُنْكِرُهُ الْجَهَلُ وَلَأَنَّهُ عَدُمُ التَّصْوِيرِ فِيهِ وَالتَّصْدِيقَا	فَهُوَ الْعَدُوُ لِكُلِّ مَا هُوَ جَاهِلٌ فَإِذَا تَصْوِيرَهُ يَعُودُ صَدِيقًا
---	--

من المثير هنا قوله إن التصور أو التفكير **الحُرّ** يحجب عن المرء المعرفة، فينزع إلى تكذيب ما يسمع، فينكر الحق من حيث لا يشعر، وما ذاك إلا أنه عاجز عن التصور أو الإحاطة بالمعرف العقلية، فمن هذه الجهة يسيء عدو الحق، وإذا ما استطاع تجاوز عجزه فبلغ الحقائق بوساطة التصور والعقل أصبح صديقاً للحق وللحقيقة .

ولا عجب بعد ذلك أن تقلب أشعار العنتري تصورات متابعة وأفكاراً لا ينقطع رنينها، فإذا به ينسج شعراً يشع بالآفاق العميقة والتأملات السحيقة التي تتناول في معظمها تفسير وجوده، وقلما نجد شاعراً في

تاریخ العربیة قد مضی مع تأملاه العمیقة على النحو الذي نجده في شعره، والمهم أن نشير أنَّ فلسفة العنتري لا تمضي إلى الشاُؤم، أو تؤدي إلى العدم، لأنَّه اتجه في تفكيره اتجاهًا عقليًّا عمليًّا يقول (١٩) :

لِي هَمَةٌ مَأْسُورَةٌ لِي صَادَفَ  
صَاقَ الْفَضَاءُ بِهَا فَلَا يُسْطِيعُهَا  
نَاطَ الْفَضَاءُ بِهَا الْفَضَاءُ وَالثَّيْهَا  
أَطْرَوْيَ الْلَّيَالِي بِالنَّى وَصَرْوَهَا  
إِنَّى عَلَى نُوبِ الزَّمَانِ لِصَابَرْ  
إِمَّا الَّذِي يَقْنِى فَقَدْ أَحْرَزَتْهُ  
وَالْفَانِيَاتُ فَمَا أَفْكَرْ فِيهَا

يقر في الشاهد الأنف أنَّ همته مأسورة، ولكنها صادفت سعدًا مكنتها من تجاوز العوائق، وقد علت وارتقت مصادفة فجّرت الأفلاك أن تخوبيها، ثم اختزنت نفسه المقاصد والغايات لأنَّها مشفوعة بالحجج والبراهين، فعلا شأنه لهذا السبب علوًّا كبيرًا، وكان بسط راحيَه للصبر مستعينًا به على صروف الدهر، ولا يعنيه بعد ذلك أن يفني، لأنَّه أحرز في زمانه الباقيات من المأثر ولم يفكِّر بالفانيات من الرذائل .

ينكشف من خلال هذا الشعر موقف وجودي، يحاول من خلاله تفسير العالم، لا بل أراد أن يعبر عن وجوده الخاص في عالم حافل بالتشابه، والعنتري كان مولعاً بالاختلاف، وشاهدُه الأنف تعير واضح عن اختلافه، ومن الطبيعي أن يكون موقفه الذي تكلم عليه موقفاً مختلفاً، لا يكاد يشركه فيه مفكر من قبل ولا من بعد، فالمعري كما هو معلوم بنى موقفه من العالم على الشاُؤم والعدم، وكذا صنع الوجوديون في الزمن الحديث حين تكلموا على العبث والاغتراب والشاُؤم، في حين كانت رؤية العنتري تشفُّ عن تقافُل وذلك باعترافه بالتناقض الحاصل في عالمه، فما كان منه إلا أن تعايش مع ذلك التناقض، مدركاً من خلاله الحد الإيجابي في الحياة، وهو ما عبر عنه بوجود المصادفة، وعليه وجد نفسه أسيراً ومطوقاً في سجن الحياة، ولكن همته وجدت وسيلة للتحرر من قيودها المادية لتعلو وترتفع حتى بلغت الأفلاك، وما ذاك إلا التصور والعقل المشغوف بالتبصر عن الممكن في عالم حافل بالقيود وبالتناقضات، وبذلك ميز وجوده بالعقل ليفرضي به إلى لون من الطمأنينة، وذلك بالإقرار بهيمنة الدهر، ومع ذلك وجد من خلال عقله فسحة يحرز من خلالها الباقيات ويتجنب الفانيات، وهذا كما قلت وجود فاعل ومحزن .

تلك الروح الفلسفية التي يُظهرها العنتري في شعره الحكمي لا تحفل بشيء، بمثل احتفالها بوحدة المعرفة الإنسانية، ولا سيما تلك المعارف التي تحاول تفسير الوجود، من أجل ذلك خاض مع الخائضين في أصل العالم، فكانت فكرة النور والظلمة من الأفكار القريبة إلى تصوّره، مع كثرة من خاض فيها، يقول (٢٠) :

وَكَانَتْنَا مِنْ زَجَ لَمْ يَزِلْ مِنْ عَالَمِ النَّيْرِ وَالظَّلَمِ  
فَبَعْضُنَا يَنْهَا دَارَهُ وَبَعْضُنَا يَرْقَى إِلَى الْأَنْجَمِ

فقوله: "متزوج من عالم النير والمظلوم" إحالة على رأي الشنوية التي زعمت أن الخير والشر والصلاح والفساد إنما يتحصل كل ذلك من امتزاج النور بالظلمة ، لا بل إن حدوث العالم إنما هو حاصل من ذلك الامتزاج (٢١) ، و قريب من هذا ما ادعاه ماني ، إذ زعم أن صانع العلم اثنان فاعل خير وهو النور ، وفاعل شر وهو الظلمة ، وهما قد يبيان لم يزالا حسسين وسميعين بضررين ، وهم مختلفان في النفس والصورة متضادان في الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل ونفسه خيرة ، وجواهر الظلمة على ضد ذلك ، والنور مرتفع من ناحية الشمال ، والظلمة منحطة في ناحية الجنوب ، وللنور أبدان كما أن للظلمة أبدان ، فأبدان النور الملائكة وأبدان الظلمة الشياطين (٢٢) .

قامت دعوة العنتري الحكمية على الاعتدال ، وهي دعوة عقلية من دون شك ، وهذا إنما يجعله من أصحاب الرأي في هذا الباب ؛ ذلك لأن الدعوة إلى الصلاح التي نهض بها شعره كله كانت تستهدف تهذيب النفس ، وذلك بالاعتماد على العقل والعلم ، فصلاح العقل والتشريع بالعلم يصلح السلوك ، وتستوي الحياة ، إذ الخلل الناجم عن السلوك الإنساني يخضع عنده جانب علاجي علمي إن صح هذا التعبير ، يقول (٢٣) :

عَدَلْ مِزاجَكَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا تَكُنْ  
وَاحْفَظْ عَلَيْكَ حَرَارَةً بِرْطُوبَهُ  
وَاعْلَمْ بِأَنْكَ كَالسَّرَّاجِ

وعليه فإن العلاقات الاجتماعية المزيفة المتمكنة في الطياع يمكن أن تعالج بالهجر والصدود ، كما يعالج العضو الفاسد أحياناً بالبتر ، يقول (٢٤) :

لَا تَدْنِنْ فَتَّى يَوْدُكَ ظَاهِرًا  
وَاهْجَرْ صَدِيقَكَ إِنْ تَكُرْ وَدَهُ

كثُرَ كلام العنتري على الطبع في أشعاره بوصفه دافعاً إلى الشهوات، ودافعاً إلى التحلل ، يقابلة العقل والعلم، وما يدفعان إلى الحكمة والفضيلة، يقول (٢٥) :

ثقلة الجسم يستمد غذاه طلباً منه للبقاء والدوام  
مولـا رأـيـ التـحلـل طـبـعاً أـخـلـفـ المـثـلـ بالـغـذاـ وـالـطـعـامـ

ذهب الاتجاه العقلي أو الحكمة بباب واسع من أقوال العنتري الشعرية، وهي حكمة تصدر كما رأينا عن ميل علمي واضح، وهذا ما دفع ابن أبي أصيبيع للقول بأنه من البارزين في علم الأدب، أي الأدب الذي يستند في معاناته إلى العلم والفلسفة والحكمة .

٦. تتبدي ظواهر النزعة العقلية في شعر العنتري عامـةـ، مما وسـمـ معـانـيـهـ بالـسـمـةـ الـعـلـمـيـةـ أوـ الـحـكـمـيـةـ، يقول مادحاـ(٢٦ـ)ـ :

بـاـ حـجـةـ الإـسـلـامـ سـرـبـالـهـ مـعـصـمـاـ  
فـلـلـكـ وـاـكـ عـنـرـ فيـ تـسـنـقـلـهـاـ  
الـدـرـ لـوـلـاـ نـحـورـ الغـيـدـ مـاـ خـرـجـتـ  
فـاقـبـلـ إـلـىـ مـلـكـ مـاـ نـالـ غـايـتـهـ  
هـوـ الـمـيـولـ وـأـنـتـ الـجـسـمـ تـقـبـلـ

انظر إليه أولاً كيف يعمد إلى إيراد الحجج لثبت معانيه، وكيف يتوكى إقناع السامع بالدليل ل تستقر الموعظة في النفس ، فهو ينهى عن الأسف إذا ما حدث الفراق ؛ ذلك لأن التفرق حادث بالقوة وبال فعل ، إذ الكواكب تتنقل ، والدر يخرج من الصدف ، وهكذا تبدو الموجودات جميعاً تدور في عالم غير مستقر على حال ، فكيف يرجو المرء إذن دوام الوصال وسيرورة الاجتماع ؟

ثم انظر إليه كيف يتکئ على ألفاظ علماء الطبيعة فيذكر البيولي ، ومعناها المادة التي تكونت منها جميع الأجسامـ(٢٧ـ)ـ.

ويقول في دمشق ولذيد شرابها (٢٨ـ)ـ :

يـدـعـىـ مـنـ السـعـادـاءـ عـشـ أـبـداـ  
لـاـ تـطـلـبـ بـغـيرـهـ مـاـ بـدـلاـ  
قـضـ الزـمـانـ وـلـاـ تـبـعـ طـعـاـ

<p>تنفي المموم وتسلبُ الْكَمْدا قذفت على حافاتها الزِيدَا نَالَ الْمُنْتَى فِي مَنْزِلِ قَعْدَا<sup>١</sup></p>	<p>واشرب بها صفراً صافية راحَا إِذَا بَرَّزَتْ يَانِسِيةٌ فَالْعَاقِلُ الْفَطَنُ الْبَيْبُ إِذَا<sup>٢</sup></p>
<p>مقطوية في الكأس من بردي تسعي بها الليل قد يردا يُلْقَى العِلْمُ وَشَادِيَا غَرِيدَا<sup>٣</sup></p>	<p>إِنِي لِأَهْمَوْي شَرْبَ صَافِيَةٍ مِنْ كَفِّ مَنْ يَهْوِي الْفَوَادُ بِهَا مَا نَلَقَي إِلَّا حَلِيفٌ حَجَى<sup>٤</sup></p>

أظنَّ أَنَّ المعنى في البيت الأخير مما أضافه العنترى إلى وصف الخمر، إذ كان الشُّعراء من قبله يفتتون في وصف مجالسها التي تعُج بالسقاة من النلمان والقيان والمغنيات الحسان؛ أما هو فقد التقى في ذلك المجلس العلاء وذوي العلوم والمغنيين.

ولما اجتمعت عليه نار الفكر ونار الخمر، آثر ترك الخمر خوفاً من العقاب، اخيازاً للعقل والحكمة؛ لأنَّ الخمر تذهب العقل وتتأي بالملء عن الحكمة، يقول (٢٩) :

<p>نَارُ الْحُمَيَا وَنَارُ الْفِكْرِ مَذْهَنَكَا وَالْكَلْسُ بِالظَّبِيعِ تُصْدِي عَقْلَ شَارِبِهَا<sup>٥</sup></p>	<p>جِسْمِي تَرَكَ الْحُمَيَا خِشْيَةَ النَّارِ لَقَدْ وَجَدَ أَنَّ الْخَمْرَ تَنَافَرُ طَبَعَهُ وَأَخْلَاقَهُ، فَتَرَكَهَا غَيْرَ أَسْفٍ؛ لَأَنَّهُ اسْتَعْاضَ عَنْهَا بِوَهْجِ الْحَكْمَةِ، يَقُولُ (٣٠) :</p>
--	---

<p>منافرةً مُنْتَيِ طباعي وأخلاقِي تعللها فازدادتْ شُوقاً إلى الساقِي<sup>٦</sup></p>	<p>صَدَدَتْ عَنِ الصَّهَابَاءِ لَمَّا وَجَدْتُهَا وَعَوَضَتْ عَنْهَا النَّفْسُ كَاسَاتِ حَكْمَةٍ</p>
---	--

## ٧. خلاصة القول:

كانت أشعار العنترى تمضي في سبيلين اثنين: أحدها يشدّها إلى الحكمة والعلم، وهو أمر لا يجد ما يضاهيه فيما نجم عن شعراء العربية، ذلك لأنَّ مجرى الحكمة محصور عنده بالنزعة العلمية، وكان لمعرفة الطب أثر بالغ في إدخال ألفاظ العلوم إلى شعره، فهو من هذه الناحية من أكثر الشُّعراء احتفالاً بالمعنى

العلمي، ومن أشدّهم نزوعاً إلى المعاني العقلية الصحيحة، لذا كان شعره من هذه الناحية شديد الاختلاف وشديد التحديد مما يشي باختصاصه في هذا الباب الذي سماه ابن أبي أصيبيعة بعلم الأدب.

والأخر: مضى فيه بعطف الموضوعات الشعرية إلى حيز الحكمـة والعلم أيضاً، وقد كانت ظواهر الحكمـة بادية في حمراته على نحو خاص، وكان أدخل بعضـاً من المعاني الطريفة في هذا الموضوع مثل أن يجعل العلماء والقلاـء من جلسائه وهو يشرب الخمر، ثم بدا له أن الخمر قد صرفـته عن العقل والحكمـة فسارع إلى نبذها والتخلـي عنها؛ لأنـها مضادة لطبعـه وخلقـه.

### العواشي:

١. ابن أبي أصيبيعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) تحقيق أوغست مولر المطبعة الوهبية بمصر ١٨٨٢ م ص: ٤٦٦/٢.
٢. الجاحظ (البيان والتبيين) ج ٢، ص ١٤٧.
٣. ابن أبي أصيبيعة (عيون الأنباء...) ص: ٤٦٨/٢.
٤. المصدر السابق.
٥. المصدر السابق.
٦. البهائني (مطالع البدور في منازل السرور) ص: ٣٩/٢.
٧. ابن أبي أصيبيعة (عيون الأنباء) ص: ٤٧٠/٢.

المختار بن بطلان طبيب نصراوي سكن بغداد ثم سافر إلى مصر ترجم له صلاح الدين الصفدي في الواقي بالوفيات، توفي نحو سنة ٤٥٠هـ.

- سدید الدين هو محمود بن عمر بن إبراهيم بن شجاع الحكيم، المعروف بابن رقيقة الطبيب الشيباني، كان من رؤساء الأطباء، شاعرًا ماهرًا نظم عدة أراجيز في الطب في غاية السهولة، لازم الفخر المارديني وقد ترجم له صلاح الدين الصفدي في الواقي بالوفيات.
٨. المصدر السابق.
  ٩. المصدر السابق.
  ١٠. المصدر السابق.
  ١١. المصدر السابق.
  ١٢. المصدر السابق.
  ١٣. المصدر السابق.
  ١٤. المصدر السابق.

١٥. المصدر السابق.
١٦. المصدر السابق.
١٧. المصدر السابق.
١٨. المصدر السابق.
١٩. المصدر السابق.
٢٠. المصدر السابق.
٢١. أبو الفداء (المختصر في أخبار البشر) ص: ٤/٣٨٨
٢٢. ابن نباته (شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) ص: ٢٧٠.
٢٣. ابن أبي أصيبيعة (عيون الأنباء) ص: ٢/٤٦٩
٢٤. المصدر السابق.
٢٥. المصدر السابق.
٢٦. المصدر السابق.
٢٧. المصدر السابق.
٢٨. المصدر السابق.
٢٩. المصدر السابق.
٣٠. المصدر السابق.



# شبه الجملة في النحو العربي مفهومها وأهميتها في سياق

□ د. سعد محمد الكردي \*

## أولاً: مفهوم شبه الجملة وتطور مصطلحاتها:

يقصد بشبه الجملة الظرف بنوعيه الزماني والمكاني، وحرف الجر الأصلي مع مجروره، ولم يصرح النحاة القدامى أمثال سيبويه (ت ١٨٠ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) بـمُصطلح (شبه الجملة)، وإنما وزناوا بين معناه وبين معنى غيره من أقسام الكلام رابطين ذلك بالموضع الذي يشغل الظرف، فسيبويه لم يشر إلى

أن الجار والمجرور أو الظرف يشبهان الجملة وإنما أشار إلى عمله في الحال، فوازن بين عمله في الحال، وبين عمل الفعل فيها، فقال: "اعلم أنه لا يقال، قائماً فيها رجل، فإن قال قائل: أجعله بمنزلة راكباً مَرْزِيداً... قيل له: فإنه مثله في القياس، لأنَّ (فيها) بمنزلة (من)، ولكنهم كرهوا ذلك فيما لم يكن من الفعل، لأنَّ (فيها) وأخواتها لا يتصرفن تصرف الفعل..."<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> أستاذ النحو والصرف المساعد في جامعة البصر.

<sup>(٢)</sup> الكتاب، لسيبويه: ١٤٤/٢ وما بعدها . وينظر : شبه الجملة في العربية والاتساع فيه ، محمد عامر الدبورى : ص ١٣ رسالة ماجستير قدمها إلى جامعة دمشق عام ٢٠٠٧ م

وتابع المبرد سيبويه فيما ذهب إليه في تشبيه الظرف الخبر بالجملة، وفي عمله في الحال بعده<sup>(١)</sup>. ولم يكدر يخرج ابن السراج (ت ٣٦١هـ) عما فعله سيبويه والمبرد في وصف الظرف عند وقوعه مستقرًا أو لغواً فاستدلّ بما استدلا به من عمل الظرف التام بالحال، فقال في قوله: (زِيدٌ في الدار قائمًا)؛ فـ(زيد) مبتدأ، وفي (الدار) خبره، وـ(قائم) حال والعامل فيه (في الدار) فهو صلة (في الدار)<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فقد صرّح ابن السراج بمصطلح شبه الجملة، لكنه لم يقصد به الظرف والجار وال مجرور فقط، بل قصد ضربهما مختلفتين من الكلم، وذلك في (باب ما يُحکى من الكلم إذا سمِّيَ به وما لا يجوز أن يُحکى)، فقسم ما يجوز النطق به ثلاثة أقسام، وتدرج في تقسيمه، فذكر الجملة أولاً، وشبه الجملة ثانياً، وجعله جزءاً من الجملة، ثم انتهى في القسم الثالث إلى الأسماء التي تكون مثناة عند النطق بها... وذلك إذا سميت إنساناً (كزيد) وـ(إن زيداً)، وـ(حيثما) ... لأنَّ حيثما اسم وحرف...<sup>(٣)</sup>.

وأما أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) فقد استخدم في بعض كتبه مصطلح "شبه الجملة" بالمعنى نفسه الذي عُرِفَ عند النحاة المتأخرین بعد استقرار النحو العربي ومصطلحاته قاصداً فيه الظرف بتنوعه الزمانی والمکانی والجار والمجرور<sup>(٤)</sup>.

وتسمية شبه الجملة تعني حاجته إلى ما يسدّ نقصاً فيه؛ لأنَّ عباره "شبه الجملة" تعني ما يقرب الشيء من التمام، ويُبعد عنه النقص.

وعلى الرغم من ذلك فالمتأمل للأقوال النحوية يجدُ أنهم أطلقوا على شبه الجملة أكثر من تسمية، فنحاة الكوفة من مرحلة مبكرة أطلقوا مصطلح "الصفة" على الظرف بتنوعه وعلى الجار والمجرور؛ لأنَّ حروف الجر تقع صفات لما قبلها من النكيرات، وهي متقاربة في إيصال الأفعال إلى ما بعدها<sup>(٥)</sup>.

وأما الرمخشري (ت ٥٣٨هـ) فقد سمى الجملة التي تقع فيها شبه الجملة خبراً بالجملة الظرفية<sup>(٦)</sup>.

<sup>(١)</sup> المقضب، للمبرد: ٤/٤٠٧. وينظر شبه الجملة والاتساع فيه: ص ١٤

<sup>(٢)</sup> الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج: ١٢٦١. وينظر شبه الجملة في العربية والاتساع فيه ص ١٤.

<sup>(٣)</sup> الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج: ٢٤٠٤. وما بعدها.

<sup>(٤)</sup> المسائل العسكرية، لأبي علي الفارسي: ٤٢، والمسائل البصرية لأبي علي الفارسي: ٢١٦.

<sup>(٥)</sup> شرح المفصل، لابن عييش: ٨/٧.

<sup>(٦)</sup> شرح المفصل، لابن عييش: ١/٨٨، والمدخل إلى دراسة النحو العربي، للدكتور علي أبو المكارم: ٢/٤٦١.

وهناك مجموعة من النحواء أطلقوا مصطلح "الظرف" على الظرف والجار والمجرور<sup>(١)</sup>. كما أطلق بعضهم على شبه الجملة مصطلح "شبه المتنق"؛ لأنّه يتعلّق بمحذوف متنق تقديره كائن أو حاصل، أو موجود؛ لأنّ الضمير قد انتقل بعد حذف المتنق وجوباً لأنّه كون عام، إلى الجار والمجرور والظرف<sup>(٢)</sup>.

وسمّي الظرف والجار والمجرور "شبه جملة" لما بينه وبين الجملة من تشابه في التركيب والدلالة والعمل، فشبه الجملة تتألّف من كلمتين أو أكثر لفظاً أو تقديرأ، وإن تعلّق بكون محذوف دلّ على ضمير مستتر أيضاً، وهو ضمّيك مثل الجملة؛ ولذلك فشبه الجملة يغنى أحياناً عن ذكر الجملة، ويقوم مقامها<sup>(٣)</sup>. وكثيراً ما يؤودي "شبه الجملة" مهمة الفعل أو ما يُشبه الفعل لما بينهما من التقارب الوثيق والسمات المشتركة الجماعية بينها مما يسُوّغ إطلاق مصطلح شبه الجملة عليهما<sup>(٤)</sup> وهي تسمية منبقة عن طبيعة اللغة، وما يؤودي كلّ منها في سياق الجملة من مهام ووظائف، فشبه الجملة يرتبط في الدلالة المعنوية بالفعل أو شبه الفعل، فقد يدلّ على زمان حصوله، أو مكان حصوله، أو علة حصوله، أو آلة حصوله، ويدلّ على ما حذف من أفعال أو أشياءها، وينوب عنها في المعنى<sup>(٥)</sup>. ففي قوله تعالى: (ولَمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) [سورة الأنبياء: ٢١/١٩]، فشبه الجملة الأولى (في السموات) حل محلّ صلة الموصول، وأغنى عن ذكر الفعل، إذ التقدير: ولو مَنْ استقرَ في السموات، وكذلك الأمر في شبه الجملة الثانية (عنه) حل محلّ صلة الموصول وأغنى عن ذكر الفعل، إذ التقدير: ومنْ استقرَ عنه. ومن حيث التشابه بينهما في العمل إذا جاء شبه الجملة معتمدًا على نفي نحو: ما في الدار أحد، أو استفهام، نحو: أفي الله شئك ... فقد رفع شبه الجملة الاسمية على أنه فاعل، كما ترفع الجملة الفاعل<sup>(٦)</sup>. فأوجه الشبه بينهما في التركيب والدلالة، والعمل واضحة تماماً.

ولما كانت مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنيةً أكثرها على معاني حروفه، وهي مع قلتها وتبصر الوقوف على جملتها، وقد كثُر دورها، وبعدَ غورها، فعزّت على الأذهان معانيها وأبَت الإذعان إلى ملء معانيها .

<sup>(١)</sup> أصول النحو، لابن السراج: ١/٤٠٢ وما بعدها، ومغني اللبيب، لابن هشام: ١/٦٠٢.

<sup>(٢)</sup> ضياء المسالك إلى ألفية ابن مالك، محمد عبد العزيز النجاشي: ٢/٥١٩.

<sup>(٣)</sup> إعراب الجمل وأشياء الجمل، دفتر الدين قباوة: ٢٥٩.

<sup>(٤)</sup> شبه الجملة (دراسة تركيبية تحليلية مع التطبيق على القرآن الكريم) د. سوزان محمد فؤاد فهمي: ١٠.

<sup>(٥)</sup> المختار من أبواب النحو، د. محمد خير حلواني: ٦١٠.

<sup>(٦)</sup> مغني اللبيب، لابن هشام: ٢/٤٩٤.

والجرة مصطلح صوتي يعني عند النحاة الإضافة ؛ لأن الحروف الجارّة تجر ما قبلها فتوصله إلى ما بعدها<sup>(١)</sup>. كقولك جلست على الكرسي . فحرف الجر ربط بين الجلوس والكرسي .

وهذه الحروف تُقسم إلى أصلية، وهي تضييف معاني الأفعال إلى الأسماء بعدها<sup>(٢)</sup>.

ولا يمكن الاستغناء عنها، وهي تحتاج مع مجرورها إلى متعلق تستند إليه لكي يفهم منها المعنى، وهي تعطي معنى فرعياً للجملة نحو: "سافر زيد من دمشق إلى حلب بالقطار" ، فحرف الجر (من) أوصل معنى الفعل (سافر) إلى الاسم (دمشق) ، وحرف الجر (إلى) أوصل معناه إلى الاسم (حلب)، يُضاف إلى ذلك أن حرف الجر (من) الدال على ابتداء الغاية بين أن ابتداء السفر كان من دمشق، وحرف الجر (إلى) الدال على انتهاء الغاية دل على أن انتهاء السفر كان في حلب، والجار والمجرور (بالقطار) بين الوسيلة التي تم بها السفر وهي (القطار) أي آلة حصول السفر .

وما دامت حروف الجر الأصلية تعطي معنى جديداً، فلا نحذفها ؛ لأن حذفها يؤدي إلى إنفاس بعض المعاني الفرعية في الجملة، وهذه المعاني يُحدثها تعلق شبه الجملة بالفعل أو ما يشبه الفعل .

ولا يبقى لشبه الجملة معنى إذا لم ترتبط بفعل أو شبه فعل يعمل فيها، وبين معناها، والعامل فيها يحتاج إليها ؛ لأنها تُتمّ معناه وتُوضّحه، فشبه الجملة تُوضح للعامل مكاناً أو زماناً أو علة أو آلة .

وهذا يعني أن شبه الجملة – الظرف أو الجار والمجرور – تؤدي وظائف معنوية في الجملة أو ترتيبية سياقية، وتُسهم في الاتساع في استخدام القاعدة النحوية، من فصل بين الأجزاء المتلازمة في الجملة، وتقديره وتأخيره، وتحديد لإعراب الكلمات الواقعة بعدها، وتخصيص وتعيم للمبتدأ النكرة، وللحديث، وقربة دالة على حذف الفعل أو المنعوت أو المضاف، وتنوع الدلالات للفعل، وتعديلاته، وإ يصل معنى الفعل إلى الاسم المجرور بعده، ونبأة شبه الجملة عن الفعل، وعن الفاعل، وتأثير في رسم بعض الكلمات، وتنمية العامل ضعيف.

وأمّا حروف الجر الزائدة فهي التي يكون دخولها مثل خروجها<sup>(٣)</sup> أي أنه يمكن الاستغناء عنها، ويفيد الإثبات بها توكيده المعنى العام، أو تنمية عامل ضعيف، ويختص بالزيادة، ومن هذه الحروف الباء كما

<sup>(١)</sup> الكتاب، لسيوطه : ٢٠٤/٢.

<sup>(٢)</sup> شرح المفصل لابن بعيش : ٧/٨ .

<sup>(٣)</sup> سر صناعة الإعراب لابن جني : ١٣٥ .

في قوله تعالى: (ولَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسِيْطِرٍ) <sup>(١)</sup>، و(مِنْ) في نحو قوله تعالى: (مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ) <sup>(٢)</sup>، واللام، في قوله تعالى: (فَعَالٌ لَمَا يَرِيدُ) <sup>(٣)</sup>

فالحرف عند سيبويه له معنى خاص به يجعله يتميّز عن الاسم وعن الفعل إلى أن معناه لا يتضح إلا ضمن التركيب؛ لأن التصنيف الثلاثي للكلِّم مبني على الوظائف التركية للمفردات <sup>(٤)</sup>.

وحرروف الجر، كما هو معروف - لكل منها معنى أصلياً تدل عليه في معظم التركيبات، ومعانٍ فرعية أخرى، والتلفظ بحرف من حروف الجر منفرداً يؤدي إلى استحضار معناه الأصلي في الذهن مباشرةً . وقد يتضح أن لكل حرف من حروف الجر معنى أصلياً يدل عليه الحرف في الغالب، أما المعاني الفرعية فيكتسبها الحرف من ارتباطه بالفعل والاسم المجرور الذي اقترن به في السياق .

### أهمية شبه الجملة في السياق:

تتجلى أهمية شبه الجملة من خلال الوظائف والدلائل المتّوّعة التي تؤديها في السياق، ومنها:

١ - **تسوية ابتدائية المبتدأ النكرة:** الخبر إذا كان شبه جملة: ظرفاً أو جاراً ومحروراً، والمبتدأ نكرة يكون شبه الجملة خبراً مسوغاً لابتدائية النكرة نحو: عندكِ مالٌ، وفي الدار رجلٌ . وهنا يمتنع تقديم المبتدأ على الخبر، لأنه لو فعل ذلك لزالت المسوغة لابتداء بالنكرة، فيفسد التركيب <sup>(٥)</sup>.

فشبه الجملة هنا قرينة توسيع الابتداء بالنكرة ولكن بشرط أن تكون النكرة متاخرة عن شبه الجملة .

٢ - **وشبه الجملة تخصيص المبتدأ بالنكرة عندما يتقدم شبه الجملة عليه نحو قوله تعالى:** (ولَدِينِي) <sup>(٦)</sup>، وقوله تعالى: (ولَكُلِّ أَجْلٍ كِتَابٍ) <sup>(٧)</sup> فلو كان غير مخصوص نحو: "عند رجلٍ ما حقلٌ" ، وفي دار ما رجلٌ ، فلا فائدة بالإخبار بذلك ؛ وإنما توسيع الابتداء بالاسم النكرة عند تقديم شبه الجملة المذكور ؛ لأنه

<sup>(١)</sup> سورة الغاشية : ٨٨/٢٢ .

<sup>(٢)</sup> سورة المؤمنون : ٢٣/٩١ .

<sup>(٣)</sup> سورة البروج : ٩٤/١٦ .

<sup>(٤)</sup> التحليل التحوي أصوله وأدواته، د. فخر الدين قباوة : ٢١١ .

<sup>(٥)</sup> ينظر شرح الرضي على الكافية : ٢٥٩/١، وشرح ابن عقيل : ٢٠٢/١ وما بعدها، والنهل الصافي في شرح الواقي لبدالدين الدمامي (خطيط) ورقة ٨٢/١، وهمع الهوامع، للسيوطى : ٣٤/٢ .

<sup>(٦)</sup> سورة ق : ٥٠/٣٥ .

<sup>(٧)</sup> سورة الرعد : ١٣/٢٨ .

تخصّص بتقديم حكمه عليه، فصار كالموصوف، لأنَّ من شأن الصفة تقرُّرها في الذهن قبل ذكر الموصوف، وهذا التخصّص كما في الفاعل، فإنَّ التخصيص فيه بتقديم حكمه وهو الفعل أو شبهه عليه<sup>(١)</sup>. ولذلك لم يحيزوا "قائم رجل"؛ لأنَّ الخبر المتقدم ليس ظرفًا، فانتفى شرط التخصيص.

**٢- الظرف يخصّص حدوث الفعل الذي يكون دالاً على عموم: وقد يأتي الظرف بمنزلة القرينة التي تخصّصه للزمان أو للمكان، وهذا ما حَصل في قول الشاعر الصمة بن عبد الله:**

**أمرُهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستيّنوا الرشد إلا ضحى الغدِ**

قال المزوقي<sup>(٢)</sup> .... في قوله: (بمنعرج اللوى) تحديد وتوقيت، وبين أن ذلك كان من همَّه حتى اختار له الموضع عنده، والوقت الذي كان أعود فيما أمرهم به<sup>(٣)</sup>.

فقول المزوقي "تحديد وتوقيت" يعني أن شبه الجملة هنا كظروف الزمان للدلالة على الوقت، ولكنه في موضع المفعول به لـ (أمرُهم)؛ لأن المعنى هو الباء، وميزت الباء بين (كون منعرج اللوى) ظرف مكان وبين كونه ظرف زمان؛ لأنَّه يحتمل أن يكون اسمًا للمكان، ولكنَّ الباء جعلته ظرف زمان لأنَّ حرف الجر الباء دلَّ على هذا السياق، وفي هذه الحال على الوقت الذي يريده الشاعر<sup>(٤)</sup>.

**٤- الاتساع في الظرف والجار والمجرور: إنهم يتسعون في الظرف والجار والمجرور ما لا يتسعون في غيرهما**  
 فلذلك فصلوا بهما الفعل الناقص من معموله نحو "كان في الدار" أو عندك زيد جالساً. فقد فصلوا بالجار والمجرور (في الدار) بين الفعل الناقص واسمِه، وفي قولِهم: كان عندك زيد جالساً. فصلوا بين الفعل الناقص واسمِه بالظرف عندك، وهو معمول للخبر، وفي هذا اتساع في استخدام القاعدة النحوية لأنَّه لو كان الفاصل غير الجار والمجرور أو الظرف لما جاز، لأنَّ أصل القاعدة لا يجوز أن يتقدم خبر كان أو معموله على اسمها.

كما فصلوا فعل التعجب من المتعجب منه نحو قولِهم: "ما أحسنَ في البجاء لقاء زيد، وما أثبتَ عند الحرب زيداً، فقد فصلوا بهما بين الأشياء التلازمه التي لا يجوز الفصل بينها بغير شبه الجملة وهو نوع من الاتساع في استخدام القاعدة، فلا يجوز أن تقول: "إنَّ طعامكَ زيداً أكل"<sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> المنهل الصافي في شرح الرازي، لبدر الدين الدمامي (مخطوط) ورقة ٨٣ / ١.

<sup>(٢)</sup> شرح الحمامة، للمزوقي : ٨١٥.٨١٤ .

<sup>(٣)</sup> شبه الجملة في العربية والاتساع فيه : ٣٥ - ٣٦ .

<sup>(٤)</sup> مفتني الليبي، لابن هشام : ٧٧٣ ، وشرح ابن عقيل على ألفية بن مالك: ٣٢٠ / ١ .

وفصلوا بهما بين الحرف الناصخ ومنسوخه نحو قول الشاعر:

**فلا تلْحَنِي فيها فإن بجَهَا أخاك مصابُ القلبِ جَمْ بلا بلْهٌ<sup>(١)</sup>.**

فقد فصل الشاعر بين إنَّ واسمها بعمول الخبر الجار وال مجرور (بجهَا)، ولا يجوز هذا الفصل بغیر شبه الجملة وفصلوا بين الاستفهام والقول الجاري مجرى الظن بشبه الجملة: كقول الشاعر:

**أبعَدَ بعْدِ تقولِ الدارِ جامِعَةَ شَمْلِي بِهِمْ أَمْ تقولُ الْبَعْدَ محْتَوِمَا<sup>(٢)</sup>.**

أصل الكلام: أتقولُ الدارِ جامِعَةَ . الهمزة للاستفهام، وتقولُ: فعل مضارع يعني تظنُّ والفاعل (أنت)، والدار: مفعول به أول، وجامِعَةَ: مفعول به ثانٍ . جازَ الفصل بين همة الاستفهام والقول الجاري مجرى الظن بالظرف (بعد)، لأنهم يتسعون بالظرف والجار والمجرور ما لا يتسعون في غيرهما. كما فصلوا بهما بين المضاف والمضاف إليه نحو: هذا غلامُ واللهِ زيدٌ . وبين حرف الجر و مجروره، نحو: اشتريت الكتاب بو اللهِ درهم . وفصلوا بهما بين (لن) ومنصوبها، نحو قول الشاعر حسان بن ثابت:

**إِذْنُ وَاللهِ نَرْمِيهِمْ بِحَرَبٍ تُشَبِّهُ الطَّفْلَ مِنْ قَبْلِ الْمُشَبِّبِ<sup>(٣)</sup>.**

إذْنُ: حرف جواب وجزاء . نرمِيهِمْ: فعل مضارع منصوب بـ (إذْنُ)، فُصلَّ بين الحرف الناصب، ومنصوبه الفعل المضارع .

ومن ذلك قول الشاعر:

**لَنْ، مَا رَأَيْتُ أَبَا يَزِيدَ مَقَاتِلًا، أَدْعَ الْقَتَالَ وَأَشْهَدَ الْهِيجَاءَ<sup>(٤)</sup>.**

فُصلَّ بين الحرف الناصب (لن) ومنصوبه الفعل (أدعَ) بالمصدر المؤول من (ما) المصدرية الظرفية والفعل رأيت ؛ وجاز ذلك لأنهم يتسعون في الظرف والجار والمجرور ما لا يتسعون في غيرهما .

وقدموهما خبرين على الاسم في باب (إنَّ) نحو قوله تعالى: (إنَّ في ذلكَ لَعْبَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ)<sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> مفتني الليب لابن هشام : ٣٧١.

<sup>(٢)</sup> المرجع نفسه : ٣٧١.

<sup>(٣)</sup> ديوان حسان بن ثابت : ٢٢.

<sup>(٤)</sup> البيت مجهول القائل، وهو في مفتني الليب : ٣١٣.

<sup>(٥)</sup> سورة آل عمران : ١٣/٣.

وواعدين للخبر في باب (ما)، نحو "ما في الدار زيد جالساً"، ومن ذلك قول الشاعر:

**باهية حزم لذ وإن كنتَ آمناً فما كلَّ حينَ منْ تواتي مواتياً<sup>(١)</sup>**

تقديم الظرف (كلَّ حينَ) على اسم (ما) المجازية وهو (منْ) مع كونه معمولاً للخبر (مؤاتياً) وبقي عمل (ما) المجازية، وجاز ذلك لأنهم يتسعون في الظرف والجار والجرور ما لا يتسعون في غيرهما، فإن كان المعمول غيرهما بطل عملها، نحو قول مزاحم بن الحارث العقيلي:

**وقالوا تعرَّفها المنازلَ منْ منِيَّ وما كلَّ منْ وافي منِيَّ أنا عارفُ<sup>(٢)</sup>.**

بنصب (كلَّ) مفعولاً به لاسم الفاعل عارف، ولذلك أهملت (ما) لتقديم معمول خبرها على اسمها (منْ) وهو غيرُ ظرفٍ ولا جارٌ وجرور.

وقدموهما معمولين لصلة (أي) نحو (وما كانوا فيه من الزاهدين)<sup>(٣)</sup>. أصل القاعدة ما بعد الموصول لا يعمل بما قبله، والذي سوَّغ ذلك أن المعمول شبه جملة، والتقدير: وما كانوا من الزاهدين فيه.

وقدموهما على الفعل المنفي بـ(ما) في نحو قول الراجز:

**ونحن عن فضلكَ ما استعنينا فَقَبِّتِ الأقدامَ إِنْ لاقِنَا<sup>(٤)</sup>.**

تقديم الجار والجرور (عن فضلك) على (ما) التالية التي لها الصدارة والتي لا يَعمل ما بعدها فيما قبلها، والذي سوَّغ ذلك توسيعهم في الظرف والجار والجرور ما لا يتسعون في غيره<sup>(٥)</sup>.

٥— ومن مهام شبه الجملة أن تسمِّم في تأخير دخول اللام المزحلقة من المبدأ إلى الخبر سواء أكان جاراً وجروراً نحو قوله تعالى (إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)<sup>(٦)</sup> أو ظرفاً واقعاً موقع الخبر، نحو "إن زيداً عندك". ومن المعلوم أنَّ لام الابتداء لا تدخل على الخبر إلَّا في حالات، كدخولها على الخبر المتقدم على المبدأ، نحو: "لصادقُ أنت".

<sup>(١)</sup> البيت مجهول القائل، وهو في معني الليب : ٧٧٤. لذ : فعل أمر من لاز يلزد .

<sup>(٢)</sup> تعرَّف : بتشديد الراء - فعل أمر، والباء تعود إلى المبورة. المنازل : منصوب على نزع الخافض، والأصل : تعرَّفها في المنازل .

<sup>(٣)</sup> سورة يوسف : ٢٠/١٢ .

<sup>(٤)</sup> الراجز لعبد الله بن رواحة . وهو في معني الليب : ١٠٣ ، والكاف في (فضلك) تعود على الله عز وجل .

<sup>(٥)</sup> ينظر : معني الليب : ٧٧٣ - ٧٧٤ .

<sup>(٦)</sup> سورة القلم : ٤/٦٨ .

٦- جواز دخول لام الابتداء على اسم (إن) إذا تأخر وتقدمت عليه شبه الجملة، نحو قوله تعالى (وَإِنْ فِي ذلِكَ لعِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ) <sup>(١)</sup>.

#### ٧- شبه الجملة تسهم في توسيع القاعدة النحوية:

أ- يمتنع تقديم معمول الشبيهة المنصوب على التشبيه بالفعل به عليها، أما إذا كان شبه جملة أو تبيزاً أو مفعولاً لأجله، فإنه يجوز تقديمها عليها نحو قوله تعالى: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ) <sup>(٢)</sup>، فشبه الجملة الجار والمجرور (على كل شيء) أسمهم في توسيع القاعدة النحوية بإجازته تقديم معمول الشبيهة (قديراً) المنصوب على التشبيه بالفعل به عليها، وهو لا يجوز بغير شبه الجملة، وهذا ناتج عن كثرة استعمال شبه الجملة في الكلام العربي، وما يستعمل كثيراً في الكلام يصعبه التغيير من حذف أو تقديم وتأخير، وما شابه ذلك.

ب- يجوز أن يلي كأن وأخواتها معمول خبرها إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً عند البصريين والkovfins، نحو: "كان عندك زيد مقيماً، وكان فيك زيد راغباً".

جاء شبه الجملة الظرف (عندك)، والجار والمجرور (فيك) بمنزلة القرينة التي فسحت طاقة القاعدة النحوية وسُوغت تقديم معمول خبر كان على اسمها . وهذا لا يجوز بغير شبه الجملة، وهو نوع من الاتساع لكثره استعمال شبه الجملة في الكلام العربي .

ج- وفي باب (إن) الحرف المشبه بالفعل يلزم تقديم الاسم وتأخير الخبر إلا إذا كان الخبر شبه جملة ظرفاً أو جاراً ومجروراً، فلا يلزم تأخيره، وتحت هذا قسمان:

أحدهما: يجوز تقديمها وتأخيرها، وذلك نحو: "لَيْتْ فِيهَا غَيْرَ الْبَذِيْ" أو "لَيْتْ هَنَا غَيْرَ الْبَذِيْ" <sup>(٣)</sup> فيجوز تقديم (فيها، وهنا) على (غير) كما يجوز تأخيرهما عنها؛ ففي حال جواز التقديم نرى أن شبه الجملة تؤدي وظيفة القرينة التي تحيّز تقديم خبر (إن) أو معمول الخبر على اسمها، وفيه نوع من الاتساع في تطبيق القاعدة النحوية ترافقها أغراض معنوية بلاغية .

<sup>(١)</sup> سورة النور : ٤٤/٢٤ .

<sup>(٢)</sup> سورة المائدة : ٥/١٢٠ .

<sup>(٣)</sup> أي الواقع أو الذي في قوله فحش ..

والثاني: أنه يجب تقديمها، نحو "لَيْتْ فِي الدَّارِ صَاحِبَهَا"، فلا يجوز تأخير الجار والمحرر (في الدار) لثلا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة<sup>(١)</sup>.

والرتبة عند علماء العربية من لغوين ونحوة وبلاغيين على ضربين:

- محفوظة: لا يجوز الخروج عليها؛ لأن الخروج عليها يخالف طرائق العرب في التعبير.

- وغير محفوظة: يجوز فيها التقديم والتأخير؛ لأن التقديم والتأخير لها مرتبط بمعانٍ نحوية وبلاغية.

فلا يجوز تقديم معمول خبر(إن) على اسمها إذا كان غير ظرف ولا جاراً ومحرراً، نحو: "إِنْ طَعَامَكَ زِيداً أَكْلٌ، وَالْجَاهِزُ أَنْ تَقُولُ: إِنْ زِيداً لَا كَلْ طَعَامَكَ".

د- وقد ندر تقديم الحال على عاملها شبه الجملة الظرف، نحو: "زِيدْ قَائِمًا عِنْدَكَ" أو الجار والمحرر نحو: "سَعِيدٌ مُسْتَقِرًا فِي هَجَرَ" العامل في هذه الحال شبه الجملة (الظرف عندك)، والجار والمحرر في هجر) فتأخرت شبه الجملة عن الحال فأوضحت درجة فصاحة العبارة بأنها نادرة . ومنه قوله تعالى (السموات مطوياتٍ بِيمِينِهِ) <sup>(٢)</sup> في قراءة من كسر الناء في (مطويات)، وأجازه الأخفش قياساً<sup>(٣)</sup>.

وأدى شبه الجملة الجار والمحرر (بيمينه) وظيفة العامل الذي ينصب الحال (مطويات)، وقد تقدم الحال على عامله ، فتأخرت شبه الجملة العاملة في الحال في المثاليين السابقين والقراءة موجهة على مرتبة نادرة في سلم فصاحة كلام العرب .

هـ- تُسْهِم شبه الجملة في توسيع القاعدة النحوية: يجوز التذكير والتأنيث لل فعل إذا فصلَ بينه وبين الفاعل بشبه جملة نحو قولنا: نجحَتِ الْيَوْمُ هَنْدُ، ونجحَ الْيَوْمُ هَنْدُ. فكلا الوجهين جائز، جاء شبه الجملة بمنزلة القرنة التي فسحت طاقة القاعدة النحوية التي أجازت تذكير الفعل وتأنيثه مع الفاعل المؤنث . ومن ذلك قول الشاعر:

إِنَّ امْرَأَ غَرَّهُ مَنْكَنَ وَاحِدَةً      بَعْدِي وَبَعْدَكَ فِي الدُّنْيَا لَغَرُورٍ<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ٣٢٠/١.

<sup>(٢)</sup> سورة الزمر : ٦٧/٣٩.

<sup>(٣)</sup> شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ٥٨٩/١ . والقراءة المشهورة برفع السمات على الابتداء، ورفع (مطويات) على أنه خبر المبتدأ، والجار والمحرر (بيمينه) متعلق بـمطويات، والقراءة التي يستدل بها الشارح برفع السمات على أنه مبتدأ، ونصب مطويات بالكسر سيابة عن الفتحة على أنه حال صاحب الضمير المستكِن في الجار والمحرر، والجار والمحرر (بيمينه) متعلق بمخدوف خبر المبتدأ .

<sup>(٤)</sup> الخصانص لابن جنبي : ٢١٤/٢ .

ففي قوله: غَرَّهُ مِنْكَنَ وَاحِدَةً ذُكِرَ الْفَعْلُ مَعَ الْفَاعِلِ الْمُؤْنَثِ مَعَ جُوازِ تَأْنِيَتِهِ؛ لِأَنَّ الْفَاعِلَ بَيْنَ الْفَعْلِ وَبَيْنَ الْفَاعِلِ شَبَهِ الْجَمْلَةِ (مِنْكَنَ).

**٨- شَبَهُ الْجَمْلَةِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَى حَذْفِ الْمُبْتَدَأِ وَجَوِيبَهُ:** يحذف المبتدأ وجواباً عند وقوع الجار والمحرور بعد مصدر نائب عن فعله نحو: "سَقِيَ لَكَ" ، والجار والمحرور (لَكَ) خبر لمبتدأ محنوف وجواباً تقديره: الدعاء لك، ولا يصح أن يتعلق الجار والمحرور بالمصدر (سَقِيَ) <sup>(١)</sup>.

#### ٩- شَبَهُ الْجَمْلَةِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَى حَذْفِ الْمَنْعُوتِ:

يمجوز حذف المنعوت في موضعين:

الأول: إذا كان شبه جملة نحو قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ) <sup>(٢)</sup> أي بخصلة واحدة، وهو: (وإذا حَسِّنْتُ بِتَحْيَةٍ فَحِيَوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا) <sup>(٣)</sup> أي بتحية أحسن منها. حذف المنعوت (بتتحية) لكونه شبه جملة .  
والثاني: إذا كان المنعوت بعض اسم متقدم مجرور بـ(من) أو (في) نحو: "مِنَ مَنْ ظَعَنَ، وَمِنَ مَنْ أَقَامَ" أي: مِنَ فَرِيقٍ ظَعَنَ، وَمِنَ فَرِيقٍ أَقَامَ . حذف المنعوت (فرِيق) لكونه بعض اسم متقدم مجرور بـ(من) ومن ذلك قول تابط شرآ:

حَتَّى نَجُوتُ وَلَمَّا يَنْزَعُوا سَلَبِي بِوَالِهِ مِنْ قَبِضِ الشَّرِّ غَيْدَاقِ <sup>(٤)</sup>.

شبه الجملة (بِوَالِهِ) تعلق بالفعل (يَنْزَعُوا)، وهذا التعلق للباء بمنزلة القرينة الدالة على حذف موصوف قبل المحرور بها وإقامة الصفة مقامه، والتقدير: بعدهُ وَالِهِ ، لأن قوله: (من قبض الشر) يدل عليه <sup>(٥)</sup>.

#### ١٠- شَبَهُ الْجَمْلَةِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَى حَذْفِ الْمَضَافِ:

ويقدر بعض النحوين في قضية تعلق الباء حذف المضاف قبل المحرور بها، كما يقدرون ذلك في اللام، نحو قوله تعالى: (يُبَشِّرُكُمْ بِيَحْيَى مَصْدِقاً بِكَلْمَةِ مِنْ اللهِ) <sup>(٦)</sup>.

<sup>(١)</sup> التحرير الواقي، عباس حسن : ٥٥٥/١ .

<sup>(٢)</sup> سورة سبا : ٤٦/٣٤ .

<sup>(٣)</sup> سورة النساء : ٨٦/٤ .

<sup>(٤)</sup> ديوان تابط شرآ : ١٢٤ ، الوله : ذهاب العقل . والقبض : السريع . والغيداق : الواسع . والسلب : السلاح .

<sup>(٥)</sup> ينظر شرح اختبارات المفضل : ١١٦ .

<sup>(٦)</sup> سورة آل عمران : ٣٩/٣ .

فالجار والجرور متعلق بالفعل (يشرك) والمعنى : بولادة يحيى<sup>(١)</sup>.

### ١١- تنوع دلالات الفعل واسبابه توجيهات خاصة:

نظراً لأهمية التعدي بحرف الجر في التراكيب اللغوية، وما يؤديه ذلك من إكساب الفعل توجيهات خاصة ودلالات متعددة بحسب حروف الجر التي تقترب بالأفعال، بحسب نوع الاسم المجرور الذي يرتبط به، وما يتبع عن ذلك من علاقات سياقية هي حقيقة تفاعل معقد بين الفعل والاسم المجرور<sup>(٢)</sup>. لأن حرف الجر يوصل معنى الفعل إلى الاسم المجرور.

١٢- وقد يكون حرف الجر للتعددية نحو "ذهبت بزید" ، أو لغيرها ، نحو : "كتبت بالقلم" ، وضررت بالسيف ، ومررت على الديار ، ومررت بالديار ، وسرت في يوم الجمعة ، وجلست في مكان زید ، وضررت المتعجرف للتأديب .

وهذا ما عنده سيبويه بقوله : .... لأنَّ المَحْرُوفَ الْجَارَ تَجْرِي أَيْ تَحْمِلُ مَعْنَى مَا قَبْلَهَا ، فَوَصَّلَهُ إِلَى مَا بَعْدَهَا<sup>(٣)</sup> ، كقولك : "جلست على الكرسي" ، فحرف الجر (على) ربط بين الجلوس والكرسي .

وعدم استغاثة الظروف والمجرورات عن حرف الجر يدل على الحاجة إلى التعليق ؛ لأن الحرف لا يدل على المعنى المراد منه حتى يتصل أو يتعلق بغيره من أجزاء الكلام ، وهذا ما عبر عنه الرضي الأسترابادي (ت ٦٨٦هـ) بقوله : (الحرف كلمة دلت على معنى ثابت في لفظ غيرها .... والأكثر أن يكون معنى الحرف مضمون ذلك اللفظ ، فيكون مضموناً للمعنى الذي أحده في الحرف مع دلالته على معناه الأصلي)<sup>(٤)</sup> .

ويُعَدُّ شبه الجملة واحداً من معدّيات الفعل اللازم بإدخال حرف الجر على مفعوله المعنوي نحو : "عَجِبْتُ مِنْكَ ، وَمَرَرْتُ بِكَ"<sup>(٥)</sup> أو بنزع الخافض نحو قوله تعالى (أَعْجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)<sup>(٦)</sup> ، أي من أمر ربكم ، ونحو قوله تعالى : (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ)<sup>(٧)</sup> . أي على كل مرصد .

<sup>(١)</sup> ينظر : تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان الأندرلسي : ٤٤٧/٢١ .

<sup>(٢)</sup> ينظر : قضايا اللزوم والتعدى ، د. محمود الحسن : ٣٢٢.٣٢١ .

<sup>(٣)</sup> الكتاب لسيبوه : ٢٠٤/٢ .

<sup>(٤)</sup> شرح الكافية ، للرضي الأسترابادي : ٩/١ .

<sup>(٥)</sup> ضياء المسالك إلى أوضاع المسالك : ٨٦/٢ .

<sup>(٦)</sup> سورة الأعراف : ١٥٠/٧ .

<sup>(٧)</sup> سورة التوبة : ٥/٩ .

١٢ - **نِيَابَةُ شَبَهِ الْجَمْلَةِ عَنِ الْفَاعِلِ:**

أجاز الكوفيون والأخفش نiability شبه الجملة: الجار والمحرر عن الفاعل مع وجود المفعول به محتاجين بقول رؤبة بن العجاج:

لَمْ يُعْنِ بِالْعُلَيَّاءِ إِلَّا سِيدًا وَلَا شَفَى ذَا الْفَيِّ إِلَّا ذُو هَدَىٰ<sup>(١)</sup>.

ففي قوله: (لم يعن بالعلياء إلا سيدا) ناب الجار والمحرر (بالعلياء) عن الفاعل، والمفعول به موجود وهو (سيدا)، وخرج على الشذوذ ولا يقاس عليه. ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَا سُقْطٌ فِي أَيْدِيهِمْ)<sup>(٢)</sup>، والجار والمحرر لا يمكن له أن ينوب عن الفاعل مطلقاً بل وضع له النهاية شروطاً وهي:

ـ أـ أن يكون معرفة غير مهم: فإذا كان المحرر نكرة غير مضافة لا يفيد شيئاً، فلا يصح أن تقول: "وقف على رصيف". ولا تعد المحرر نائباً عن الفاعل؛ لأن المحرر في هذا المثال مهم والإسناد إلى المهم لا يفيد.

ـ بـ ألا يكون الجار والمحرر مختصاً أو ملزماً طرفة عمل واحدة في عمله، نحو (رب) الجارة للنكرات، و(خلا و عدا و حاشا) الجارة للمستثنى؛ و(منذ ومنذ) الجارتين لأسماء الزمان، فكلها لا يصلح محررها للنبيابة عن الفاعل<sup>(٣)</sup>.

ـ ١٤ - جواز اقتضان الخبر بالفاء إذا كان المبتدأ اسم موصولاً صلته شبه جملة متعلق بفعل مستقبل نحو: الذي عندك فأديب، والذي في القاعة فطالب.

ـ ١٥ - شبه الجملة يعمل فعل إذا جاء معتمدأ على نفي: نحو ما في الدار أحد، أو استفهام نحو: أعنديك زيد؟ فالاسم المرفوع بعد شبه الجملة الجار والمحرر (أحد) فاعل لشبه الجملة (في الدار)، والاسم المرفوع (زيد) بعد شبه الجملة الظرف (عندي) فاعل له، وكل منهما عمل فعل فرفع الفاعل، ولذلك أطلق بعض النحاة على شبه الجملة في مثل هذه الحالة الجملة الظرفية<sup>(٤)</sup>.

١٦ - **شَبَهُ الْجَمْلَةِ تَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَرِينَةً دَالَّةً عَلَىِ إِعْرَابِ الْكَلْمَةِ الَّتِي تَلِيهَا:**

يجب نصب الفضلة مع اسم الفاعل إذا فصل بينه وبينها شبه الجملة<sup>(٥)</sup> نحو قوله تعالى: (وإذ قال رب الملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)<sup>(٦)</sup> صلح أن يكون شبه الجملة (في الأرض) قرينة دالة على إعراب

<sup>(١)</sup> زيادات ديوان رؤبة بن العجاج.

<sup>(٢)</sup> سورة الأعراف: ١٤٩/٧.

<sup>(٣)</sup> شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك: ٤٦٢.٤٦٠/١.

<sup>(٤)</sup> معني الليب عن كتب الأغارب لابن هشام: ٤٢١.٤٢٠.

<sup>(٥)</sup> ضياء السالك إلى أوضح المسالك: ١٦/٢ لمحمد عبد العزيز التجار - الطبعة الأولى ١٩٦٩ - القاهرة.

<sup>(٦)</sup> سورة البقرة: ٣٠/٢.

الكلمة التي بعد شبه الجملة، فهي مفعول به منصوب باسم الفاعل (جاعل)، وأما إذا باشرَ اسمُ الفاعل الفضلة فيجوز نصب الفضلة وجرها بالإضافة، نحو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمُرِ) <sup>(١)</sup> ويجوز النصب (بالغ أمره) <sup>(٢)</sup>.

**١٧ - إدخال الباء على المبيع أو المشتري ونصب الأثمان:** وقد تكون الباء الدالة على المبيع أو المشتري بمنزلة القرينة الدالة على إعراب ما بعد شبه الجملة، ومن ذلك قوله: (وَلَا تَشْتَرُوا بِأَيْمَانِكُمْ قَلِيلًا) <sup>(٣)</sup> في هذه الآية الكريمة جاء شبه الجملة (بآياتي) بمنزلة القرينة الدالة على إعراب الكلمة التي تلي شبه الجملة (ثمناً) على أنها مفعول به؛ لذلك قال الفراء "وكُلُّ مَا جاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا نُصْبَ فِيهِ الثَّمَنُ وَأَدْخِلْتَ الْبَاءَ فِي الْمَبْيَعِ أَوِ الْمَشْتَرِيِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْثَرَ مَا يَأْتِي فِي الشَّيْئَيْنِ لَا يَكُونُانِ ثَمَنًا مَعْلُومًا مِنَ الدِّنَارِيِّ أَوِ الدِّرَاهِمِ ..... وَمَا كَانَ لَيْسَ مِنَ الْأَثْمَانِ مُثِلُ الرَّقِيقِ وَالدُّرِّ ..... فَهُوَ عَلَى هَذَا، فَإِنْ ذَهَبْتَ إِلَى الدِّرَاهِمِ وَالدِّنَارِيِّ وَضَعَتِ الْبَاءَ فِي الثَّمَنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (شَرُوهُ بِثَمَنٍ بِخَسِيرٍ دِرَاهِمٌ مَعْدُودَة) <sup>(٤)</sup>، لِأَنَّ الدِّرَاهِمَ ثُمَّ أَبْدَأَ، وَالْبَاءَ إِنَّمَا تَدْخُلُ فِي الْأَثْمَانِ" <sup>(٥)</sup>. وقد تكون تعدية الفعل بالباء إلى المفعول الثاني أحياناً متصلة بمعنى مقصود لا يعرف إلا بها.

**١٨ - دخول حرف الجر على كيف يُعدُّ قرينة دالة على اسميتها في قولهم: على كيف تبيع الأحمرین؟ أي الخمر واللحم <sup>(٦)</sup>.**

**١٩ - قد يتتحول الظرف بنوعيه الزمانى والمكاني إلى جازٍ ومحروم إذا جزٍ. وإن كان الجاز (في) الدال على الظرفية <sup>(٧)</sup>.**

ومن أنواع الظرف، الظرف غير المتصرف ما يجيء بـ (من) غالباً، نحو: (عِنْدَ، لِدُنْ، قَبْلَ، بَعْدَ، حَوْلَ) وتحتوى هذه الحالة شبه الظرفية <sup>(٨)</sup>. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا) <sup>(٩)</sup>. ومن ذلك قوله تعالى: (ثُمَّ بَعْثَانَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشَكَّرُون) <sup>(١٠)</sup>. وعملة تحوله من الظرفية إلى الجاز والمحروم أنه ترك النصب على الظرفية وصار اسمًا محضًا محرومًا، ولا يصحُّ حينئذ تسميته ظرفاً.

<sup>(١)</sup> سورة الطلاق : ٣/٦٥ .

<sup>(٢)</sup> سورة البقرة : ٤١/٢ .

<sup>(٣)</sup> سورة يوسف : ٢٠/١٢ .

<sup>(٤)</sup> معانى القرآن للقراء : ٣٠/١ .

<sup>(٥)</sup> معنى الليب عن الأعرب : ٢٠٥/١ .

<sup>(٦)</sup> النحو الراقي : ٢٩٥/٢ ، ٢٤٤ .

<sup>(٧)</sup> المرجع نفسه .

<sup>(٨)</sup> سورة الحج : ٧٣/٢٢ .

<sup>(٩)</sup> سورة البقرة : ٥٦/٢ .

## ٢٠- تأثير شبه الجملة في رسم بعض الكلمات:

يؤثر شبه الجملة في رسم بعض الكلمات، فعندما يدخل أحد حروف الجر مثل: إلى، الباء، حتى، على، من، في، اللام، عن... على (ما) الاستفهامية تحذف ألفها، وتبقى دليلاً عليها نحو: علام، وإلام، وحاتم... نحو قوله تعالى (فيم أنت من ذكرها) <sup>(١)</sup>.

وقول الكميت بن زيد الأستدي :

فتلكَ ولاءُ السوءِ قد طالَ مكثُّنْ فحتامَ حنامَ العنانِ المطُولُ؟ <sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى: (وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرُهُمْ بِرَجُعِ الْمُرْسَلِينَ) <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى: لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ <sup>(٤)</sup> وعلة حذف الألف الفرق بين الاستفهام والخبر <sup>(٥)</sup>.

٢١- شبه الجملة وسيلة من وسائل مجيء الحال الجامدة غير المؤولة بمشتق، فيأتي الظرف أو الجار وال مجرور صفة له، نحو: "تخيل الظلمان السراب ماءً أماه"، و نحو: "عرفت جبل قاسيون حصناً حول دمشق".

<sup>(١)</sup> سورة النازعات : ٣/٧٩.

<sup>(٢)</sup> وهو في القصائد الباشميات : ٤٨ ، وفي مغني الليب : ٣٣٠ .

<sup>(٣)</sup> سورة النمل : ٣٥/٢٧ .

<sup>(٤)</sup> سورة الصاف : ٢/٦١ .

<sup>(٥)</sup> مغني الليب لابن هشام : ٣٣٠ .

### نتائج البحث:

- ١ \_ يقصد بشبه الجملة الظرف بنوعيه الزماني والمكاني ، وحرف الجر الأصلي مع مجروره ، ولم يصرح النحاة القدامى أمثال سيبويه (ت ١٨٠ هـ) بمصطلح شبه الجملة ، وإنما وازنوا بين معنى شبه الجملة وبين معنى غيره من أقسام الكلام رابطين ذلك بالموضوع الذي يشغل الظرف ، وإنما أشار إلى عمله في الحال ، وبين عمل الفعل فيها ، وتابعه المبرد (ت ٢٨٥ هـ) فيما ذهب إليه من تشبيه الظرف الخبر بالجملة ، وفي عمله في الحال بعده .
- ٢ \_ ولم يكدر يخرج ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) عمّا ذهب إليه سيبويه والمبرد في وصف الظرف المستتر أو اللغو فاستدلّ بما استدلا به من عمل الظرف التام بالحال ، وصرح ابن السراج بمصطلح شبه الجملة ، لكنه لم يقصد به الظرف والجار والمجرور فقط ، بل قصد ضرورة مختلفة من الكلم ؛ فذكر الجملة أولاً ، وشبه الجملة ثانياً ، وجعله جزءاً من الجملة ثم انتهى في القسم الثالث إلى الأسماء التي تكون مثناة عند النطق بها ، وذلك إذا سميت إنساناً (كزيد) و (حيثما) ؛ لأن كلامهما اسم وحرف سمي به إنسان .
- ٣ \_ واستخدم أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) مصطلح شبه الجملة في بعض كتبه بالمفهوم الذي عرفه النحاة المتأخرن بعد استقرار النحو العربي قاصداً فيه الظرف والجار والمجرور .
- ٤ \_ أطلق النحاة على شبه الجملة أكثر من تسمية فتحة الكوفة أطلقوا مصطلح "الصلة" على الظرف بنوعيه الزماني والمكاني وعلى الجار والمجرور .
- ٥ \_ وتسمية "شبه الجملة" تعني حاجتها إلى ما يسُدُّ نقصاً فيها ؛ لأنّ عبارة "شبه الجملة" تعني ما يقرب الشيء من التمام ، ويبعد النقص عنه .
- ٦ \_ وسمى الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) التركيب الذي يقع فيه الظرف أو الجار والمجرور خبراً "الجملة الظرفية" .
- ٧ \_ وهناك مجموعة من النحاة أطلقوا مصطلح "الظرف" على الظرف بنوعيه الزماني والمكاني وعلى الجار والمجرور ، فحيثما ورد مصطلح "الظرف" في كتبهم يعني به "شبه الجملة" .
- ٨ \_ وأطلق بعض النحاة على شبه الجملة مصطلح "شبه المشتق" ؛ لأنّه يتعلّق بمحذوف مشتق تقديره : كائن أو حاصل ، أو موجود .

٩ \_ وسمى النحاة الظرف بنوعيه الزماني والمكاني ، والجار وال مجرور "شبه جملة" لما بينه وبين الجملة من تشابه في التركيب والدلالة والعمل ، فشبه الجملة تتألف من كلمتين أو أكثر لفظاً وتقديراً . وهي مركبة مثل الجملة ، ولذلك فشبه الجملة تُعني أحياناً عن ذكر الجملة وكثيراً ما تؤدي شبه الجملة مهمة الفعل من حيث العمل والدلالة المعنوية .

١٠ \_ ولا يبقى لشبه الجملة معنى إذا لم ترتبط بفعل أو بشبه فعل يعمل فيها ويحدد معناها ، وتؤدي شبه الجملة عدة وظائف معنوية في السياق ، فهي التي تبيّن زمان حصول الحدث أو مكانه أو سببه ، أو آلة حصوله ، فاستخدامُ شبه الجملة في السياق يشيري الحدث المرتبط بها ، ويعمق فهم السامع لاستخدام هذا الحدث ، وتسلسل حدوثه سواء تقدم عليها أم تأخر .

١١ \_ تدلّ شبه الجملة أحياناً على ما حَلِفَ من أفعال أو أشياءها ، وتتوب منها في المعنى نحو (وله منْ في السموات) ، فشبه الجملة (في السموات) حلّ محل صلة الموصول ، وأغنى عن ذكر الفعل إذا التقدير: وله من استقر في السموات ...

١٢ \_ والظرف هو الوعاء الذي يُضمُ فيه شيءٌ ، وهو موضوع لغيره ، وتسمى الأواني ظروفًا لأنها أووعية لما يوضع فيها ، وكلُّ ما يُستقرُ فيه غيره فهو ظرف .

١٣ \_ والظرف منفرداً ، أي مجردًا من السياق يدلّ على معنى عام غير محدد لعدم علمنا بالأطراف المشتركة في تكوين دلالته ، فمثل هذه الظروف لا تكتمل دلالتها إلى التركيب وضمن السياق . ودلالتها المشوية بالإبهام - وهي منفردة - تحصل مرتبطة بأصولها المصدرية من جهة وما ألفه العقلُ من صور استعمالها من جهة أخرى ، فهي دلالة موجودة على كلّ حال ، لأنّ الظرف يُخصّصُ حدوث الفعل دون أن يخرجه عن معناه الأصلي ، لأنّه يقيده بوعاء فيصبح أجنساً متنوّعاً لتنوع الوعاء الزماني أو المكاني الذي يحويه

١٤ \_ والظرف اللغو هو الذي يكون كالفضلة في الكلام لا يقع كوناً عاماً بل يتعلّق بالعامل الملفوظ ، ولكنه يُسْهِمُ في إتمام المعنى ، نحو قوله: ذهبت إلى الجامعة . فالظرف أي الجار وال مجرور (إلى الجامعة) لغو لأنّه متعلق بالعامل الملفوظ (ذهبت) وهو متّم لمعنى الفعل ذهبت ، إذ بين انتهاء غاية الذهاب وهو (الجامعة) ؛ وهذا يعني أنّ الظرف (اللغو) لا يتضمن العامل فيه ، وإنما يكون العامل فيه شيئاً منفصلاً عنه . وكان بعضهم يسميه الظرف غير المستقر .

١٥ \_ الظرف المستقر: هو الذي يتعلّق بالكون العام الواجب الحذف ، وينوب عنه ، يصير وكأنه المذوق ،

ويُشترط فيه أن يكون مقيداً غير مذكور، وحقه التقديم لكونه عدمة ومحاجأ إليه؛ وأن يكون تماماً يفهم منه متعلقه المذوف . نحو: زيد عنك، وزيد في الدار . فكلٌّ منها ظرفٌ مستقرٌ لأنَّه متعلَّق بمذوف واجب الحذف ؛ وتضمنُ الظرف المستقر للمتعلق يعني أنَّ هذا المتعلق لا يجوز إظهاره عندما يكون الظرف متعلِّقاً به ، لأنَّ التضمن غير القدير ، والمقدر يجوز حذفه وإظهاره ، أمَّا المضمن ، فيجب حذفه ولا يجوز إظهاره إلَّا في الضرورة الشعرية ؛ لأنَّ الظرف المستقر قد صار كأنَّه المتعلق الذي حُذف ولم يُعد يمكننا إظهاره ؛ لأنَّه قد استُبعِضَ عنه بالظرف ، ولا يجوز في العربية اجتماع العوض ، المعوض منه ، وقد سماه بعض النحوين الظرف التام مقابلًا لتسميتهم (الظرف اللغو) بالظرف الناقص ؛ وتسميتهم له الظرف التام تعني أنه صار نابياً عن الكون العام المذوف وعاماً عمله في الخبر والحال والصفة والصلة والمفعول الثاني لأفعال القلوب وأفعال التحويل .

١٦ - وفي مصطلح الجار والمجرور ذكر اللغويون أنَّ الجرَّ معناه السحب والشدَّ، يقال جرَت الجبل وغيره أجرَه جراً . والجرَّ في الاصطلاح نوع من الإعراب، يُخصَّ كلماتٍ بحركة أو ما يقوم مقامها من حركات فرعية، ومُحدِّثُ هذه الحركة حرف الجرَّ . والجرَّة مصطلح صوتي يعني عند النحاة الإضافة ؛ لأنَّ الحروف الجار تجبرَ معنى يربط بين الجار وبين المجرور كالربط بين الجلوس والكرسي في قولنا: جلست على الكرسي . ومقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنيَّ على معانٍ حروفة ، والحرف عند سيبويه له معنى خاص يجعله يتميَّز عن الاسم وعن الفعل إلا أنَّ معناه لا يتضح إلا ضمن التركيب ؛ لأنَّ التقسيم الثلاثي للكلم مبنيَّ على الوظائف التركيبية للمفردات أي وضعها في جمل و في سياق ، وحروف الجر كما هو معروف لكلٍّ منها معنى أصلي تدلُّ عليه معظم التراكيب ، ومعانٍ فرعية أخرى يكتسبها الحرف من ارتباطه بالفعل والاسم المجرور الذي اقترن به في السياق .

١٧ - وتؤدي شبه الجملة: الظرف أو الجار والمجرور وظائف معنوية في الجملة وفي السياق كتحصيص المبدأ النكرة وتعيمه ، وتحديد الزمان أو المكان للحدث ، وتؤثر في ترتيب الكلمات في الجملة من تقديم وتأخير وفصل بين الأجزاء المتلازمة في الجملة ، والاتساع في استخدام القاعدة النحوية ، وتنوع دلالات الفعل ، وتعديلته وتفوبيه عامل ضعيف ، وإيصال معناه إلى الاسم المجرور بعده ، ونبيتها عن الفعل عند قوعها بمنزلة جملة الصلة ، ونبيتها عن الفاعل ، وتأتي قرينة دالة على إعراب الكلمات التي تأتي بعدها أحياناً ، وقرينة دالة على حذف الفعل أو المعرف أو المضاف ، كما يؤثر حرف الجر في رسم بعض الكلمات عند اتصاله بما الاستفهامية ، ويأتي حرف الجر قرينة دالة على اسمية (كيف) نحو: على كيف تبيع الأحمر؟ أي الخمر واللحم .

**المصادر والمراجع:**

- الأصول في النحو، لابن السراج، تحقيق د. عبد الحسين الفطلي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- اعراب الجمل وأشباه الجمل، د. فخر الدين قباوة دار الآفاق الجديدة - الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري، القاهرة ١٩٦١ م.
- التفسير الكبير المسمى بالبحر الخيط، لأبي حيان الأندلسى، مكتبة ومطبوع النصر الحديثة، الرياض المملكة العربية السعودية .
- الدر اللوامع، للشنقيطي - مطبعة كردستان ١٣٢٨ هـ .
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر بيروت ١٩٧٤ م .
- ديوان ليلي الأخيلية، جمع وتحقيق خليل العطية، وجليل العطية، دار الجمهورية بغداد، ط٢، ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م.
- ديوان مجذون ليلي، تحقيق وشرح الدكتور عبد الستار أحمد فراج - مكتبة مصر - دون تاريخ .
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق الدكتور حسن هنداوى، ط١، ودار القلم، دمشق ١٩٨٥ م.
- شبة الجملة - دراسة تركيبية تحليلية مع التطبيق على القرآن الكريم، دكتوره سوزان محمد فؤاد فهمي .
- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ٢٠٠٣ م .
- شبة الجملة في العربية والاتساع فيه . رسالة ماجستير قدمها محمد عامر الدبورى إلى جامعة دمشق عام ٢٠٠٧ م بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم العبد الله .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل محمد محبي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- شرح اختيارات المفضل، للخطيب التبريزى تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، نشره أحمد أمين، وعبد السلام هارون ط٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

- \_ شرح الرضي على الكافية، من عمل يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس - ليبيا - بلا تاريخ .
- \_ شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، رضي الدين الأسترابادي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩ م
- \_ شرح المفصل، لوفق الدين بن يعيش - عالم الكتب بيروت . مكتبة المتنبي - القاهرة . (بلا طبعة ولا تاريخ).
- \_ ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م ، القاهرة .
- \_ قضايا اللزوم والتعدى في النحو والصرف والدلالة الدكتور محمود الحسن - الهيئة للطباعة والنشر ، دمشق ط ١، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .
- \_ الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، القاهرة - ١٩٣٧ م .
- \_ كتاب سيبويه ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجميل بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- \_ المدخل إلى دراسة النحو العربي ، للدكتور على أبو المكارم ، الطبعة الأولى - دار الوفاء .
- \_ المسائل البصرية ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق ودراسة الدكتور محمد الشاطر ، مطبعة المدنى ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- \_ المسائل العسكرية ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق إسماعيل عمایره ، مراجعة الدكتور نهاد الموسى ، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٨١ م .
- \_ مغني اللبيب عن كتب الأغاريб ، لابن هشام الأنباري ، حققه وعلّق عليه الدكتور مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، راجعه سعيد الأفغاني ، دار الفكر ط ٢ - ١٩٦٩ م .
- \_ المقتصب ، لأبي العباس المبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب بيروت .
- \_ المنهل الصافي في شرح الواقي ، لبدر الدين الدماميني (مخطوط) حققه رمضان الحبس ، وسندس خنصر ، ومحمد الكلوت ، بثلاث رسائل ماجستير بإشراف الدكتور سعد محمد الكردي قدّمت إلى كلية الآداب في جامعة البعث في عامي ٢٠١٠ - ٢٠١٢ م .
- \_ النحو العربي والدرس الحديث ، د. عبده الراجي بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٩ م .
- \_ النحو الواقي ، عباس حسن ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .
- \_ همع الهوامع في شرح جمع الجواamus ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية الكويت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

# تأويل النص الأدبي عند أبي العلاء المعربي (تأويل الشعر)

\* أ.م. د. عبد الكريم محمد حسين

عنوان الدراسة-(تأويل النص الأدبي عند أبي العلاء المعربي)-  
اللغة وفضاء التأويل)- مبني على ثلاثة أركان هي: النص واللغة  
والتأويل، والمقصود بالنص مواقف أبي العلاء التي حملتها  
نصوص شعره أو نثره، وحدود النص الإفادية(الصري أو الكبير)  
من غير تعلق بمقدار يقيد حد النص، فيجعل ما دونه ليس نصاً،

ولو أفاد بعضاً من المعاني، وما فوقه ليس نصاً، ولو كثرت فوائد، وتوحدت مقاصده،  
والنص ثلاثة أنواع هي النص الشعري والنص الشري والنص العلمي. ووضع صفة  
الأدبي يخرج النص العلمي. والدراسة في هذا الطور موقوفة على النص الشعري  
لدى أبي العلاء: نصه الذي يبدعه، ونص غيره من جهة تأويله وفضاء لغته.

والمراد باللغة أبي العلاء نفسه في نصه، وهي لغة العرب، ومحور الرؤبة في  
النظر إلى اللغة عند أبي العلاء مبناه يقوم على قلق أبي العلاء من ثبات اللفظ  
العربي(الأصوات) وتغير المعاني (الأفكار) وحدود الانفعالات(العاطفة والبيجان وما  
بين الانفعالين المذكورين، من هواجس النفس الإنسانية) من غير أن تحدث الحياة  
أثراها في اللغة؛ لأن اللغة مرآة حياة المجتمع تركد برకوده، وتبطئ ببطئه، وتحتجد  
باجتهاد..

\* عضو هيئة التدريس في قسم اللغة العربية - جامعة دمشق.

والمقصود بالتأويل المآل أو مصير الواقع والمعاني العقلية والنفسية والأفكار في نص أبي العلاء نفسه، وكيف آلت حياته إلى نصوص في شعره ونشره، ثم تحولت هذه النصوص مادة للدرس تولد منها نصوص أخرى، من غير غفلة عن فروق معنى النص عند القدماء والمعاصرين؛ ولا غفلة عن معنى التأويل النابع من علوم القرآن والحديث والفقه البكمانية في عقل المعري، لكن الإشارة هنا تبرز الفروق في المفاهيم اقتضاء لطبيعة نصوص أبي العلاء وطريقه في تناول نص الحياة (الحياة والصامتة والمواقوف النابتة أو لسان الحال بالإيماء إلى المبدعين) ونص القرآن ونص الحديث ونص الشعر ونص الأمثال.. ذلك كله جعل رؤية البحث تصرف من المفهوم العام إلى مفهوم خاص بأبي العلاء نفسه لكل ما تقدم.

### مفهوم الشعر:

مفهوم الشعر لدى المعري نابت من محیطه العلمي، فقد استقر مفهوم الشعر في القرن الثالث وبداية الرابع على قول قدامة بن جعفر (٢٦٠ - ٣٢٧هـ): ((إنه قول موزون مففي يدل على معنى))<sup>(١)</sup> وجاء أبو العلاء المعري (٢٦٢ - ٤٤٩هـ) في القرن الرابع فوجد هذا المفهوم قائماً في مجتمعه، فقال في الشعر: ((الشعر كلام موزون تقبله الغريرة على شرائط: إن بان أو نقص أبانه الحس. وكان أهل العاجلة يتقدرون به إلى الملوك والسدادات))<sup>(٢)</sup>

فقوله: "تقبله الغريرة" عرض على الطبع العام الناشئ بتكونين العرب الذوق الأدبي لدى أبنائهم بالتربيبة على حفظ الأشعار وقتل قيمها، والخاص بذوق أبي العلاء المتضرع من تربيته وعاهته ورغبته في التفرد؛ مما يسموه به على عموم متذوقى الشعر في زمانه في ضوء ما تلقاه وما أضفاه على التجارب التي تناولها من عرضٍ ينوي به الوفاق أو الخلاف. فلا بد من قصد مشترك يعود إلى أثر المحيط الاجتماعي، ولا بد من أثر مختلف يعود إلى فردانية المعري وبصماته أو ذوقه الخاص به.

وقوله: "على شرائط" يضمّر موافقة أبي العلاء على شروط المتقدمين للشعر على أنه قول (أصوات ومعانٍ مفيدة أو لغة) ومعانٍ (معانٍ جزئية وأخرى كلية وذلك بانتظام الجزئي في سياق الكلي ليتحول إلى

<sup>(١)</sup> نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت - دار الكتب العلمية، [د.ت]: ٦٤

<sup>(٢)</sup> رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، تحقيق: بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، القاهرة - دار المعارف بمصر، ذخائر العرب: ٤، ط٩، ٢٥١: ١٩٩٣م، وانظر معالجته في: التفسير الاجتماعي للشعر عند أبي العلاء المعري، د. عبد الكريم محمد حسين دمشق - اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م: ٢٦

فكرة) وزن (موسيقى) وقافية (إيقاع) والدراسة لا تلتفت إلى تأويل الموسيقى أو الإيقاع بل تلتفت إلى اللغة والفكر؛ لأن الفكرة محمولة باللغة ومتولدة منها، واللغة مصباح يضيء نفس المتكلم وتكتشف عن عالمه الداخلي للمتكلمي، فهي الفصل المشترك بين المبدع والمتكلمي على حசيرة النص اللغوي. ولو زال النص لزال كل منها.

وقوله: "وكان أهل العاجلة يتقررون به إلى الملوك والسدادات" إشارة إلى فن المدح، وهو فن ذو جانب اجتماعي يصور العلاقة بين الشعراً والسدادات من ذوي السلطان والجاه واليسار، مما يومئ إلى التكلف القابع وراء هذا الفن مما تدركه غريرة المتكلمي عندما يعرض عليها الشعر.  
فهذا موقف المعري من مفهوم الشعر، فما مفهوم النص؟ وما تأويله؟

### النص وتأويله:

لا ريب في أن مفهوم النص عند المعاصرين<sup>(١)</sup> مختلف عن مفهومه عند القدماء<sup>(٢)</sup>، وحدّه اليوم ليس حداً واحداً متفقاً عليه، لكن المقال أخذ بحدّه القائل: ((النص الأدبي نسيج لغوي يحمل وحدات معنوية تشتبك بشحنات انتفعالية على نحو جمالي))<sup>(٣)</sup> فالنص لغةً ومعنىً واقفعالٌ وجمالٌ وطريقٌ نسج ذلك كله في القوام اللغوي الأدبي على نحو جمالي. فالنص لا حدود له من جهة المساحة والمقدار؛ فرسالة الغفران كلها تعد نصاً واحداً، وإن شئت جعلت النص كامناً في المعاني الكلية التي لا تتم روّية الرسالة إلا بحضورها،

<sup>(١)</sup> انظر مثلاً: بناء النص التراثي - دراسات في الأدب والتراجم، د. فدوى مالطي - دوغلاس، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، وفي النص الشعري العربي، مقارنات منهجية، د. سامي سويدان، بيروت - دار الآداب، ط١، ١٩٨٩م، واستيعاب النصوص وتأليفيها، أندريه - جاك ديшин، ترجمة هيثم لمع، بيروت - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

<sup>(٢)</sup> انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي الزركشي (٦٧٩٤هـ) قام بتحريره الشيخ عبد القادر عبد الله العانبي، الكويت - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط٢، ٤١٢ / ٤٦٣هـ = ١٩٩٢م : ١٤١٢هـ، وما جاء فيه ((وقال أبو الحُسْن في المعتمد قال الشافعِيُّ في حَدَّ النَّصِّ إِنَّهُ خَطَابٌ يَعْلَمُ مَا أُرِيدَ بِهِ مِنَ الْحُكْمِ سَوَاءً كَانَ مُسْتَقْلًا بِنَصْبِهِ أَوْ عُلِمَ الْمُرْادُ بِهِ بِتَبْيَّنٍ، وَلَا يُسْمَى بِالْمَجْمُلِ نَصًا، وَبِهِنِّهِ حَدَّهُ الْكَرْخِيُّ، وَذَكَرَ عَبْدُ الْجَبَارَ أَنَّ النَّصَّ هُوَ خَطَابٌ يُمْكِنُ أَنْ يَعْرَفَ الْمُرْادُ بِهِ وَشَرْوَطُهُ ثَلَاثَةٌ: أَنْ يَنْكُونَ لِنَظَرٍ وَأَنْ لَا يَتَبَارَأَ إِلَى مَا هُوَ نَصٌّ فِيهِ وَأَنْ كَانَ نَصًا فِي عِيْنٍ وَاحِدَةٍ وَجَبَ أَنْ لَا يَتَبَارَأَ إِلَى مَا سَوَاهَا وَإِنْ كَانَ نَصًا فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَجَبَ أَنْ لَا يَتَبَارَأَ إِلَى مَا سَوَاهَا وَالثَّالِثُ أَنْ لَا يَتَكَبَّرَ إِلَيْهِ لَمَّا يَبْيَدُهُ ظَاهِرُهُ غَيْرُ مُحْتَمِلٍ وَقَالَ الأَسْتَاذُ أَبُو منصور النص في عرف أهل اللغة اللقط الذي لا يمكن تحضيشه كقولك أعطي زيداً أو خذ من عمرو وأقبل أنت وتحوه وبنه قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بردة ولأن تجزي عن أحدٍ بعده وأصله الظاهر)).

<sup>(٣)</sup> الناقد والمفكّر عبد الحكيم الأشتري، مجموعة من الباحثين، دمشق اتحاد الكتاب العرب - سلسلة أدباء مكرمون (٢٧) ٢٠٠٦م : ١٣

وهي إطاراتها الفنية أو سبب إيجادها مما يجعل (رسالة ابن القارح) جزءاً من رسالة الغفران؛ فهما معاً بربطة السبب والتبيّن يؤلفان نصاً واحداً.

وهذا مصدر الشك في صحة نسبة الرسالة إلى ابن القارح، إنما إسنادها من باب إيهام النسبة، كتبية الكلام إلى الأشياء، أو كلام الناس في الجنة أو النار لدى أبي العلاء، له أصل دنيوي لكنه لم يكن له وجود في الجنة أو النار على جهة اليقين الدنيوية بل هي صفة من صفات الخيال والتخيّل عنده تبدأ بالعلم وتنتهي بعوالم لا معرفة للناس بها إلا من جهة الإخبار عن عوالم الغيب لكن ما أجراه المعري فيها بتحديد الشخصيات والبيئات والكيفيات فلا سند له.

وانتساب الرسالة إلى ابن القارح منشؤه موجبات فن الحكاية والقص المبني على الحوار، لإيهام الواقعية باقتراب عالم المثل الفني من عالم الحقيقة الواقعية، مما يقربها من المقبول لإرساء مقاصدها في العقل والنفس معاً متعة وإقناعاً، كما أن مصدر تكوين الرسالة عموم بعض الآيات كما سيأتي.

وححدود النص الإفادة الجزئية أو الكلية الرابطة بين حد المعنى والدلالة والفكرة، على اشتباكِ وارتباطِ علاقات شتى تكشفُ النصُّ عنها، فما نصُّ أبي العلاء؟ وما النصوص التي احتواها نصُّ أبي العلاء؟ وما الذي تقوض من النصوص التي دخلت في نصه؟ وماذا ربح نصُّ أبي العلاء من استحضارها؟ وماذا خسر ببنائها؟!!

### **نصُّ أبي العلاء تأويل من نصوص القدماء:**

النصُّ الشعري والثوري لأبي العلاء يقف على تل من نصوص القدماء، فيرتحل من شعرهم إلى شعره، كما يرتحل الشر من شرهم إلى شعره... فمن ذلك أن شعره ينادي أشعار غيره.

### **الشعر ينادي الشعر:**

أبيات أبي العلاء الشعرية تناولت أشعار الشعراة، لتعلقَ بها لفظاً أو معنى أو لفظاً ومعنى معاً، بأجزاءٍ طولٍ أو تقصر، لكنه لا يعرضها عرض الوفاق إلا وهو ينوي بها الخلاف في ظاهر الصورة أو عمقها، ويرصد مواطن التوتر في الحياة، وطرائق الشعراة في التعبير عنها، وطريقته في مخالفتهم خلافاً لا يفسد للود قضية، من ذلك أن له أبياتاً، ذكر فيها أم جنبد، مومناً بها إلى تلك الحكاية التي جرت بين امرئ القيس زوجها، وعلقمة الفحل الذي خلفه عليها بعد أن قدمت شعره على شعر امرئ القيس، فأوّلماً إلى عرض امرئ القيس على صاحبه أن يعرجا به على أم جنبد فقال<sup>(١)</sup>:

(١) لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري، شرح نديم عدي، دمشق -دار طлас [اد.ت]: ٢٢٢/١

وَمَا تَمْنَعُ الْخَوَدَ الْحَصَانَ حُصُونُهَا  
وَلَوْ أَنَّ أَبْرَاجَ السَّمَاءِ بُرُوجُهَا  
فَمَا عَرَجَتْ فِي شَأْوِهَا أُمْ جَنْدِبٍ  
وَلَا عَقَّلَتْهَا شَأْوِهَا وَعُرُوجُهَا

وهو بهذا الشعر يناقش امرأ القيس حيث يقول<sup>(١)</sup>:

خَلِيلِيٌّ مُرَابِي عَلَى أُمْ جَنْدِبٍ نُقْضٌ لِبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذِّبِ  
فَإِنَّكُمْ مَا إِنْ تَنْظِيرًا يَسِّي سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعُنِي لَدِي أُمْ جَنْدِبٍ

فأبو العلاء يرى أن زواج النساء قدر لهن لا محالة سيدركهن، ولو كان في بروج مشيدة، وهو بذلك يجعل الزواج كالموت لا مفر منه، متكئاً في قوله على منطق الآية: **﴿فَإِنَّمَا تَكُونُوا يَدِرِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾**<sup>(٢)</sup> والزواج موت حياة البنوة في حياة ونشورها في حياة الزوجة أو الأم لتابع رسالة أنها مع زوجها كما يتبع الزوج حياة أبيه، والزواج قدر مكتوب في العقل الاجتماعي العربي بدلاً من الإنسان فيه ضعيفة. ولا يخفى أن أبو العلاء تحدث عن النساء والزواج، وجاء بآية من سورة النساء معنى، وجعل لها غرضاً مختلفاً، لكنه خرج إلى التسوية بين الزواج والموت خفية، والفرح والحزن مما يؤكّد استواء الأمرين في المال عنده.

ويرى أن امرأ القيس كان محروماً من أم جندب، وكان محتاجاً إلى إيقاف صاحبيه ليقضي منها وطراً، وهي زوجه، ويرى أن هذه الساعة قد تفعّل في اكتساب عطفها، وهي إلى جواره تسمع وترى، وقد ذكر امرأ القيس كيتها (أم جندب) مررتين في مطلع القصيدة تزلفاً، وتحبباً، وطلبان للصفح عن تقصيره بمحقها، متعللاً بشدة حاجته القلبية إليها، وسياق الخبر عند الأصمسي<sup>(٣)</sup> يشير إلى أن ليلة أم جندب الفائنة كانت مخفقة، وقراءة قصيدة علقة التي ألقاها في حضرة امرأ القيس<sup>(٤)</sup>:

ذَهَبَتِ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي غَيْرِ مَذْهِبٍ وَلَمْ يَكُنْ حَقَّاً كُلُّ هَذَا التَّجَنْبُ  
لِيَالِيٍّ لَا تَبَلِّى نَصِيحَةَ يَيْنَنَا لِيَالِيٍّ حَلَّوْا بِالسُّتُّارِ فَغَرَبَ

تجعل تزلف امرأ القيس يعبر عن استشعاره بخطر ميلها إلى علقة، لما ألقته قصيدة علقة من إشعار علاقة قديمة بينه وبين أم جندب، وكان حكمها لقصيدة علقة ميلاً في هوئ النفس، وليس عدلاً من جهة

<sup>(١)</sup> ديوان امرأ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - دار المعارف بمصر، ط٤ ، ١٩٨٤ م: ٤١

<sup>(٢)</sup> سورة النساء: ٧٨

<sup>(٣)</sup> انظر الخبر في: ديوان امرأ القيس : ٤٠

<sup>(٤)</sup> ديوان علقة الفحل، بشرح أبي الحجاج يوسف بن سليمانالمعروف بالأعلم الشتمري، حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب، وراجحة د. فخر الدين قباوة، دار الكتاب العربي بحلب، ط١، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩ م: ٧٩

العلم والعقل؛ ذلك أن الفن الشعري الذي تفوق فيه أمرؤ القيس على شعراء طبقته هو فن الصيد والطرد، لقولهم: ((كفاك من الشعراً أربعة: امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب))<sup>(١)</sup>

وجاء أبو العلاء ليبدىء الصورة من جهتها الخلفية، فامرؤ القيس حاول أن يجعل لنفسه محطة عند ألم جندب لكن ألم جندب لم تخرج عليه، وقد أراد التعرج عليها، ولم يربطها به أمر زواجها، ولم يعقلها حبل الزواج من الرقي إلى علقة، وما كان ينبغي لها عرفاً (والعرف نبع العقل ومادته عند البدو، ووتد التقاليد) ولا قدرأ مكتوباً عليها أن تستمر علاقتها الزوجية بامرئ القيس. فقد أشار بشعره هذا إلى الخبر، وجعل الرؤبة تصرف عمما صوره امرؤ القيس من حاله إلى حال المرأة التي كانت موضوعاً في مطلع قصيدة امرئ القيس هامشياً من خلال الأبيات الأولى، وكانت مادة مركبة للغزل والذكرى وعتاب النفس في أبيات علقة. وهو بهذا يؤول كلام الرجلين الشعري بنص شعري يكشف عن الجهة المسكوت عنها من تجربة امرئ القيس.

وقام أبو العلاء يستدعي مشهدأ فنياً عرض له امرؤ القيس في معلقته، فقال<sup>(٢)</sup>:

أَيْنَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْعَذَارِي  
إِذْ مَالَ مِنْ تَحْتِهِ الْغَبَطُ  
لَهُ كُمِيَّتَانِ: ذَاتُ كَأسٍ  
تُزِيدُ وَالسَّابِحُ الرَّبِطُ  
يُبَكِّرُ الصَّدِيدَ بِالْمَذَاكِي  
فَيَائِسُ الْمُسَوِّحِشُ الْبَيْطُ  
اسْتَبَطَ الْعُرْبُ فِي الْمَوَامِي  
بَعْدَكَ وَاسْتَعْرَبَ النَّبِيطُ

فهو يستدعي بقوله: (أين امرؤ القيس والعذاري؟) من قول امرئ القيس الآية<sup>(٣)</sup>:

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارِي مَطِيقِي  
فِيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا الْمَتَحَمِلِ  
يَظَلُّ الْعَذَارِي يَرْتَمِي بِلَحْمِهَا  
وَشَحِمَ كَهْدَابِ الدِّمَقْسِ الْمُقْتَلِ  
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبَطُ بِنَا معاً  
عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأُ الْقَيْسِ فَانْزَلِ

<sup>(١)</sup> العمدة في محسن الشعر وأدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القبرواني (٣٩٠ - ٤٥٦هـ). تحقيق: محمد قرقزان، بيروت - دار المعرفة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٢٠٤/١

<sup>(٢)</sup> لزوم ما لا يلزم: ٩٨٤/٢

<sup>(٣)</sup> ديوان امرئ القيس: ١١

**كُمِيتَ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتَّيْهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُتَّرْزِلِ**

واضح أن أبا العلاء أشار بقوله: (أين امرؤ القيس والعذاري) إلى مشهد امرئ القيس والعذاري وقد عقر ناقته لهن<sup>(١)</sup>، وهي ناقه أمير مكتنزه، فسؤله استدعاء للشعر، وافتقاد للحرية، وللحياة العربية الأصيلة، وصدق التعبير عنها في شعر امرئ القيس، صار مفقوداً في أيامه.

ويتخير لوحدة من المشهد عندما كان امرؤ القيس رديفًّا عنزة ابنة عمه على بعيرها، فقال: (إذ مالَ من تحته الغبيط) استدعاء لقول امرئ القيس:

تَقُولُّ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيْطُ بِنَا مَعًا  
عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزَلِ  
فَقَلَّتْ لَهَا سَيْرِيْ وَأَرْخَيِ زَمَامِهِ  
وَلَا تُبْعِدِنِي مِنْ جَنَانِ الْمَعْلِلِ

واختيار ميل الهدوج إشارة إلى قلق الموقف الحسي في امتناع الدابة، والاجتماعي في خوفها من الفضيحة، وترك بقية المشهد؛ لأنّه يشير إلى تحلل امرئ القيس من العرف الاجتماعي، ورغبته بالالتصاق بها، ولعله لهذا عقر بعيره<sup>(٢)</sup>، وبما شارته إلى ميل الغبيط كفاية تغفي عن إعادة قول امرئ القيس نفسه، والمهم اختياره لحظة الخوف والقلق الكامنة تحت الغبيط وتحت عنزة وقد تقفاها امرؤ القيس. وأشار إلى مشهد آخر بقوله:

**يُاكُرُ الصَّيْدَ بِالْمَذَاكِيِّ فَيَائِسُ الْمُوْجِشُ الْهَبِيْطُ**

ففيه استحضار لمشهد الصيد في المعلقة، إذ يقول<sup>(٣)</sup>:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالْطَّيْرُ فِي وَكُنَّاتِهَا  
يُمْنَجِرِدُ قِيدَ الْأَوَابِدِ هِيَكِلٌ  
مِكَرُّ مِقْرَرٌ مُقْبَلٌ مُذْبِرٌ مَعَا  
كَجَلَمُودٍ صَخْرَ حَطَّةُ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ  
**كُمِيتَ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتَّيْهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُتَّرْزِلِ**

<sup>(١)</sup> انظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، بيروت - دار إحياء التراث العربي [دت]: ٢٤٠ / ٢١ - ٢٤٣ -

<sup>(٢)</sup> انظر تفاصيل الحكاية: الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة - دار الحديث، ط٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م: ١ / ١٢٣ - ١٢٤ -

<sup>(٣)</sup> ديوان امرئ القيس: ١٩

والكميَّتانِ: كأس الخمرة والساجح المربوط بباب خيمته للصيد أو الحرب. أما الخمرة فمشتقة من مخون أمرئ القيس ولهوه؛ بآية قوله عند تلقيه خبر موت أخيه: ((اليوم خمر وغداً أمر))<sup>(١)</sup> ولا بد أن الخمرة من المسكون عنه في مشهد عقر المطية. وأما الساجح فالحصان لسرعته، وتواتر حركته مما يجعل راكبه متزناً على ظهره مطمئناً في سيره، خالياً طريقه مما يعثر به الحصان.

وقوله: (بياكر الصيد...). ففيه مناداة لقول امرئ القيس: (وقد أغثدي والطير في وكاتتها... قيد الأولاد هيكل) فيأنس الموحش من الأولاد (المتوحشة في الأودية البعيدة) بصوته، فكأنه يطربها بشيء وقصيده، مما يغفل إسهام الحصان في الإحاطة بها، وأهل القنيص من البدو ينشدون للطير؛ ليأنس القنيص بهم؛ لعلهم أن الطير يأنس بالصوت الجميل، ويتأثر في موضعه ليعرف الجهة التي يأتيه منها الصوت، فيرمي، فيصاب. وهي جهة تجديد لأبي العلاء، ينتقد بها الصياديَّن الذين يحبسون أنفاسهم، وهم يرمون الطير بسهامهم. وكأنه يريد التشكيك بصحة معنى بيت (وقد أغثدي... قيد الأولاد هيكل) إلى امرئ القيس؛ لأنَّه دال على الجهل بطبيعة الحيوان الم الوحش، ومراسيم الصيد عند البدو من غير المتحضرين تحضر امرئ القيس.. ولعله تخbir لفظ (بياكر) ليس على جهة التراوُف لفعل (أغثدي) لأن المباكرة تكون أول النهار أو التبكيـر، والغدو وقته مندوء إلى الضحى، وهو نقد لنوي غير مباشر، فلفظ (بياكر) أدق في التعبير عن مقصد امرئ القيس.

ومن مناداة الشعر للشعر قول أبي العلاء<sup>(٢)</sup>:

وَقَدْ كَذَّبُوا حَتَّىٰ عَلَى الشَّمْسِ أَنْهَا  
تَهَانُ إِذَا حَضَرَ الشَّرَوْقُ وَتَضَرَّبُ

ففيه استحضار قول أمية بن أبي الصلت<sup>(٣)</sup>:

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ أَخْرِ لَيْلَةٍ  
حَمَرَاءٌ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرُّدُ  
لِيَسْتَ بِطَالِعَةٍ لَهُمْ فِي رِسْلِهَا  
إِلَّا مُدَبَّرَةٌ وَلَا تُجَادِلُ

ومراد أمية بن أبي الصلت أن الشمس لا تطلع كل يوم إلا كرهاً؛ لأنها تنفذ أمر باريها، ووجه الكذب الذي ذهب إليه أبو العلاء يتضح في ظل الآية القرآنية: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا اللَّيْلُ

<sup>(١)</sup> الأغانى: ٨٨/٩

<sup>(٢)</sup> لزوم ما لا يلزم: ٩١/١

<sup>(٣)</sup> ديوان أمية بن أبي الصلت، صنعة د. عبد الحفيظ السطلي؛ دمشق - المطبعة التعاونية، ١٩٧٤م: ٣٦٦

**سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكِ يَسْجُونُ** <sup>(١)</sup> فلا جلد ولا ضرب، لا للشمس، ولا للقمر، وإنما يسير كل منهما في فلكه طاعة لนามوس الله في الوجود. فحَكَمَ بكتاب أمية، وكان غرضه مختلفاً عن غرض أبي العلاء، فقد كان أمية يريد موافقة عوام أهل الكتاب في زمانه، والوحى بخلاف ذلك كما تبين. فهو وأشار إلى كلام أمية فأوجز بيته في بيت واحد، وطعن في صحة رأيه أو مقولته. فأبُو العلاء المعري يقول أبعاضاً من القصائد يبدي فهمه للشعر والموقف في ضوء عقله بمحجة اجتماعية أو دينية متقدمة على المجتمع وفهم الشاعر الذي يقول نصه الشعري بنص شعري جديد على قاعدة إفساد جزء من موقف المتقدم أو إصلاح جزء آخر بما كان ينبغي أن يقال لا على موافقة ما قيل كله أو بعضه وفقاً لكل حال تناولها المعري من أشعار الشعراء.

#### تأويل الشعر بالنشر (حل المظوم):

تأويل الشعر يعني رده إلى أصوله أو مراجعه التي اغترف الشاعر معاني شعره منها؛ وقد تعددت تلك المصادر وتتنوعت تنوعاً واسعاً، وتدخلت في شعره، وافتقرت في صياغتها، وافتقر إلى الكشف عن تلك المصادر؛ لأنَّه عَرَضَ معانِي المتقدمين على نحو يثير الشبهات، ويخلق التوتر بطريقة عرض تلك المعاني المستقرة؛ لطول ألفة الناس لها، وكان كتاب زجر النابح مليئاً بهذه الأشعار وتأويلها، فمن ذلك قول أبي العلاء المعري <sup>(٢)</sup> شاعراً ومتاؤلاً:

أَيْرَجُونَ أَنْ أَعُودَ إِلَيْهِمْ لَا تُرْجِعُوا فِي إِنِّي لَا أَعُودُ  
وَلِجِسْمِي إِلَى السَّرَابِ هُبُوتٌ وَلِرُوحِي إِلَى السَّمَاءِ صَمَعُودٌ

وقال أبو العلاء في الرد على من اعترض عليه في البيت الثاني :

((هذا كلام مستنبط من الكتاب والخبر. فاما الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُلَا إِذَا بَلَغْتِ التَّرَاقِيِّ، وَقِيلَ: مَنْ رَاقِ﴾ <sup>(٣)</sup> يرقى بروح هذا المقبول؟ وقد جاء في الخبر أن أرواح المؤمنين وغيرهم تعرض على الملائكة، فما كان منها طيباً أُمِرَّ به إلى الجنة، وما كان منها خبيثاً رد إلى الأرض، أو جُعِلَ في الماوية.

وقد جاء في حديث المراجع أن النبي ﷺ لما عرج به رأى آدم <sup>ﷺ</sup> في بعض السموات، وأرواح ولده تعرض عليه، والمعنى بذلك أرواح من يقبض منهم. فإذا جاءته روح المؤمن استبشر، وقال: روح طيبة

<sup>(١)</sup> سورة يس: ٤٠

<sup>(٢)</sup> لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري: ٤٥٦ / ١

<sup>(٣)</sup> سورة القيمة: ٢٦ - ٢٧

خرجت من جسد طيب . وإذا عرضت عليه روح الكافر أعرض ، و بانت فيه الكراهة ، وقال روح خبيثة  
خرجت من جسد خبيث . ومثل هذا كثير )<sup>(١)</sup>

تحدث المعري عن البيت الثاني ومن اعترض عليه : لأنه رد الشبهة القائمة في البيت الأول بشاهد آخر سبق ، فقال في رده : (هذا كلام محمول على إرادة مستنى ، كأنه لا يعود إلا إذا شاء الله ، أو لا يعود إلى الدنيا...أو لا يرجعون إلا يوم القيمة...) )<sup>(٢)</sup> وحمل البيت الأول على النظير أولى من حمله على ما لا نظير له . وأما البيت الأول فقد أوحى بفكرة انتقاء الروح في الدنيا لتحول الجسد إلى تراب ، وصعود الروح إلى خالقها ، فقد استمد فكرة ارتقاء الروح من القرآن الكريم برد المذوف من السؤال (وقيل : من راق ) أي يرقى بهذه الروح ؟ فاستبطن أن الأرواح تصعد إلى الأعلى بدليل القرآن . وأما فكرة عودة الأجساد وارتقاء الأرواح ، فقد أومأ إليها إلى الحديث الوارد :

((عن أبي هريرة ، قال : إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها . قال حماد : فذكر من طيب ربها وذكر المسك - قال : ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريته ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد وذكر من نتها ، وذكر لعنًا - ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة : فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ربطه كانت عليه ، على أنفه ، هكذا )) )<sup>(٣)</sup> فالآرواح الطيبة والخبيثة في السماء ترتفع للأجل للرحمة والحساب .

وذكر رواية أخرى تجعل الأرواح تعرض على أبي البشر آدم الكتاب ، وتقول الرواية في سياق حديث المراج : ((فاستفتح جبريل قال : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن ملكك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه ؛ ففتح لنا ، فإذا أنا بأدَم كهيته يوم خلق قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ، فرحب ، ودعالي بخير ، فإذا الأرواح تعرض عليه ، فإذا مر به روح المؤمن ، قال : روح طيبة ، وريح طيبة . وإذا مر عليه روح كافر ، قال : روح خبيثة ، وريح خبيثة )) )<sup>(٤)</sup> فآدم في السماء يستقبل الأرواح ، ويشم

<sup>(١)</sup> زجر النابع ، لأبي العلاء المعري ، جمعه وحققه : د.أحمد الطراibiسي ، دمشق - مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

<sup>(٢)</sup> زجر النابع : ٤٤

<sup>(٣)</sup> صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري البصيوري ، الرياض - دار السلام ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م : ٧٢٢١ ، ح : ١٢٤٤

<sup>(٤)</sup> جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق أحمد شاكر ، بيروت - مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م : ٣٤٥ / ١٧

روائحها، ويعرف أعمالها ومصيرها من ريحها طيباً أو خبثاً. فهذا الشعر نظم آية وإجمال حديث، وتحريض عقل على التفكير. فالحديث النبوى تأول شعراً من كلام أبي العلاء، فلما أصابه غموض الشعر بضيق أدبيته احتاج الشعر إلى رده على مرجعه من الحديث والقرآن، ليأتي المعنى واضحاً بعد ما أصابه من غموض. فالمعرى ينطلق في ترشيح معانى الإلحاد من بعض آيات القرآن، ويدع الجواب بعيداً من الإثارة والإشارة ليخاطب الإنسان في شكه وعقله، وبجعل المسكوت عنه من النص المقدس (القرآن وكلام الرسول) وراء شعره فلما لم يستطع بعض الملتقطين في زمن المعرى نفسه اكتشاف المخبأ، وراء النص اضطر أبو العلاء إلى كشف المستور، وإظهار مراده على نحو لا يفصح عن حقيقة موقفه، فقال: إن الآية تتقول والحديث يقول، ولم يبرز رأياً صريحاً فيما نقل، واكتفى باحتمال النص عن التأويل بالخروج من دائرة الشك إلى ربوة اليقين الدينى.

### دفع التعارض بين الشعر والدين:

ما ذهب إليه أبو العلاء المعرى دفع التعارض بين الشعر والدين بتأويل شعر حسان بن ثابت -رضي الله عنه- تحدث فيه حسان عن الخمرة والمرأة، مما يبعد عقلاً أن يكون أنشده في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك قوله في سياق مجلس من مجالس العلم في جنة أبي العلاء النقدية: ((وَيَمْرُ حَسَانُ بنُ ثَابِتٍ)) فيقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن! لا تحدث معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا: أين هذه المشروبة من سبيتك التي ذكرتها في قولك<sup>(١)</sup>؟

كَانَ سَبِيلَةً مِنْ "بَيْتِ رَأْسٍ"      يَكُونُ مِزاجَهَا عَسْلٌ وَمَاءٌ  
        عَلَى أَنْسِيَاهَا أَوْ طَعْمَ غَضْنٍ      مِنَ الْسَّفَاحِ هَصْرَهُ اجْتَنَاءٌ  
        عَلَى فِيهَا إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ      كَوَاكِبُهُ وَمَالَ بَهَا الْفَطَاءُ  
        إِذَا مَا الأَشْرِيَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا      فَهُنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الفَدَاءُ

ويحكي! ما استحببت أن تذكر مثل هذا في مدخلتك رسول الله -صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: إنه كان أنسجَ خلقاً مما تظنون، ولم أقل إلا خيراً؛ لم أذكر أني شربت خمراً، ولا ركبت مما حظرَ أمراً، وإنما وصفت ريقَ امرأة، يجوز أن يكون حلالاً، ويمكن أن أقوله على الظن).<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> ديوان حسان بن ثابت، حققه وعلق عليه: دوبلد عرفات، بيروت -دار صادر، ١٩٧٤ م: ١٧٧.

<sup>(٢)</sup> رسالة الفرقان: ٢٢٦

تخير أبو العلاء أربعة أبيات من القصيدة، وعرضها على حسان، وترك حسان محيب عن الشبهات التي أثيرت حولها، فكان السؤال يستهجن ذكر الخمرة التي حرمت سنة (٤٤هـ) والمرأة يوم فتح مكة (٢٨٥هـ) فذكر أبو العلاء أن الرسول أكرم خلقاً من العلماء الذين يكرهون ذكر المرأة والخمرة، وجعل مخرجاً بذكر المرأة من جواز أن تكون امرأة يحل لها تذوق ريقها، ويجوز له أن يظن بريقها تلك الطعمة. وزعم أبو العلاء أن حسان بن ثابت لم يقل: إني شربتها. فكان أبو العلاء ينكر معنى البيت الآتي من القصيدة نفسها وفيه قول حسان:

وَتَشْرِبُهَا فَتَرُكُّنَا مَلْوَكًا وَأَسْدًا مَا يَنْهِنُّنَا اللَّقَاءُ

وهو من مشهور شعر حسان وهو فيها. ولو قال في التأويل: الأصل على إضمار الفعل (كنا) قبل الواو، ولا يزيد أنه يشربها بعد تحريرها، لوجد مساغاً من القول، ولو قال: إن الشعراء يقولون ما لا يفعلون لكان له ذلك. ولو كان صوفياً لقال: استعار نشوة الخمرة للنصر، ولذلة المرأة للظفر لكان لقوله وجه معقول أو مقبول. ولو قال: إن الإسلام لا يغلق باباً من أبواب القول على شراء الدعوة لكان في ذلك وجه للقبول والجدل.

الهم أن أبي العلاء التمس وضع الإجابة على لسان الشاعر، وكان ينطق بلسانه أو لسان حاله وفق رؤية أبي العلاء لأولئك الشعراء الذين كانوا مورداً له لغة وصورة في أحيان كثيرة، ونقداً لآراء المتقدمين يسوقه على ألسنة الشعراء الذين يدفعون عنهم ما قيل بطرق متعددة.

### قصيدة تنادي قصائد متعددة وأقوالاً متنوعة:

لم يعد خافياً أن أبي العلاء يقف على جبال الشعر العربي، ويطل على قصائد الشعراء، و يجعل معاني تلك القصائد في سوء رؤيته، ويقيم تأويلها، وغير توجهها، من ذلك قول أبي العلاء<sup>(١)</sup>:

كَمْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ غَرِيبٍ نَازِلٍ لَا ضَائِقٌ مِنْهُمْ وَلَا قَيْرَاءُ  
أَمَا الَّذِينَ تَدَبَّرُوا فَتَحَمَّلُوا وَتَخَلَّفُتْ بَعْدَ الْقَطْنِينِ دِيَارُ  
سَارَ الزَّمَانُ بِهِمْ إِلَى أَجْدَانِهِمْ وَكَذَا الزَّمَانُ يَاهِلِي وَسَيَارُ  
كُنْ حَيْثُ شِئْتَ إِلْجَاهُ أَوْ رَيْوَةُ

ضرع<sup>(١)</sup> فَإِنْ حَلَّ لَهَا الْفَيَارُ  
فِي الْقَرْنِ طَائِرُ مَسْلِكِ طَيَارُ  
هَذَا الْجَمَامُ لُتْرِهَا مَيَارُ  
طَمَتِ الشُّرُورُ وَقَلَّتِ الْأَخِيَارُ  
وَالْوَحْشُ أَفْضَلُ صَيْدِهَا الْأَعِيَارُ

فَدَأَغْرَسَتْ عَرْبُسُ الْأَمِيرِ بَتَابِعَ  
وَالْدَّهَرُ سَيْدُ الْخَدِيعَةِ ضَيْفَمُ  
وَالْأَرْضُ تَقْسَاتُ الْجَسْوَمُ كَائِنًا  
وَاللَّهُ يَحْمُدُ كُلُّمَا طَالَ الْمَدَى  
لَا حَظْ في الدُّنْيَا لِعَالَمٍ هَمَّةٌ

والآيات تنادي نصوصاً منها ما ينادي النص كله، ومنها ما ينادي جله، ففي البيت الأول صرخ الشاعر بموضوع مناداته، فذكر الشاعر ضابطاً البرجمي وحصانه قياراً، فكان شعره استدعاءً لقصيدة ضابط التي تقول<sup>(٢)</sup>:

فَمَنْ يَكُنْ أَمْسِي بِالْمَدِينَةِ رَحْلَهُ  
فَلَا تَجْزَعْ عَنْ قَيَارٍ مِنْ حَبْسِ لِيلَهُ  
وَمَا عَاجَلَتُ الطَّيْرِ تُدْنِي مِنَ الْفَتَنِ  
وَرَبُّ أَمْوَالٍ لَا تُضِيرُكَ ضَيْرَهُ  
فَلَا خَيْرٌ فِيمَنْ لَا يُوَطَّنُ نَفْسَهُ  
وَفِي الشَّكْ تَفْرِيطٌ وَفِي الْحَزْمِ قَوَّةٌ  
وَلَكُنْتَ يُمْسِكُ صَدِيقًا وَلَا أَخَا

فأبو العلاء يرى الغرباء مطمئنين في المدينة ليس فيهم من يقلق قلق ضابط البرجمي ولا يقلق حصانه قيار فهي مدن مطمئنة مأنوسية بالناس لا يخاف فيها أحد، فهو لا يعتد بدھشة البدوي ضابط البرجمي من اختلاف العادات بين البداية والحاضرة، ولا ينصلت إلى صهيل حصانه محتاجاً على أحواله في الخانات الحضرية، وكان وصاحبها يألفان حياة الحرية في البداية.

<sup>(١)</sup> في لزوم ما لا يلزم: ٦٢٧ / ٢ (ضرع)، ولعله خطأ مطبعي، والكلمة تحتمل تشكيل الراء (ضرع) فيكون قليل اللبن أي الحليب، وفيه كناية عن عجزه الجنسي، فيؤدي ذلك إلى زنا المرأة، ويكسر الراء (ضرع) أي ضعف جبان، لا يستطيع حمايتها، والتتسكين أولى من الفتح والكسر، والله أعلم.

<sup>(٢)</sup> الأصميات، عبد الملك بن قريب الأصممي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، القاهرة - دار المعارف، ط٤، ١٩٧٦ م: ١٨٤

وفي البيت الثاني يشع لفظ (القطين) مستحضرًا قصيدة الأخطل<sup>(١)</sup>:

**خَفَّ الْقَطِينُ فَرَأَهُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَرْجَعَتْهُمْ نَوْىٌ فِي صَرْفِهَا غَيْرُ**

وفي البيت الثالث يارقة ضوء كأنما تنادي قول ابن هانئ الأندلسي<sup>(٢)</sup> (٥٣٦٢ـ):

**قَدْ سَارَ بِي هَذَا الزَّمَانُ فَأَوْجَفَاهَا وَمَحَا مَشِيبِي مِنْ شَبَابِي أَحْرُفًا**

**إِلَّا أَكُنْ بَلَغْتُ بِي السَّنَّ الْمَدِي فَلَقِدْ بَلَغْتُ مِنَ الطَّرِيقِ الْمَسَافَا**

**أَمَا وَقْدَ لَاحَ الصَّبَاحُ بِلَمَّا تِي وَانْجَابَ لَيْلُ عَمَائِي وَتَكَشَّفَا**

**فَلَمَّا نَلَمَّنْ لَهَوْتُ لِلْأُلُونَ تَصْنَعَا وَلَئِنْ صَبَوْتُ لِأَصْبُونَ تَكْلُفَا**

فتركيب (سار الزمان) يلتقي قصيدة ابن هانئ في التأمل العلائي، والشعور بدنو الأجل، والرحيل الأخير، واغتراب المرء في قلق الوجود، وعيث الحياة، كما تلتقي قصيدة أبي العلاء قصيدة ابن هانئ في بعض مقاصدها.

والبيت الرابع صدى قوله تعالى (يدرككم الموت....) وفيها رائحة طوفان نوح ومناجاته ولده في قوله:

**﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾**<sup>(٣)</sup> فكان لفظ (التيار) قرينة تدفق الطوفان الذي يدرك الأمان كلها.

والبيت الخامس والسادس مطوبان على قول علي<sup>(٤)</sup>: ((السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ، أَمَّا نَساؤُكُمْ فَتُنْكِحُنَّ، وَأَمَّا أُمُوْلُكُمْ فَقُسْمَتْ، وَأَمَّا دُورُكُمْ فَقَدْ سُكِّتَ، فَهَذَا خَبْرُكُمْ عِنْدَنَا فَمَا خَبَرْنَا عِنْدَكُمْ؟))<sup>(٥)</sup>

فزوج الملك المغير تزوجها بعده من لا يقوم له.. ومثل هذا التنادي النصي كثير، لكن أبي العلاء لم يدع النصوص تجري مجريها، فخالف أصحابها في توجيهها أو غير جهة رؤيتها، فليست غربة ضائى بغريبة، ولا غربة قياب بغريبة، فمهما تطل غيابه فلا بد من أوابه، بيد أن الغربة الحقيقة هي غربة الوجود المتعقب بالموت، والرحلة التي لا عودة منها إلى المنازل والديار هي رحلة الموت.

<sup>(١)</sup> شعر الأخطل أبي مالك غيث بن غوث التغلبي، صنعة السكري، رواية عن أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، بيروت - منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩ـ هـ ١٩٧٩ـ مـ: ١٩٢١ / ١٩٧٩ـ مـ: ١٣٩٩ـ هـ.

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن هانئ الأندلسي، تحقيق كرم البستانى، بيروت - دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٤ـ هـ - ١٩٦٤ـ مـ: ٢٠٢

<sup>(٣)</sup> سورة هود: ٤٣

<sup>(٤)</sup> الآيات السابتان في عدم سماع الأموات عند الحففة السادات، للعلامة نعمان ابن المفسر الشهير محمود الألوسي، حققه وقدم له وخرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، بيروت ودمشق - المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥ـ هـ: ٥٥

فتلك نصوص حطت رحالها في عقل أبي العلاء وذاكرته، واستقرت إشارات إليها في قصيده، فنادت تلك القصائد معاية إياها، مغيرة توجهاتها إلى المستوى الأعلى من التفكير الكوني، والنظر إلى أن الحياة كلها كانت رحلة الإنسان من التراب إلى التراب، ولا ينبغي له أن يقلق من ارتحاله الأصغر إذا ما تفكّر بارتحاله الأكبر. فالنص مبني على منصوص، وموجه بمخصوص رؤية أبي العلاء وتفكيره.

### الشعر المنحول:

كيف عالج أبو العلاء النص المنحول في رسالة الغفران؟ وهل يمكن إثبات نسبة أبيات إلى شاعر مضى زمانه وانتهى أجل رواته؟ والتساؤلان مشروعان، بيد أن أبي العلاء يذهب إلى أن هناك نصوصاً لا ثبت نسبتها؛ وربما لا يقنع الناس بحجّة أبي العلاء، ولا بد من المودة إلى الشاعر المنحول عليه هذه القصيدة أو تلك، ولما كان صاحب النص قد مات فلا بد من السفر إليه في العالم الآخر، ومخاطبه بسؤاله عن صحة نسبة النص إليه، فإن أذكر ذلك بنفسه، فليس لأحد أن ينسبها إليه بعدئذ، وهذا ما قام به أبو العلاء عندما جعل ابن القارح يتوجه إلى النابغة الجعدي ليثبت موقفه مما نسب إليه بقوله:

((ويقول الشيخ - كتب الله له مثوية المتدين - لنابغة بنى جعدة: يا أبو ليلى ، أنشدنا كلمتك التي على الشين التي تقول فيها<sup>(١)</sup>:

<p>فَبِلَّ أَنْ يَظْهُرَ فِي الْأَرْضِ رَبِّشْ</p> <p>تَسِقُ الْأَكَالَ مِنْ رَطْبٍ وَهَشْ</p> <p>مَسَّهُ طَلْ مِنَ الدَّجْنِ وَرَشْ</p> <p>ضَخْمَهُ الْأَرْدَافِ مِنْ غَيْرِ تَقْشِ</p> <p>وَنَعَامُ خَيْطَهُ مِثْلُ الْحَبَشِ</p> <p>فُوقَ يَعْبُوبَ مِنَ الْخَيْلِ أَجْشِ</p> <p>تَدْرِكُ الْحَبَوبَ مَنَا وَتَعْشِ</p> <p>وَظَلِيمٌ، مَعَهُ أُمُّ خَشَشِ</p> <p>غَيْرُ مَنْوِ وَأَبْسَنَا بَقَشِ</p>	<p>وَلَقَدْ أَغْدُو بِشَرَبِ أَنْفِ</p> <p>مَعَ نَازِقٍ إِلَى سَمَهَهَ</p> <p>فَنَزَلَنَا بِمَلَيْعَ مَقْبِرِ</p> <p>وَلَدَيْنَا قَيْنَةً مُسَمِّعَةً</p> <p>إِذَا نَحْنُ يَاجِلُ<sup>(٢)</sup> نَافِرِ</p> <p>فَحَمَلْنَا مَاهِنَأً يَنْصَفَنَا</p> <p>ثُمَّ قَلَنَا: دُونَكَ الصَّيْدِ بَهِ</p> <p>فَأَتَانَا بِشَبُوبٍ نَاشِطِ</p> <p>فَاشْتَوْنَا مِنْ غَرِيزِ طَبِيبِ</p>
--	--

<sup>(١)</sup> شعر النابغة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رياح، بيروت ودمشق - المكتب الإسلامي، ١٣٨٤ هـ - ٢٤٤ م.

<sup>(٢)</sup> القطيع من بقر الوحش كما في حاشية الديوان

فيقول نابغة بنى جعدة: ما جعلتُ الشَّيْن قَطُّ رُوِيَاً، وفي هذا الشعر الفاظ لم أسمع بها قطُّ: ريشٌ، وسمَّهَا، وخشنٌ. فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم: يا أبا ليلى، لقد طال عهده بالفاظ الفصحاء، وشغلك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابل ولا أذرعات، وثنتك لحوم الطير الرائعة في رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك (إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكثرون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) <sup>(١)</sup> أما ريش، فمن قولهم: أرضٌ ريشاء: إذا ظهرت فيها قطعٌ من الثبات، وكأنها مقلوبة عن بريشاء. وأما السمة فشيئه بالسفرة تأخذ من الخوص. وأما خشش فإن أبا عمرو الشيباني ذكر في كتاب الحاء أن الخشش ولد الظيبة) <sup>(٢)</sup>

قام أبو العلاء بأمررين: أحدهما من جهة توثيق النص ولغته، فهو وحده من نسب القصيدة إلى النابغة الجعدي، ولم ينسبها أحدٌ فيما وصل إليها - إلى النابغة الجعدي، ولم تنسَ إلى غيره من الشعراء بمحدود ما ظهر من كتب التراث وبمحدود وسائل البحث المعاصرة. هذا من جهة الإسناد.

والآخر من جهة الكشف عن أسباب شكه في ألفاظ جاءت في القصيدة، وهي (ريش، وخشن، والسمة) وقد أصاب أبو العلاء في أن ألفاظ (ريش، وخشن، السمة) ليست معروفة لشعراء الجاهلية، ولا للمحضرمين، وهو مصدر قوي للشك.

فأبى العلاء أصاب في شكه، على أن الشك وقع على إسناد يعلمه أبو العلاء، وجهله المصادر والمراجع التي ساندت البحث باستخدام الحاسوب ووسائله فيه، وصح له احتجاجه بانتفاء ما ينقضه. فالنص المحكي لديه كان يعرضه على علم الرواية (دراسة السندي) وعلم الدراية (علم المتن أو النقد الداخلي للنص) فتأويل النص ليس موقوفاً على معرفة سنده، فكان ينبع بنصه الجديد على حقيقة إسناده، وحقيقة لغة مبدعها النسبية إليه، وهذا ضرب من تأويل التحل أو تعليله بعلة خارجية (الإسناد) وعلة داخلية (لغة النص).

### النشر ينادي الشعر:

معلوم أن الشعر مبناه الإيجاز والإيماء والإشارة اقتضاء للوزن والقافية، وأن الشعر باب يضيق على المتكلم مما يجعل استعانته بالنشر والإشارة إليه ببعضه أو مرادفه أو مجاوره أو ما يلازمـه.. أمراً مشروعاً، لكن هل ضاق النثر على أبي العلاء فاستعان النثر بالشعر على نحو تتعكس فيه خطوط الإبداع بارتحال الشعر إلى النثر، وارتحال النثر إلى الشعر؟!! وما استعان فيه النثر بالشعر على جهة التلميح شبه الصرير قول أبي

<sup>(١)</sup> سورة يس: ٥٥ - ٥٧

<sup>(٢)</sup> رسالة الغفران: ٢٠٨

العلاء: ((لَا بَكِ أَوْ لَا أَبَكِ، جُمِعَ تِبْرِ لِسَبِكِ، إِنَّ عَمْرِي كَ(قَفَانِبِكِ) لَا يَخْلُو الْبَيْتُ مِنَ الزَّحَافِ، وَلَا الْيَوْمُ مِنْ اقْتِرَافٍ، إِمَا ظَاهِرٌ، وَإِمَا خَافٌ؛ فَالوَاجِبُ أَنْ أَظَلَّ كَنَاقِفَ الْحَنْظَلِ، أَوْ الْبَاكِي عِنْدَ السَّمَرَاتِ غَايَةً.))<sup>(١)</sup>  
فهذا النص يستدعي مطلع قصيدة امرئ القيس<sup>(٢)</sup>:

قِفَانِبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ  
يُسْقِطُ الْلِّبَوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ  
تَرَى بَعْرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا  
وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلٍ  
كَأَنَّهُ غَدَةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا  
لَدِي سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ

وكلام أبي العلاء ينطوي على أمرتين: أحدهما رؤيته للحياة، والآخر موقفه من الأبيات التي أشار إليها من شعر امرئ القيس. أما رؤيته فإن الأصل في الحياة الزوال والانتفاشي يوماً بعد يوم فإن شاء أمر نفسه بالبكاء عند جمع التبر للسبك كنابة امتلاك الدنيا وزينتها في الذهب، أو نهاها عن البكاء؛ لأنه لا دوام له في هذه الدنيا إلا للحظة توقيع امرئ القيس للطعائن، وأنه سيكي كنافق الحنظل، وهو يستظل بسمرات الحي أي شجارات السدر، وأن الإنسان يبكي لأمر ظاهر هو الرحيل، واقتراض إثم اجتماعي يخفى عن العيون، فكانه يبكي نفسه حين يبكي صحبه أو من فارقه.

وأما دراسة أبي العلاء لهذا المقطع الشعري فقد التفت إلى وزنه، ورأى ما أصابه من علةعروضية جعلت بعض تفاعيله تصاب بالقبض، والزحاف كما يقول العلماء: ((والزحاف جائز كالاصل، والكسر متعنت. وربما كان الزحاف في اللوق أطيب من الأصل. والزحاف لا يقع إلا في الأسباب..)).<sup>(٣)</sup>

فقوله: (ومنزل) وزنه مفاعلن، وأصله مفاعيلن (اجتماع وتد بمجموع، وسببان خفيفان) فحذف الساكن الأول من السبب الأول، فاجتمع متحركه بمحرك السبب الثاني ، فتحول الوزن إلى (مفاعلن) فصارت التفعيلة – إذا تنوسي الأصل – مؤلفة من وتددين بمجموعين، وكانت الموافقة بين العروض والضرب تصريعاً لموافقة التفعيلتين في الوزن وبعض الأصوات أو الحروف.

ولعل رغبة امرئ القيس في توحيد الإيقاع الصوتي بين صدر البيت (العروض) وعجزه (الضرب) هي التي جعلته يختار هذا الخيار (ومنزل) لأن ضرب البيت (فحومل) وهو زحاف. ومثل ذلك يقال في (رصاتها)

<sup>(١)</sup> الفصول والغایات في تمجيد الله والمواعظ، لأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعربي (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) تحقيق محمود حسن زناتي، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ م: ١٧٣

<sup>(٢)</sup> ديوان امرئ القيس : ٨

<sup>(٣)</sup> الواقي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزى، تحقيق د. فخر الدين قباوة، وأ.عمر بخيت، دمشق - دار الفكر، ط٢، ٢٠١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م: ٣١

مفاعلن، وفي (بُفُلْقِلِ) (تَحْمِلُوا) (فُحَنْظُلِ) فكأن أبو العلاء يرى أن تقلص الحياة يؤدي إلى تقلص المعاني بضيق أبنيتها من التفاصيل، فتمتد التفاصيل بامتداد المعاني، وتتقلص بتقلصها، والمعاني منبعها الحياة، والشعر معه شعور المبدع بالحياة ضيقاً واتساعاً. ورأى أن حياته قليلة لا تتجاوز مدة وقوف أمرئ القيس بطل شجيرات السدر، والمتخفي بين أغصانها، والباكي لفراق أحبه دون فراقه للحياة، وما يرى له تفسيراً إلا بما اقترب من عقوق للقيم الاجتماعية، ولو بكى أو لم يبكِ فإن الأمر سواء من جهة نفوذ قدر الله بزوال الزمن وزوال الحياة بحركة الزمن، ويستوي البكاء فرحاً باجتماع المال أو حزنًا على فقد الحياة.

وهو في تحويله إلى أمرئ القيس يومئي إلى الحديث النبوي ((يا عمر! ما لي وللدنيا؟! وما للدنياولي؟! والذي نفعني بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها))<sup>(١)</sup>

فهل كان أبو العلاء يبعث شعوره بالفناء والارتحال من لحظات الوداع عند أمرئ القيس؟ وهل كان يدل على أن الرسول أشتق حديثه المذكور من فضاء مشهد أمرئ القيس وصحبه وبسمرات الحي من الشكل دون الروح والرسالة؟ أليس في كلام أبي العلاء ما يجعل كلام أمرئ القيس ناقصاً، و تمام مشهده بإظهار انتفاء الجدوى ، وإدراك قلق الوجود ومرارة الحياة؟

ما تقدم يتبيّن أن أبو العلاء المعري فهم أشعار المتقدمين في ضوء قلق الوجود في شعوره ورؤيته ، فتأول أشعار المتقدمين شعراً، وتأول بعض أشعاره في زجر النابع لمن لم يفهموا مراده بتلك الأشعار، وجعل الشعر يطوى في الشر ، ويدعو بعبارات قليلة أشعاراً كثيرة. ولعل الزاوية العقلية والفكريّة أو الفلسفية أشد ظهوراً في شعر أبي العلاء من فنه على علو شعره فنياً، وأبو الطيب صاحب المعجز من الشعر عند أبي العلاء الفن في شعره أشد سطوعاً من فلسفته وعقله. والله أعلم.

<sup>(١)</sup> صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي (٢٥٤ - ٢٥٨هـ). اعتبرت به جاد الله حسن الخداش، الرياض - بيت الأنوار الدولية، [دت]: ١٠٩٠، ح: ٦٣١٨

## الورقة:

١. الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحفبة السادات، للعلامة نعمان ابن المفسر الشهير محمود الألوسي، حققه وقدم له وخرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، بيروت ودمشق -المكتب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤٠٥ هـ
٢. أدوات النص، محمد تحرishi، دمشق -اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٠ م
٣. استيعاب النصوص وتأليفها، أندريله - جاك ديشين، ترجمة هيثم لمع، بيروت -المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
٤. إشارات النص والإبداع، سليمان بختي (ندوة وحوار بين مجموعة من المفكرين) السويد -دار نلسن، بيروت -ط٤ ، ١٩٩٥ م
٥. الأسمعيات، عبد الملك بن قرب الأصمسي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، القاهرة -دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٧٦ م
٦. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، بيروت -دار إحياء التراث العربي [اد١٢]
٧. البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي الزركشي (٥٧٩٤ - ١٤١٣ هـ) قام بتحريمه الشيخ عبد القادر عبد الله العاني، الكويت -وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط٢ ، ١٤١٣ هـ
٨. بناء النص التراخي - دراسات في الأدب والترجم ، د. فدوى ماطي - دوغلاس، القاهرة -الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ م
٩. ترويض النص ، حاتم الصكر، القاهرة -الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ م
١٠. التفسير الاجتماعي للشعر عند أبي العلاء المعري ، د. عبد الكريم محمد حسين ، دمشق -اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٨ م
١١. جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق أحمد شاكر ، بيروت -مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
١٢. دراسات في تعدي النص - دراسات في فن الرواية ، وليد الخشاب ، الهيئة العامة لشئون المطبع الأميرية ، ١٩٩٤ م
١٣. ديوان أمرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة -دار المعارف بمصر ، ط٤ ، ١٩٨٤ م
١٤. ديوان أمية بن أبي الصلت ، صنعة د. عبد الحفيظ السطلي ، دمشق -المطبعة التعاونية ، ١٩٧٤ م
١٥. ديوان حسان بن ثابت ، حققه وعلق عليه: د. وليد عرفات ، بيروت -دار صادر ، ١٩٧٤ م
١٦. ديوان علمقة الفحل ، بشرح أبي الحاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشتمري ، حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب ، وراجعه د. فخر الدين قباوة ، دار الكتاب العربي محلب ، ط١ ، ١٤٢٨٩ هـ - ١٩٧٩ م
١٧. ديوان ابن هانئ الأندلسي ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت -دار صادر ودار بيروت ، ط٤ ، ١٤٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

١٨. رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، تحقيق: بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، القاهرة - دار المعارف بمصر، ذخائر العرب: ٤، ط٩، ١٩٩٣ م
١٩. زجر النابغ، لأبي العلاء المعري، جمعه وحققه: دأمجد الطرايلسي، دمشق - مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
٢٠. شعر الأخطبل أبي مالك غياث بن غوث التغلبي، صنعة السكري، رواية عن أبي جعفر محمد بن حبيب، تحقيق د. فخر الدين قباوة، بيروت - مشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
٢١. شعر التابعة الجعدي، تحقيق عبد العزيز رياح، بيروت ودمشق - المكتب الإسلامي، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م
٢٢. الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة - دار الحديث، ط٢، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م
٢٣. صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمدر بن حبان التعميمي (٢٥٤ هـ)، اعنى به جاد الله بن حسن الخداش، الرياض - بيت الأفكار الدولية، [دت]
٢٤. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحاج القشيري التيسابوري، الرياض - دار السلام، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
٢٥. صدع النص وارتحالات المعنى، إبراهيم محمود، حلب - مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٠ م
٢٦. العمدة في محسن الشعر وأدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القمياني (٣٩٠ هـ - ٤٥٦ م)، تحقيق: محمد قرقان، بيروت - دار المعرفة، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٢٧. الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، لأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري (٣٦٣ هـ - ٤٤٩ م)، تحقيق محمود حسن زناتي، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ م
٢٨. في النص الشعري العربي، مقارنات منهجية، د.سامي سويدان، بيروت - دار الآداب، ط١، ١٩٨٩ م
٢٩. قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة - دراسة مقارنة، د.محمود عباس عبد الواحد، القاهرة - دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
٣٠. لذة النص، رولان بارت، د.منذر عياشي، حلب مركز الإنماء الحضاري، ط١، ١٩٩٢ م
٣١. لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري، شرح نديم علي، دمشق - دار طلاس [دت]
٣٢. نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د.محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت - دار الكتب العلمية، [دت]
٣٣. الناق ولفكر عبد الكريم الأشتر، مجموعة من الباحثين، دمشق اتحاد الكتاب العرب - سلسلة أدباء مكرمون (٢٧) ٢٠٠٦ م
٣٤. الوافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، وأ.عمر يحيى، دمشق - دار الفكر، ط٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

# **ملف العدد**

**دراسات أندلسية**



# ولادة بـ لـ نـ تـ الـ مـ سـ تـ كـ فـ يـ فـ يـ عـ يـ وـ نـ الـ بـ اـ حـ ثـ يـ وـ مـ لـ سـ تـ شـ رـ قـ يـ

□ أ.د. علي دياب \*

التعريف بولادة:

بداية لابد من التعريف بولادة من هي تلك الشخصية التي خلد اسمها؟ وطارت شهرتها فملاً الآفاق، وذكرها يتردد على كل لسان في ذكرها ابن سَمَّاً في ذِخْرِهِ وَهُوَ يَنْقُلُ لَنَا بعضاً من أخبارها فيقول: "إِنَّهَا بَنْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِريِّ، وَكَانَتْ فِي نِسَاءِ أَهْلِ زَمَانِهَا، وَاحِدَةً أَقْرَانِهَا، حَضُورًا شَاهِدًا،

وحرارةً أَوْابِدًا، وَحَسْنٌ مُنْظَرٌ وَمُخْبِرٌ، وَحَلَاوةٌ مُورِدٌ وَمُصْدِرٌ، وَكَانَ مَجْلِسُهَا بِقَرْطَبَةِ مُنْتَدِيًّا لِأَهْرَارِ الْمَصْرِ، وَفَنَّاؤُهَا مُلْجَأًا لِجَيَادِ النَّظَمِ وَالنَّثْرِ، يَعْشُو أَهْلُ الْأَدْبِ إِلَى ضَوْءِ غَرَّتِهَا، وَيَتَهَالِكُ أَفْرَادُ الشِّعْرِ وَالْكِتَابِ عَلَى حَلَاوةِ عَشْرَتِهَا، إِلَى سَهْوَةِ حَجَابِهَا، وَكُثْرَةِ مَنْتَابِهَا، تَخْلُطُ ذَلِكَ بِعُلُوِّ نَصَابِ وَكَرْمِ أَنْسَابِ، وَطَهَارَةِ أَنْوَابِ"<sup>(١)</sup>

\* أستاذ الأدب الاندلسي في جامعة دمشق.

<sup>(١)</sup> الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن سام الشنتريتي، ق ١، م ١، ٤٢٩.

كما يقول المؤلف نفسه ابن بسام في التعريف بأبيها فيقول نقاً عن ابن حيان:

"بُويع محمد بن عبد الرحمن الناصري، يوم قتل عبد الرحمن المستظهرون يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعين، فتسمى بالمستكفي بالله، اسماً ذكر له فاختاره لنفسه، وحكم به سوء الاتفاق عليه، لشاكنته لعبد الله المستكفي العباسى؛ أول من تسمى به - في أفقه ووهنه وتخلقه وضعفه... الخ ويتابع ابن حيان: لم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر، إنما أرسله الله على أهل قرطبة محنـة وبليـه، إذ كان مـنـ عـرـفـ غـفـلـاً عـطـلـاً مـنـقـطـعـاً إـلـىـ الـبـطـالـةـ، مـجـبـلـاً عـلـىـ الـجـهـالـةـ، عـاطـلـاً عـنـ كـلـ خـلـهـ تـدـلـ عـلـىـ فـضـيـلـةـ، عـضـتـهـ الفـتـنـةـ فـأـمـلـقـ حـتـىـ اـسـتـجـازـ طـلـبـ الصـدـقـةـ... وـبـالـجـمـلـةـ فـتـلـخـيـصـ التـعـرـيفـ بـأـمـرـهـ أـنـ جـمـعـ أـهـلـ التـحـصـيلـ أـنـهـ لـمـ يـجـلسـ فـيـ الإـمـارـةـ مـدـةـ تـلـكـ الفـتـنـةـ أـسـقـطـ مـنـهـ وـلـاـ أـنـقـصـ، إـذـ لـمـ يـزـلـ مـعـرـوفـاـ بـالـتـخـلـفـ وـالـرـكـالـةـ، مـشـهـرـاـ بـالـشـرـبـ وـالـبـطـالـةـ... وـقـلـدـ هـذـاـ المـسـتـكـفـيـ الـأـمـرـ وـلـمـ يـكـنـ مـنـ أـهـلـهـ..."<sup>(٢)</sup>.

لقد توقفنا عند وصف ابن بسام لل الخليفة المستكفي والد ولادته، إذ يشار دائمـاً إلى أنها أميرة من نسل الملوك، ولكن المؤرخ يشير إلى أن المستكفي لم يكن شخصية تاريخية سوية كغيره من الأمراء والخلفاء الأندلسـيينـ الذينـ يـذـكـرـ التـارـيخـ لـهـمـ ماـ فـعـلـوـهـ فـيـ تـلـكـ الـدـيـارـ، وـبـالـتـعـرـفـ إـلـىـ حـقـيـقـةـ المـسـتـكـفـيـ نـكـشـفـ مـفـارـقـةـ تـارـيخـيـةـ، تـسـتـحـقـ التـوقـفـ عـنـدـهـاـ، بـيـنـ الـأـبـ الـمـسـتـكـفـيـ وـالـأـبـةـ وـلـادـةـ، فـالـلـأـلـوـفـ أـنـ يـؤـثـرـ الـأـبـ فـيـ اـبـهـ وـيـقـالـ: فـلـانـ أوـ فـلـانـةـ اـبـنـ أوـ اـبـةـ فـلـانـ عـلـىـ مـبـدـأـ مـنـ شـابـهـ أـبـاهـ مـاـ ظـلـمـ، فـالـأـمـرـ هـنـاـ مـعـكـوسـ، فـلـادـةـ طـبـقـتـ شـهـرـتـهاـ الـآـفـاقـ، وـتـطـاـيـرـ ذـكـرـهـاـ، حـتـىـ صـارـتـ مـدـارـ الـحـدـيـثـ اـقـرـبـاـ بـكـلـ مـنـ اـقـرـبـهـاـ، فـابـنـ زـيـدـونـ لـقـبـ بـصـاحـبـهـاـ عـلـىـ الرـغـمـ مـاـ تـبـوـأـ مـنـ مـنـاصـبـ وـمـنـ شـهـرـتـهـ بـذـيـ الـوـزـارـتـيـنـ، وـأـبـوـهـاـ الـمـسـتـكـفـيـ لـقـبـ بوـالـدـ وـلـادـةـ، مـعـ أـنـهـ خـلـيـفـةـ، وـكـذـلـكـ صـاحـبـتـهاـ مـهـجـةـ الـقـرـطـيـةـ، فـكـانـتـ شـاعـرـةـ وـلـاـ تـقـلـ جـمـالـاـ عـنـهاـ إـلـىـ أـنـ المـؤـرـخـينـ الـذـيـنـ ذـكـرـوـهـاـ فـقـرـونـهـاـ بـلـادـةـ وـعـرـفـتـ بـأـنـهـاـ صـاحـبـةـ وـلـادـةـ، وـهـذـاـ مـاـ يـؤـدـيـ بـنـاـ إـلـىـ أـنـ وـلـادـةـ لـمـ تـكـنـ شـخـصـيـةـ عـادـيـةـ فـيـ زـمـانـهـاـ، إـنـمـاـ كـانـتـ تـشـكـلـ الـمـرـكـزـ فـيـمـاـ يـتـعـلـقـ بـكـلـ مـاـ يـحـيـطـ بـهـاـ. هـذـاـ وـلـمـ يـشـرـأـيـ مـنـ المـؤـرـخـينـ الـذـيـنـ ذـكـرـوـهـاـ وـلـادـةـ إـلـىـ تـارـيخـ وـلـادـتـهاـ وـإـنـماـ أـشـارـوـاـ إـلـىـ وـفـاتـهـاـ، وـهـنـاـ يـذـكـرـ الـقـرـيـ فيـ نـفـحـهـ قـلـلاـ عـنـ اـبـنـ بـشـكـوـالـ فيـ صـلـهـ عـنـ وـلـادـةـ: "كـانـتـ أـدـيـبـةـ شـاعـرـةـ، جـزـلـةـ الـقـولـ، حـسـنـةـ الـشـعـرـ، وـكـانـتـ تـنـاضـلـ الـشـعـرـاءـ، وـتـسـاجـلـ الـأـدـبـاءـ، وـتـفـوـقـ الـبـرـعـاءـ، وـعـمـرـتـ عـمـراـ طـوـيـلـاـ، وـلـمـ تـزـوـجـ قـطـ، وـمـاتـ لـلـبـلـتـيـنـ خـلـتـاـ مـنـ صـفـرـ سـنـةـ ثـمـانـينـ، وـقـبـلـ أـرـبعـ وـثـمـانـينـ وـأـرـبـعـمـائـةـ رـحـمـهـ اللـهـ"<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> المصدر نفسه: ٤٣٣ - ٤٣٤

<sup>(٢)</sup> فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد القرى التلمساني، م: ٤، ٢٠٧

## البدايات الأولى لعلاقات ولادة:

ترعرعت ولادة في قصر والدها الخليفة الأموي الملقب بالمستكفي بالله حيث كان متزلاقاً كما أشرنا سابقاً في تيار الشهوات، منتصراً إلى الله و المجون و خلع العذار، وليس له من سمات الملك سوى التربع على العرش، فلما توفي أبوها فتحت أبواب قصورها للأدباء والشعراء، ورجال الدولة، يتربد إليه الوجهاء والوزراء متندى للأدب والفنون، وذلك قبل أن تعرف أوروبا التي كانت غارقة في الجهل، الصالات الأدبية بمئات السنين، إذا كانت ولادة تدير جلسات ذلك المتندى باسم ما يتسم به الذوق من لطف بالمعشر، وسمو بالكياسة، مازجة التعرّر بالتصاوين في الإفصاح عما يعتمل في فؤادها من هوى الرغبات. فما يخبرنا به ابن بسام بهذا الصدد: "على أنها سمح الله، وتغمد زللها - اطاحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالغتها، ومجاهرتها بذواتها. كتبت - زعموا - على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالى وأمشي مشيتي وأتباه تباهيا

وكتب على الآخر:

وأمكـن عـاشـقـيـ منـ صـحنـ خـديـ وأـعـطـيـ قـبـلـتـيـ منـ يـشـتـهـيـهاـ

هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرا إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه<sup>(٤)</sup>. إذا توقفنا عند هذا الخبر الذي يورده ابن بسام عن ولادة فإننا نجد شيئاً من التناقض فهو يصفها بطهارة الثوب، وكرم النسب، ثم يعود ليصفها بقلة مبالغتها ومجاهرتها بذواتها، بما ينبي بتقلب أخلاقي، مما دفعه لأن يطلب لها من الله السماح عما وقفت فيه.

وهنا نقف عند اللقاء الأول لولادة مع صديقها ابن زيدون كما يخبرنا عنه ابن بسام في ذخيرته فيقول:

ولـهاـ معـ أبيـ الـولـيدـ ابنـ زـيدـونـ أـخـبارـ طـوالـ،ـ يـفوـتـ إـحـصـاؤـهاـ وـيشـقـ استـقصـاؤـهاـ.

قال أبو الوليد: كنت في أيام الشباب، وغمرة الصاب، هائماً بغادة، تدعى ولادة، فلما قدر اللقاء، وساعد القضاء، كتبت إلى:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي  
فإني رأيت الليل أكتم للسرِّ  
وبالليل ما أدرجى وبالنجم لم يسرِّ

<sup>(٤)</sup> الذخيرة، ابن بسام، ذكر سابقاً، ق ١، م ١: ٤٢٩ - ٤٣٠

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلت بقدِّ كالقضيب، وردِّ كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روضِ مدِّيج، وظلَّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودرُّ الطُّلْ منثور، وجيب الراح مزبور، فلما شينا نارها، وأدركت فيما ثارها، باح كلُّ منا بحبه، وشكَا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أفحوان الشغور، وقططف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً أنشدتها ارتياحاً:

وَدَعَ الصَّبِرَ حَبَّ وَدَعَكَ  
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ  
زَادَ فِي تِلْكَ الْخَطْرِي إِذَا شَيْعَكَ  
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَاءً  
حَفَظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ  
إِنْ يَطْلُبَ بَعْدَكَ لِيَلِي فَلَكَمَ  
بَتُّ أَشْكُو قَصْرَ اللَّيلِ مَعَكَ<sup>(٥)</sup>

إننا نلحظ هنا الوصف الرومانسي الذي أسبغه ابن زيدون على الطبيعة التي صمتها وحيبيته ولادة، فالروض المزین بالزهور، والأنهار تفيض بالياء العذبة، وتقدميه لولادة لا يخلو من الجانب المادي، فوصفه بجسمها في رشاقته مشبهاً إياه بالقضيب، ولعجزها بالامتناع المفضل وليس التفرّ، كما لم يفت ذكر الجانب المتبقى بفعل تأثير الخمر، إذ كتى عن تقبيلها بـ"جني أفحوان الشغور" وعن جانب آخر كنى عنه بـ"قططف رمان الصدور".

فإذا أمعنا النظر في هذا النص الذي نعده خبراً مهماً يشير إلى اللقاء الأول بين ولادة وابن زيدون وربما هو اللقاء الأول لولادة، فشعر كليهما ولادة وابن زيدون، يظهر السلوك الذي يجمع بين أمرتين في علاقتهما، الأمر العاطفي وما بينهما من حب حقيقي والأمر الثاني هو المادي أي ترجمة هذا الحب من إطاره النظري والعاطفي إلى حالة مادية من خلال قضائهما تلك الليلة كما يخبرنا عنها ابن زيدون، ونجد أيضاً أن هذا النص يطرح تساؤلات عدة حول شخصية ولادة، فهل هي ولادة نفسها التي كتبت على عاتقي ثوبها ما سبقت الإشارة إليه ؟ أنا والله أصلح للمعالى. تقول: ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي ... فهي تكشف عن حقيقة مكنونها، إذ تختار ساعة متأخرة من الليل، فهو الوقت المناسب بالنسبة إليها. وليس في وضح النهار أو مع غروب الشمس فعندما يلتج الليل مخيماً بظلماته الذي يحول دون تمييز الناس

<sup>(٥)</sup> الذخيرة، ابن سام، ذكر سابقأٌق ١، م ٤٣٠ - ٤٣١

للمارة، وفي ذلك الستر لهذه العلاقة، وربما تذكرت في لحظة إيمان عاشرة القول الشريف: "إذا بلتم بالمعاصي فاستتروا" وهنا نتساءل حول هذا التناقض في شخصية ولادة، فربما كان هذا الشكل من المجاهرة في اسلوب قد جاء في مرحلة متأخرة من حب الحبيبين، ويمكن في الوقت نفسه أن يكون سابقاً لحبهما وهنا نقول: إن الأميرة الأندلسية قد كتبت على عاتقها ثوبها ماكتبته من باب التيه والكبرباء من الناحية النظرية بغية رمي شباك صيدها، ولكنها من الناحية العملية لا تزيد أن ترك مأخذ حقيقة عليها وهي أنها كانت في منزل ابن زيدون وهي الأميرة بنت الخليفة... الخ.

وتعود في البيت الثاني مخاطبة ابن زيدون: وبي منك ما لو كان... لتعبير عمّا تحمله من وجد ابن زيدون ما يجعل البدر مختيناً، والليل لا يظلم، وبالنجم لا يتحرك. ومن ثم يعود ابن زيدون ليؤكد ما باحث به ولادة إذ يجمع في شعره بين ما هو رحاني وحسني، إذ لا يقوى على فراقها بعد أن ودع مع داعها الصبر، بعد أن فضحت الصبّ الحب عيونه، ولم يعد سراً ما استودعها بعد تأثير فعل الخمرة التي تفضح الأسرار، حتى إنه ليغضّ على أسنانه كمداً وغيظاً إذ إن خطاه لم تزد عدداً ومسافة وهو يرافقها مودعاً ومن ثم يخلع عليها أوصافاً خيالية فهي أخت البدر حسناً ومكانة ويدعو الله بالخير للزمن الذي أطلعها قمراً، ثم يعود لينهي ليله الطويل بعدها، الذي مر قصيراً جداً في أثناء لقائهما وهم يتبدلان الحب على طريقتهم وفهمهما، في رفعة وتسام عن تلك الأشكال من الحب التي كانت في معظمها مسوخة غير متكاملة ولم تكن أكثر من عملية لقاء بين طرفين بشريين تم بطريقة بشرية بعيدة عما كانت تلك الليلة بين شاعرين المتحابين.

### ولادة والغيرة:

إن الغيرة تبدو جلية في قصة كل حب، وعبر مختلف المراحل، وفي كل العصور، وكانت القصة نفسها تتكرر ولكن في كل عصر وبما ينسجم وخصوصيته، وفي كل حب وما يتميز به عن غيره من أشكال الحب إن كان عذرياً أو ماجناً أو ما بينهما، إن الناس في كل ذلك ليس لهم من هم ضمن مجتمعاتهم إلا مراقبة بعضهم بعضاً، فإعراض الحبوبة يسر الوشاة ويفرّجهم وتبادل الإعراض بين الحبيبين أيضاً يزيد من فرحتهم ويدفعهم للمزيد من إلقاء بذور الفتنة والخلاف ما بينهما<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري (١١)، د. ديلب، علي: ١٩١.

أردنا أن نقدم لمفهوم الغيرة بهذه الكلمات لنصل إلى شخصية ولادة وتميزها عن غيرها من حيث استحوذ الغيرة و فعل فعلها في علاقاتها كافة ، ففي إحدى ليالي الأنس والطرب التي جمعتها مع حبيبها ابن زيدون ، وانطلقت حنجرة جاريتها تهز أعطاف الليل بسحر إيقاعها وعذب إنشادها وعندما شاهدت عتبة تناغم ولادة وابن زيدون وانسجامهما في تلك الليلة ففتهما ويذلك : " قال أبو الوليد " وكانت عتبة قد غنتا :

أحبتنا إinsi بلفت مؤلمي      وساعدني دهري وواصلني حبي  
وجاء يهينني البشير بقربه      فأعطيته نفسى وزدت له قلبي  
فسألتها الإعادة ، بغير أمر ولادة ، فخبا منها برق التبسم ، وبدا عارض التوجه واعتبرت عتبة قلت :  
واما ضربت عتبى لذنب أنت به      ولكنما ولادة تستهوي ضربى  
فقمت تجرّ الذيل عائرة به      وتمسح طلّ الدمع بالعنم الرطب  
فبتنا على العتاب ، في غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، وأخذ اللهو متزوك ، فلما قامت خطباء  
الأطياف ، على منابر الأشجار ، وأنفقت من الاعتراف وباكرت إلى الانصراف ، وشتت بمسك الأنفاس على  
كافور الأطراس :

لو كنت تتصف في الهوى مايتها      لم تهـو جاريـتي ولم تستخـيرـي  
وتركت غصـناً مـثـراً بـجـمالـه      وجـنـحت لـلـغـصـنـ الذـي لم يـثـرـي  
ولـقـدـ عـلـمـتـ بـأـنـيـ بـدـ الرـسـماـ      لـكـنـ دـهـيـتـ لـشـفـقـتـيـ بـالـشـتـريـ<sup>(٧)</sup>

يشير الكثير من الباحثين إلى أن ابن زيدون قد وقع في حب عتبة جارية ولادة استناداً إلى النص السابق، إلا أننا نرى أن طلب شخصية كابن زيدون من هذه الجارية إعادة ماغنته ليس بالضرورة أن يكون قد أحباها وهي جارية سوداء والأهم من هذا وذاك أنها جارية حبيته ولادة، وإنما طلب الإعادة كان من باب الإعجاب بهذه الشعرية التي أظهرتها هذه الجارية، إلا أن ما يدعونا للتوقف عنده هنا وهو موضوع حديثنا ردة فعل ولادة تجاه طلب ابن زيدون هذا، إذ عَدَ ابن زيدون ضرب عتبة من قبل ولادة هو ضرب له وليس لها، وأجاد بدوره في وصف ولادة إذ قامت غاضبة، تعثر في ذيل ثوبها، ماسحة دمعها بأصابع يدها

<sup>(٧)</sup> الذخيرة، ابن سام، ذكر سابقًا، م ٤٣١ - ٤٣٢

- وهنا تكمن عبرية ابن زيدون إذ لم ينفل عن وصف زينتها - وهو ضمن هذا الموقف الانفعالي، فيقول: إن أظافرها الجميلة كانت مخضبة بصبغ العنم وهو عصير العنم يستخرج منه رحيق تصبغ به النساء أظافرها، ويبين لنا ابن زيدون من خلال النص السابق أنَّ ما حصل بينه وبين ولادة نتيجة غيرتها، وكيف كان العتاب هو اللغة السائدة بينهما، وكيف انقطعت الصلة بينهما. وعندما جاء الصباح انصرفت وكتبت له عتاب مرّ وهو لو أنه كان رجلاً منصفاً يقدر الجمال والأصل والحسب والنسب لما أحبَّ جارية سوداء لا تقاربها جمالاً وخصوصية مشبهة نفسها بالفنان المثمر رونقاً في مقابل جارية كالفنان الذي يفتقر إلى كل هذه الصفات، وتشير ولادة إلى أن ابن زيدون يعلم تماماً أنها لفروط جمالها تشبه البدر الذي يفوق كل النجوم والكواكب إلنارة بانعكاس ضوء الشمس عليه؛ إلا أنه ولعيب في ذوقه أحب كوكباً معتماً كالمشتري شبهت به جاريتها.

ولم تكن غيرة ولادة من ابن زيدون بسبب عبة جاريتها فحسب، ولم تكن الغيرة مقتصرة على ولادة خاصة والنساء عامة وإنما للرجال نصيب منها ربما يفوق ما للنساء. فكما ذكرنا سابقاً أنه كان ولادة متتدى في قصرها يفده الجميع من وزراء وكتاب ومثقفين يخطبون ود صاحبته ولم يكن ابن زيدون وحده فارس هذا الميدان وإنما كان هناك الوجيه الخطير ابن القلاس، الوزير الأول لأبي الحزم أبو عامر بن عبدوس، وكانت صلات الثلاثة بعضهم وثيقة، إلا أن التنافس فيما بينهم على حب ولادة قد أفسد هذه الصلات وخرّبها، ولم يستطع ابن القلاس الصمود في الميدان بعد أن طاله لسان ابن زيدون بقصيدة هجائية يقول فيها:

أصْنُخْ لِمَقَالَتِيْ، وَاسْتَمِعْ	وَخَذْ فِيمَا تَرِيْ، أُودِعْ
وَكَمْ ضَرَّ امْرَأً أَمْرَ	تَسْوِهِمْ أَنْهَ يَنْفَعْ
أَعْدَ نَظَرَأً فِيْ إِنَ الْبَغْ	يَعْلَمْ يَزْلُ يَضْرَعْ
وَلَا تَطْعَمُ الْسَّتِيْ تَغْوِيْهْ	كَ، فَهَيْ لِنَفِيْهِمْ أَطْبَعْ
تَقْبِلَ إِنْ أَتَى خَطَبْ	وَأَنْفَ الْفَحْشَلَ لَا يَقْرَعْ
وَلَاتَكَ مِنْكَ تَلِكَ الدَّا	رَبَالْمَرَأَيِّ وَلَا الْمَسْمَعْ <sup>(٨)</sup>

<sup>(٨)</sup> ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

وبالمقابل يقى ابن عبدوس صامداً في الميدان يواجه ابن زيدون ولا يفر إلا ليكر، غير عائب بكل ما وجهه له ابن زيدون من هجاء مر، شرعاً ونثراً. فمن الهجاء الشعري:

”أثرت هزير الشَّرِّي، إذ رِبضْ“	”وَنَبَهَتْهُ، إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضْ“
”حَذَار حَذَار، فَيَان الْكَرِيمْ“	”إِذَا سَيْمَ خَسْفَاً، أَبِي، فَامْتَعَضْ“
”إِذَا الشَّمْسُ قَابَلَتْهَا أَرْمَلَاً“	”فَحْظَ جَفَوْنَكَ فِي أَنْ تَغْضَضْ“
”أَعْيَذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي“	”إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَائِيَا، اتَّقْبِضْ“
”وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ لَادَةَ“	”سَرَابُ تَرَاءِي، وَبِرْقُ وَمَضْ“
”هَيِّ الْمَاءِ يَعْزُ عَلَى قَابِضْ“	”وَيَمْنَعْ زَيْدَتَهُ مِنْ حَضْ“ <sup>(٤)</sup>

ومن الهجاء الشعري ثانى الرسالة البازلية. في مقدمة هذا الهجاء الذي وجهه له على لسان ولادة، ومع ذلك لم ينهزم أمام خصميه في حب ولادة، وبتقديرنا أن الظرف السياسي في غير صالح ابن زيدون وبالنهاية كانت الغلبة لابن عبدوس، وكما يجمع الباحثون أن رسالة ابن زيدون لخصمه كانت الشعرة التي قسمت ظهر البعير عند ولادة. فإن ابن زيدون في هذا المقام يشبه نفسه بالليث الرابض للانقضاض على فريسته، حيث وضعه موضع المثير لغفظه، وهنا يهدده بألا يطمع في كرم صبره، لأنه إذا وقع عليه الظلم فإنه يأتي الضيم ويثور في وجه الظلم، ويظهر في نهاية قصidته الطويلة التي تبلغ أربعين بيتاً أو صافاً تحرم ولادة عليه، فهي في وعودها له وعهدها معه، كالسراب الخادع يحسبه العطشان ماءً يلمع، وهي كالماء حين يقبض عليه، يظن أنه امتلكه، ينفلت من بين أصابعه، ولا يكون حظه منها، إلا حظ من مخض الماء بعد عناء ليخرج منه زيداً، فيمنعه الماء ما أراد، إذ ليس فيه زيد، وفي هذا التشبيه كناية عن طلب المستحيل. وما يسجله ابن باسم ولادة في إطار ذكر علاقتها بابن عبدوس: ”وَأَمَّا ذَكَاءُ خَاطِرَهَا، وَحَرَارةُ نُواَدِرَهَا، فَآيَةٌ مِنْ آيَاتِ فَاطِرَهَا: مَرَّتْ بِالْوَزِيرِ أَبِي عَامِرِ بْنِ عَبْدُوْسِ -الْمُتَقْدِمُ الذَّكْرُ - وَكَانَ بِقَرْطَبَةِ أَحَدُ أَعْيَانِ الْمَصْرِ، وَبَعْضُ مِنْ هَذِهِ بَاسِمَهَا، وَتَصْرِفَ عَلَى حُكْمِهَا، وَأَمَّا دَارَهُ بِرَبْكَةٍ دَائِمَةٍ تَوَلَّدُ عَنْ كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ، وَرِبِّيَا استمدَتْ بِشَيْءٍ مَا هَنالِكَ مِنْ الْأَقْدَارِ، وَقَدْ نَشَرَ أَبُو عَامِرَ كَمِيَّهُ، وَنَظَرَ فِي عَطْفِيهِ، وَحَشَرَ أَعْوَانَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ لَهُ: أَبَا عَامِرَ:

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه، ديوان ابن زيدون، ص ٩٠ - ٩٢.

أنت الخصيـب وهذه مصر  
فتـدقـقا فـكـلاـكـمـاـ بـحـر  
فرـكـتـه لا يـحـيرـ حـرـفـاـ،  
ولا يـسـرـدـ طـرـفـاـ<sup>(١٠)</sup>

إذا توقفنا عند هذا النص الذي يورده ابن بسام، يتبيـن لنا ذـكـاء وـلـادـة وـحـضـورـ بـدـيـهـتـهاـ، فـوزـيرـ كـابـنـ عـبـدـوـسـ، يـفـعـلـ كـالـعـوـامـ مـشـمـراـ كـمـيـهـ وـأـعـوـانـهـ مـنـ حـولـهـ مـنـ أـجـلـ إـصـلاحـ بـرـكـةـ قـنـدـرـةـ، فـمـاـ اـسـطـاعـتـ إـلـاـ أـنـ تـسـخـرـ مـنـهـ، جـاعـلـةـ مـنـ بـرـكـةـ الـآـجـنـةـ وـمـنـ بـحـرـاـ يـتـدـقـقـ بـالـأـقـنـارـ. وـالـمـلـفـ لـلـاتـبـاهـ فـيـ عـلـاقـةـ وـلـادـةـ بـابـنـ عـبـدـوـسـ أـنـهـ وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ سـخـرـهـاـ مـنـهـ، فـبـقـيـ عـلـىـ مـوـاـصـلـتـهـ وـلـاـ يـفـغـلـ مـرـاسـلـتـهـ وـيـقـولـ اـبـنـ بـسـامـ بـهـذـاـ الشـائـنـ:ـ  
ـكـانـ يـحـمـلـ كـلـهـاـ، وـيـرـفـعـ ظـلـهـاـ، عـلـىـ جـدـبـ وـادـيـهـ، وـجـمـودـ رـوـاـئـهـ وـغـوـادـيـهـ أـثـرـاـ جـمـيلـاـ أـبـقـاهـ، وـطـلـقـاـ مـنـ الـظـرـفـ جـرـىـ إـلـيـهـ حـتـىـ اـسـتـوفـاهـ<sup>(١١)</sup>.

وهـكـذـاـ اـسـتـمـرـ اـبـنـ عـبـدـوـسـ، لـاـ يـتوـانـىـ عـنـ طـلـبـ وـصـالـهـاـ، حـتـىـ حـينـ أـزـرـىـ بـهـاـ الزـمـانـ، فـكـانـ يـحـمـلـ  
ـكـلـهـاـ وـيـرـفـعـ ظـلـهـاـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـحـواـلـهـ غـيرـ المـرـيـخـ، إـلـاـ أـنـهـ بـفـعـلـ ذـلـكـ يـتـرـكـ لـلـتـارـيـخـ عـمـلـاـ حـسـنـاـ وـظـرـيفـاـ.  
وـمـاـ يـسـجـلـهـ الـمـؤـرـخـونـ عـنـ غـيـرـةـ وـلـادـةـ، هـجـاؤـهـاـ لـابـنـ زـيـدـوـنـ، وـذـلـكـ بـعـدـ طـلـبـهـ مـنـ جـارـيـتـهـ عـتـبةـ إـعـادـةـ  
ـالـبـيـتـينـ الـلـذـيـنـ غـنـتـهـمـاـ ذـاتـ لـيـلـةـ فـتـقولـ فـيـهـ:

ـنـفـارـقـكـ الـحـيـاـةـ وـلـاـ يـفـارـقـ  
ـوـدـيـوـثـ وـقـرـنـانـ وـسـارـقـ  
ـلـقـبـتـ الـمـلـدـسـ وـهـوـ نـعـتـ  
ـفـلـوـطـيـُـ وـمـاـبـوـتـ وـزـانـ  
ـوقـالـتـ فـيـهـ أـيـضـاـ:

ـيـعـشـ قـضـبـانـ السـراـوـيلـ  
ـصـارـ مـنـ الطـيـرـ الـأـبـاـبـيلـ<sup>(١٢)</sup>  
ـإـنـ اـبـنـ زـيـدـوـنـ عـلـىـ فـضـلـهـ  
ـلـوـأـبـصـرـ... عـلـىـ خـلـةـ

وـمـنـ خـلـالـ مـاـ سـبـقـ تـنـظـهـرـ شـخـصـيـةـ وـلـادـةـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـاـ وـكـيـفـ كـانـ رـدـةـ فـعـلـهـاـ عـلـىـ اـبـنـ زـيـدـوـنـ الـذـيـ  
ـاقـلـرـ اـسـمـهـ بـاـسـمـهـ وـالـعـكـسـ أـيـضـاـ صـحـيـحـ، وـهـذـاـ يـشـيرـ إـلـىـ غـيرـهـاـ الشـدـيـدـةـ، إـذـ لـمـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـغـفـرـ لـابـنـ  
ـزـيـدـوـنـ هـذـهـ الـهـفـوـةـ وـالـتـيـ كـمـاـ أـشـرـنـاـ سـابـقـاـ رـبـماـ كـانـتـ مـنـ قـبـيلـ الـإـعـجـابـ بـثـقـافـةـ الـجـارـيـةـ السـوـدـاءـ وـلـيـسـ كـمـاـ

<sup>(١٠)</sup> ذـكـرـ سـابـقـاـ - الذـخـيرـةـ، اـبـنـ بـسـامـ قـ ١ـ، مـ ١ـ، صـ ٤٣٢ـ.

<sup>(١١)</sup> المصـدرـ فـقـسـهـ.

<sup>(١٢)</sup> المصـدرـ ذـكـرـ سـابـقـاـ - نـفـحـ الـطـيـبـ - المـقـريـ، صـ ٢٠٥ـ - ٢٠٦ـ.

تهيأ لولادة، ومع ذلك لم تتح هذا المنحى في تفسير الواقع، وإنما شكت به وعاتبه ثلاثة أبيات سبق وأن ذكرناها ومن ثم قشت عليه هذه القسوة التي تتمثل في الأبيات آنفة الذكر، إذ كان هجاءً مقدعاً، استخدمت فيه عبارات قاسية، تجاوزنا ثبّيت واحدة منها وذلك لفحشها، مع أن المقرى أثبّتها في نفحه، وهذا يكشف نفسية ولادة التي كانت معجّبة بنفسها ولا تجد من يشبهها أو يقترب منها على وجه هذه البسيطة، ومع ذلك تجد شخصية مثل ابن زيدون قال فيها ما لم يقله مالك في الخمر، يتغزل بجاريتها، وهذا ما أفقدها صوابها، وبالتالي كانت تلك الأبيات التي وجهتها إليه، معنفة إياه، مستخدمة أبغض العبارات بل وأكثرها سوقة، ولمن هذا السجاء، هو ملن قال فيها من الشعر ما خلّب عقول المتأدين لثلاث السنين، وعادى يسبّيها الأقواء في عصره. وعلى الرغم مما مر فيه من حالات مختلفة سواء أكان سجينًا أو هارباً متخفياً، لم يقل فيها إلا أذبّ الشعر. كل ذلك لا يغفر لولادة هذا الانحدار وهي في مقام الغيرة والاحتجاج على صديقها، وكانتا نجد أنفسنا أمام شخصية أخرى عندما نرى ولادة تعرّب عن مشاعرها تجاه ابن زيدون وحبّها إياه في غزل رقيق يجمع بين الصباوة والشكوى، معطية نفسها الحرية في التغزل بالرجل تغزل الرجل بالمرأة فخاطبه بعد غيابه عنها:

سييل فيشكوك كلّ صبّ بما لقي  
أبيت على جمرٍ من الشوق محرقٍ  
ولا الصبرَ من رقّ التشوّق معتقبي  
سکوب هاطل الويل مغدقٍ<sup>(١٣)</sup>

”الا هل لنا من بعد هذا التفرق  
وقد كنتُ أوقات التزاور في الشتا  
تمر الليالي لا أرى وبين ينقضي  
سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً“<sup>(١٤)</sup>

وهكذا نجد في أبيات ولادة دفء العاطفة دون تكلّف، فهي تفصّح عن هذه العواطف دون تصنّع، وتبدو المعاني طوع يديها، تصوّغها ببساطة وتبدو في غزلها هذا متماسكة بعيدة عن التطرف في الغزل كغيرها من شاعرات الأندلس. وبالمقابل نجد ابن زيدون وبعد قراءته هذه الأبيات يجيئها ببستان من البحر نفسه والقافية إياها فيقول:

محياك من أجل النوى والتفرق  
وأي سرور للكريب المؤرق<sup>(١٥)</sup>

لحى الله يوماً لست فيه بملتق  
وكيف يطيب العيش دون مسرة

<sup>(١٣)</sup> المصدر نفسه، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

<sup>(١٤)</sup> المصدر نفسه.

وهنا يبدو ابن زيدون وهو يرد على مقطوعة ولادة بيتبين من الشعر، فيه الكثير من المعاني، ففيه شيءٌ من الفنج والدلال، وهو في هذا المقام يبدو خلاف الواقع عامـة إذ يكون الفنج عادة من المرأة وليس من الرجل، وخاصة لدى ابن زيدون وما له من أشعار رائعة في التودد إلى ولادة والإلحاح في العودة إلى اللقاء، وهجر ما يقوم به الحساد والكارهون، وربما كانت نوبته خير شاهد على ذلك، فكانت عبرة لكل محب، وسلوى لكل صبّ، ومثلاً لكل شاعر، إلا أنه هنا يبدو أستاذًا لأنها كثيرةً ما كانت تطلب إليه أن يشير إلى ما في شعرها من هنات، فهو يبعث مع بيته نقداً لما جاء في بيت ولادة الأخير: سقى الله أرضًا ويرى أن وبلا مغدقًا قد يغرق منزله، ونلمس أيضاً لدى ابن زيدون الشعور بالتعالي والتفوق، فهو شاعر الأندلس بلا منازع، بالإضافة إلى شعوره أنه أصبح الآن مالكاً لزمام قلبها، بعد قوله عشرات القصائد ومئات الأبيات في التودد إليها وطلب اللقاء بها.

### ولادة والأراء المتباعدة في شخصيتها:

قيل الكثير في ولادة منذ سماع أخبارها إلى وقتنا هذا، ويعتبرنا القول: إن هذه الشخصية الفريدة المختلف حولها بل والمختلف عليها تحتاج إلى المزيد من الدرس والتقصي والتحقق حول الآراء التي قيلت فيها.

أوردت بعض المصادر أن ولادة شخصية تاريخية، وهذا ما نقله الوزير أبو عبد الله جعفر بن مكي بن أبي طالب القمي عن ولادة تلميذه أبي القاسم بن بشكوال وكلا الرجلين ثقة عدل<sup>(١٥)</sup>، فقد ذكر الوزير أن ولادة جاءت إليه لتعزيه في أبيه الذي توفي يوم الثلاثاء لخمسة خلون من المحرم سنة ٤٧٤هـ وكان الوزير حينئذ في الرابعة والعشرين من العمر، أما ولادة فقد تجاوزت السبعين ولم يذكر الوزير دقيقاً في حدثه عنها<sup>(١٦)</sup>، إذ لم يذكر شيئاً عن جمالها، وإنما توقف عند صفات أخرى تتمثل في النباهة والفصاحة وجذالة المنطق وحرارة البدارة أي سرعة الخاطر والحدة في روح الفكاهة وأخيراً فقدان التطابق بين شرف الاتمامة وما يفترضه ذلك من تصاون، وهذا الرأي الأخير في أنه "لم يكن لها تصاون يطابق شرفها" فهو ليس أكثر من حكم أخلاقي يعود إلى التقويم العام المتبادر لشخصية ولادة والذي تم تناقله بين الناس، وهذا المصدر هو

<sup>(١٥)</sup> دراسات في الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، د. داود القاضي، د. أليبر مطلق، ص ١٩٢.

<sup>(١٦)</sup> المرجع نفسه.

الوحيد الذي نظر إلى ولادة وعدها شخصية تاريخية، بينما لم تلحظ ذلك في بقية المصادر والأثار التي تحدثت عن ولادة، وإن أقرب مصادرین إلى عصر ولادة بعد جنوة المقتبس للحميدي هما: كتاب الذخيرة لابن بسام الذي بدأ بتأليفه وهو بقرطبة سنة ٤٩٣هـ أي بعد وفاة ولادة بما يقرب من عشر سنين، وكتاب قلائد العقيان لفتح بن خاقان. فابن بسام لم يستطع أن ينقل أي خبر عن ولادة وأكثر من ذكر - زعموا في معظم ما أورده فيقول:

وكانت - زعموا - تفرض أبياتاً من الشعر، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق، أضربت عن ذكره، وطوبته بأمهله، لأن أكثره هجاء، وليس له عندي إعادة ولا إبداء، ولا من كتابي في أرض ولا سماء<sup>(١٧)</sup>.

أما ابن خاقان فيعتقد أن ولادة هي بنت المهدى ويقرن بها بعض قصائد ابن زيدون<sup>(١٨)</sup>، ويضرب مثالاً على ذلك من قصidته:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق وجه الأرض قد راقا  
وقصيدته أيضاً:

يا نازحاً وضمير القلب م Shawah أنساك دنياك عبداً أنت دنياه

كما يقول ابن خاقان: إن غزل ابن زيدون الذي صدر به إحدى قصائده في الاعتذار لأبي الحزم بن جهور إنما خاطب به ولادة مقيناً لها البراهين على أرقه وسهره<sup>(١٩)</sup>، ويضرب مثالاً على ذلك في قصidته التي تبدأ:

ما جال بعده لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر<sup>(٢٠)</sup>

وهكذا تلحظ تحبطاً لدى ابن خاقان بمحوك قصاصاً مسجوعة حول بعض قصائد ابن زيدون دون أن يهتم بعامل الزمن ودون أن يتحقق إن كان ما يقوله ذا صلة بالواقع أو منقطع الصلة به، ومن أجل هذا الغموض الذي يتعري الحقيقة التاريخية المتصلة بولادة في أقدم ثلاثة مصادر وهي ديوان ابن زيدون والذخيرة والقلائد،

<sup>(١٧)</sup> الذخيرة لابن بسام، ذكر سابقاً، جزء، ١، مجلد ١، ص ٤٣٢.

<sup>(١٨)</sup> قلائد العقيان وحالن الأعيان، ابن خاقان، ص ٧٣.

<sup>(١٩)</sup> المصدر نفسه، ص ٧٦.

<sup>(٢٠)</sup> ديوان ابن زيدون، كرم بستاني، ذكر سابقاً، ص ١٤٧.

تبقى الشهادة التي نقلها ابن بشكوال عن شيخه ابن مكي هي أقوى ما لدينا ، تلك الشهادة التي جاءت بعد حوالي عشرين سنة من كتابة قلائد العقيان تعد خاتمة لكل ما نعرفه عن ولادة على وجه التقرير<sup>(٢١)</sup> . ولو عدنا إلى ابن بسام لرأي أنه يذكر خبر اللقاء الأول لابن زيدون مع ولادة نفلاً عنه أي عن ابن زيدون وبعد أن يقدم نصه الشري الرائع لوصف ذلك اللقاء يقول : فلما انفصلت عنها صباحاً ، أنسدتها ارتياحاً<sup>(٢٢)</sup> :

### ودع الصبر محب ودع

بينما نجد المقربي في نفح الطيب يذكر فيما يخص ذلك اللقاء التالي :  
ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الآيات<sup>(٢٣)</sup> :

### ودع الصبر محب ودعك

هذا التباهي يصاحب الكثير من القصائد فمنهم من ينسبها لابن زيدون ومنهم من ينسبها لولادة . ومنهم أيضاً من قال : إن ابن زيدون لم يذكر ولادة في شعره صراحة إلا في بيتن من الشعر وهما :

وغرّك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض<sup>(٢٤)</sup>

والثاني :

أكرم بولادة ذخراً للآخر لو فرقْتْ بين بنيطار وعطّار<sup>(٢٥)</sup>

وما كان يؤخذ على ولادة علاقتها غير الطبيعية بهجة القرطبية ، حيث يقول ابن سعيد في مغربه : " إن أباها كان يبيع التين ، وكانت هي تدخل عند ولادة بنت المستكفي الشاعرة ، وكانت من أجمل نساء زمانها ، وأخلفهن روحًا ، فعلقت بها ولادة ، ولزمت تأدبيها ، إلى ان صارت شاعرة"<sup>(٢٦)</sup> . ويقول علي

<sup>(٢١)</sup> دراسات في الأدب الأندلسي ، ذكر سابقاً ، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

<sup>(٢٢)</sup> الذخيرة لابن بسام ، ذكر سابقاً ، ص ١٩٩.

<sup>(٢٣)</sup> نفح الطيب للمقربي ، ذكر سابقاً ، ص ٢٠٦.

<sup>(٢٤)</sup> ديوان ابن زيدون ، كرم بستانى ، ذكر سابقاً ، ص ٩٢.

<sup>(٢٥)</sup> المصدر نفسه ، ص ٢٨٨.

<sup>(٢٦)</sup> المقرب في حل المزب ، ابن سعيد ، جزء ١ ، ص ١٤٣.

عبد العظيم في تحقيقه لديوان ابن زيدون :<sup>(٢٧)</sup>

”كانت مهجة مكشوفة الوجه، وقاح اللسان، مما حمل الكثير من المستشرقين على إساءة الظن بهذه العلاقة المريبة، ويجعلنا المستشرق نيكل أن نزواتها لا تكاد تختلف عن النزعات التحررية بين النساء الجامعيات ونجموم المسرح والخيالة في العصر الحديث، ويشبهها مجروج صاند في مغامراتها العاطفية. إلا أنها نجد ما ينفي هذه العلاقة المريبة بهجة، هو هجاء مهجة لها وعدم اتهامها بالجنسية المثلية وإنما بالجنسية المعايرة، وذلك من خلال هجائها لها: ”فزعمت أنها ولدت وليس لها بعل، فقالت ما نقص عنه ابن الرومي :ـ

ولادة قد صرت ولادة  
من دون بعل، فضح الكاتم!  
حكت لنا مريم لكنه  
خلة هذى... قائم  
قال: وما تقدمت به فحول الذكران قوله:

لعن ملات عن ثفرها كل حائم  
فما زال يحمي عن مطالبه الثغرُ  
وهذا حمأه من لواحظها السحرُ<sup>(٢٨)</sup>

بالفعل إننا نوافق ما ذهب إليه البعض في وصف مهجة وهي أنها كانت من الخلاعة في القول والفحش في الشعر ما جعلها تناول من عفة قائلتها وخاصة ولها ذكر عورات الرجال في شعرها، وربما تتنازع مع ولادة في هذا الشأن إذا تذكرنا هجاءها لابن زيدون، وهكذا نلحظ أن مهجة لم تتورع عن هجاء ولادة كما سبق مستغلة طبيعة اسمها الذي يعني المرأة الكثيرة الإنجاب ولابن الرومي معنى عمايل ، وقيل : إنه أبي ابن الرومي لوسمع هذا الهجاء الصادر عن مهجة لأقرّ لها بالتقدم. وهنا توقف بدھة عند هذا النوع من الهجاء ، فالشاعر أحياناً يجد نفسه وعلى الرغم من عفته قد غالب عليه الإفحاش أثناء هجائه ، ولكن إن بررنا ذلك للرجل ، فلا يمكننا أن نبرر ذلك للمرأة لأنها بطبيعتها أكثر حياء من الرجل. كما يؤخذ على ولادة موقفها الغامض من ابن زيدون أو من غيره من المحبين ، وكيف أنها تعيش عانساً طوال حياتها على الرغم من السمات التي تميزها عن غيرها. هذا ويرد علي عبد العظيم في مؤلفه على المستشرقين في اتهامهم لولادة

<sup>(٢٧)</sup> ديوان ابن زيدون ورسائله ، تحقيق علي عبد العظيم ، ص ٣١.

<sup>(٢٨)</sup> المغرب في حل المغارب لابن سعيد ، ذكر سابقاً ، ص ١٤٣ .

بالمثلية الجنسية، إذ يرى أن صلاتها بابن زيدون، تقطع بأنوثتها الطبيعية<sup>(٢٤)</sup>، ولكن علي عبد العظيم يدافع عن الاتهام الموجه لولادة بالمثلية الجنسية، إلا أنه يقول عنها: إنها كانت مصابة بالسادية sadisme وهي حب إيقاع التعذيب على الجنس الآخر، حيث تغرس بنور هذا المرض في المرأة منذ الطفولة حيث تشعر أنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء، فتشعر بمحنة وغيرة، يسمى حسد الذكورة، ويتحول هذا الحسد إلى مرض خطير بعد البلوغ وربما يكون هذا المرض عند ولادة وراثياً لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالحمر إذ إن أباها كان من المدمتين على شرب الحمراء، وإن من مظاهر السادية أن تنصب المرأة شراكها للرجل حتى يقع فريسة هواها، فتدفعه أنواع الصدود وتجلب عليه صنوف الشقاء وضروب الحرمان. ويورد هنا علي عبد العظيم مثالاً: "لقد اعترفت إحدى السيدات للعالم النفسي أشتكل Stekel فقالت: إن اللذة الجنسية ضعيفة إذا قبست باللذة التي استشعرها من العمل السادي، فهي لذة لا يمحوها الوصف، ولا تصورها الألفاظ، فإذني أشعر بشخصي يسمو ويعلو، ويملؤني الزهو والكرياء والخلال وتبلغ بي النشوة أوجها، كلما شعرت أنني بسطت سيطرتي على هؤلاء الرجال دون أن أشعّ لهم رغبة، أو أطفئ لهم شهوة فهم عبيدي، يظلون يحرون خلفي طمعاً في أن يتذوقوا حلاوة وصالى بعد أن ذاقوا مارة قسوتي وكبرياتي، فهم أتباع لي دائماً، يخدوهم الأمل في نعيمي فلا يدخلون إلا جحيمي"<sup>(٢٥)</sup>. فاعتراف هذه السيدة أمام عالم النفس نجد بعضاً من ملامحه في قول ابن زيدون:

قد نالني منك ما حسيبي به وكفى علّلتني بالمنى، حتى إذا علقت غيرت عن خلق، قد لأن لي زماناً لا يحيطن عمل، أرضاك صالحه	يا من تناهيت في إلطافه، فجفا بالنفس لم أعط من أسبابها طرفا لين النسيم، فلما لذلي عصفا ففي سيلك أنفقت البوى شرفها <sup>(٢٦)</sup>
---	---

أما المستشرق الفرنسي هنري بيريس فقد أخذ عليه وبالاستناد إلى آرائه التي أوردها في كتابه: "الشعر الأندلسي في عصر الطوائف وملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمتها التوثيقية" أن خلفيته الثقافية وهيمنة

<sup>(٢٤)</sup> ديوان ابن زيدون، علي عبد العظيم، ذكر سابقاً، ص. ٢٨.

<sup>(٢٥)</sup> المصدر نفسه، ص. ٣٩.

<sup>(٢٦)</sup> ديوان ابن زيدون، كرم البستانى، ص. ٧٠.

مفهومه المسيحي عن الإسلام، كان مؤثراً في نظرته إلى شخصية ولادة بنت المستكفي، فتحن لا ننكر عليه موضوعيته فيما يقوله بتحرر ولادة، إلا أنه يبالغ عندما يعقد مقارنة بين إسلام متشدد الرؤية حول وضع المرأة، والمسيحية التي ساعدته في تغيير مفاهيمه، ولكننا لا يمكن أن نغفل دور البيئة الجديدة والتفاعل الحاصل بين الثقافات على هذه الأرض الجديدة، وعملية التأثير والتأثير التي حصلت في مختلف جوانب الحياة في المجتمع الأندلسي الجديد، كما نلحظ جانباً آخر لا وهو تبسيطه لموضوع الحرية عند المرأة في الأندلس إذ يعزى إلى أنه كان نتيجة الصعوبات التي كانت تواجهها المرأة المسلمة في زواجهما، بسبب الوفرة التي كانت متاحة من الأسيرات والعشيقات المسيحيات اللاتي سلكن طريقهن إلى الحرير. بينما نجد رأياً آخر ينكر تأثير المسيحية في وضع المرأة الأندلسية المسلمة وهذا الرأي للمسתشرق آدم ميتز حيث يذكر إنه بتأثير الإسبان كانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وكيف يستقيم الرأي لدى بيرس إذا كنا نتحدث عن ولادة التي عاشت قبل هذا التاريخ بستة قرون، أي في القرن الحادي عشر الميلادي.

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نسجل لولادة أنها كانت أول من سن للنساء سنة السفور والخروج على الحشمة والوقار، وأنها كانت سباقة في إدارتها لصالونها ليس في تاريخ أدبنا العربي فحسب، وإنما سبقت في ذلك الأوبيات بقرن عده، فالدور نفسه الذي قامت به في الأدب الفرنسي السيدة دي ديفاند Madame de Devande في القرن الثامن عشر حيث كانت مثل ولادة ميالة للهوى والعبث، وأحبها بنقاء الفكر حينذاك أمثال: فولتير ومونسكيو، وكذلك الشيء نفسه بالنسبة للسيدة وازيل دي لسبناس Madame Wazil de Espinace. وما يلفت نظرنا هنا أن السيدتين هما من عائلات فرنسية نبيلة وبورجوازية كما كان حال ولادة.

لقد تعددت الآراء في شخصية ولادة فمنهم من اتهمها بالفحش وبالجنسية المثلية كما أشرنا ومنهم من وصفها بالطهارة، وبتقديرنا أن الظرف السياسي الذي عاشته ولادة وما ذاقته من فواجع وأرzae هو الذي كمن خلف اتخاذها هذا المنحى في حياتها وذلك كي تنفس عن كربها، وتجد ما ينبعها عما حلّ بأسرتها وبحكمبني أمية في الأندلس، ويمكننا القول هنا: إنها رفضت الزواج وبقيت عزباء إلى أن توفيت وقضت حياتها خاصة مع ابن زيدون بين مد وجزر، بين حب وانقطاع... وهكذا إلى أن كان الفراق النهائي، حيث بدأت علاقتها بابن عبدوس، وربما ليس لحب حقيقي بينهما أكثر مما هو نكبة بابن زيدون، ولا سيما بعد

توجيه رسالته الهرزلية لابن عبدوس باسمها، حيث كانت الشارة التي قصمت ظهر البعير، والتي وضعت حداً لعلاقتها به وعدم العودة إليه. وبتقديرنا أن شهرة ولادة وتفوقها على من سبقها ومن لحقها من شاعرات يعود لسبعين اثنين: الأول أنها من بيت الخلافة وابنة خليفة وصاحبة صالون أمّه الشعراء والأدباء ورجال الدولة، فاستطاعت بسحر جمالها أن تفتن جمهرة الشعراء ورجال الدولة، فوق الحسد والتنافس فيما بينهم بغية الفوز بمحبها والثاني هو ما قاله ابن زيدون فيها وهيامه بمحبها، وكلفه بوصلها، وشقاؤه بفراقها، وغيرته عليها، فكل ذلك فجر لديه طاقة الشعر الكبرى الذي أنتج ذلك المخزون الغزلي الثرّ التميز عما قيل من غيره وفي غير ولادة بنت المستكفي.

## مصادر البحث ومراجعه

١. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨ .
٢. الذخيرة في محسن أهل الجزيرة - ابن بسام، تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت ١٩٨٧ - ١٩٧٩ .
٣. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحميدي، تحقيق محمد بن طاویت الطنجي - مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ .
٤. دراسات في الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، د. وداد القاضي، د. ألبير مطلق الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس ١٩٧٨ .
٥. ديوان ابن زيدون ، تحقيق كرم بستاني ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٥ .
٦. ديوان ابن زيدون ورسائله ، تحقيق علي عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ .
٧. الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري (١١م) ابن زيدون والمعتمد بن عباد نموذجاً، علي دياب مطبعة الجمهورية ، دمشق ١٩٩١ .
٨. المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ .
٩. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، الفتح بن خاقان ، بولاق ١٨٦٧ .
١٠. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقرري ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .

# صور المقاومة في الشعر الأندلسي

□ أ. د. فيروز الموسى\*

## الملاخص

عاش العرب في الأندلس ثمانية قرون تراوحت بين مد القوة وجزر الضعف، وما إن اشتعلت نيران فتن قرطبة في فجر القرن الخامس الهجري حتى دق ناقوس الخطر، وبدأت سلسلة المآسي والمحن.

ولم يواجه الشاعر الأندلسي التكبات والمحن بروح الاستسلام والبقاء، ولم يقف موقعاً سلبياً إزاء الأوضاع المزرية التي كان يتighbط فيها المجتمع الأندلسي بل كان دوره عظيماً، فقد بث الوعي وأثار الحماس وكشف النقاب عن أسباب الضعف وبدع الانهيار.

فحمل الشعاء مسؤولية عظيمة وساروا في طريق المقاومة، مؤكدين أن للشعر دوراً في معركة الوجود، وأن الكلمة سلاح فتال يشهره الشاعر في وجه أعدائه. وأثبتت الشعاء أن الشعر المقاوم لا يقف عند حدود التكبة وتصوير الآلام وتجسيد التكبات وإرسال الآهات، وإنما شعر يستنفر طاقة الشعوب تلك الطاقة التي تحول الهزيمة إلى نصر والموت إلى حياة، هذا ما سندرسه بالتفصيل في هذا البحث.

\* أستاذة الأدب الأندلسي في جامعة البعث

لقد عاش العرب في الأندلس ثمانية قرون، تراوحت بين مد القوة وجزر الضعف، وما أن اشتعلت نيران فتنة قرطبة في فجر القرن الخامس الهجري حتى دق ناقوس الخطر، وبدأت سلسلة المأساة والحزن وكتب أول سطر في سفر الفاجعة، وكان دامياً لأن الأندلسيين كتبوا بأنفسهم عندما حاكوا خيوط الفتنة التي هزت أركان الوجود العربي الإسلامي في المغرب العربي.

ومنذ ذلك الوقت مالت حياة العرب في الأندلس إلى الهاوية، ودخلوا في طور احتضار طويل، فما كانت تظهر بوارق أمل بالشفاء والنجاة من السقوط حتى تخفي وراء ظلام اليأس والخيانة والضعف. وبين ضعف وتفكك ومؤامرات داخلية، عزقت الخلافة العربية الأموية في الأندلس، وتوزعت بين دولات صغيرة، حينذاك بدت عالمة استفهام كبيرة أمام مصير الوجود العربي في الأندلس، وكان ذلك بداية لنهضة محتمة.

إن ما حدث بعد ثمانية قرون للحكم العربي في الأندلس، وبعد أحداث كبيرة أدت إلى خراب تلك الدولة العربية العملاقة، لم يكن بعيداً عن حتمية التاريخ. وهذا يبردنا إلى قول المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون أن: ((الدولة لها أعمار طبيعة كما للأشخاص)) (١).

فعندما تكثر أسباب الخلاف، ويكبر الصدع وتتوافر الأسباب الموضوعية للانهيار في دولة ما، ويصبح أهلها غير قادرين على حمايتها يسرع الدمار إلى تلك الدولة، وتحل ساعة النهاية. ولكن مأساة سقوط الأندلس، كانت مختلفة عن سقوط وانهيار دول سبقت وتلت، فبسقوطها خسر العرب آخر معقل للوجود العربي الإسلامي في المغرب.

يقول ابن خلدون :

((في اللحظة التي فتح فيها المسلمين إسبانيا وانتهت عندها حدود إمبراطوريتهم، أصبحت أرضها مسرحاً دائماً لجهادهم المقدس، ومجالاً لشهادتهم كما لو أقيمت فوق نار شرفة وبين أنفاس الأسد وأظافره، فقد أحاط الأعداء بشعب إسبانيا المسلم من كل جانب على حين فصل البحر بينهم وبين إخوانهم في الدين)). (٢)

لقد كانت مأساة الأندلس، مأساة لعالمنا وطنية بادت وانهارت بعد احتضار طويل، ومأساة لعالمنا دينية تلاشت يوماً بعد يوم، ومأساة للإنسان العربي الذي دمره انهيار الحضارة العربية وهو يرى صرحاً من صروح الجد يتحول إلى خراب ودمار.

نكبة الأندلس كانت نكبة للمعالم الوطنية والدينية والفكرية والحضارية ، لقد أثرت نكبة الأندلس تأثيراً مباشراً في الإنسان العربي والأرض العربية فقد أثرت في الأرض التي عاش عليها قوم كانوا الفاتحين لها ، فأحبوها واندجعوا بطبعتها الفاتحة ، احبوها من أعماقهم وامتزج كل شيء فيها بروحهم ودمائهم عبر تاريخ طويل ، ثم كانوا شاهداً عياناً على سقوطها من غير رحمة للتلاشي معالم حضارتها.

فقد شاهد الإنسان العربي حضارة الأندلس تهوي ، وتدمّر معها معاهد النور والعلم التي كانت مصدر إشعاع الفكر وينبع الحضارة لتحول إلى رسوم وأطلال.

فقد هزّت النكبة وجدان الإنسان العربي في الأندلس ، وتبعد الشعر الأندلسي هذه المحن والنكبات كلها مسجلاً مراحلاً شعور الأندلسيين نحوها ، معبّراً بالدموع والدم عن تلك الإحساسات العميقية الصادقة التي كان يشعر بها الإنسان الأندلسي ، تجاه الأرض والفن والدين والإنسان.

فقد خلّد الشعر الأندلسي ، معبّراً عن نكبتها بقصائد كثيرة تفيض بالعواطف الصادقة التي تبعث من قلوب أدماها الحزن ومزقها المأسى.

ولكن مثلما خاض جنود العرب معارك ضارية للحفاظ على وجودهم في تلك الربوع الغناء ، كذلك كان الشعر سلاحاً فعالاً ، فكان الشاعر راصداً لتلك الأحداث كاشفاً وموضحاً ، وناقداً ومعالجاً ، ومحمساً ومشاركاً وداعياً إلى الثورة والدفاع عن حضارة العرب ودينهـم.

فلم يواجه الشاعر الأندلسي النكبات والمحن بروح الاستسلام والبكاء ولم يقف موقفاً سليباً إزاء الأوضاع المزرية التي كان يتخطّط فيها المجتمع الأندلسي ، بل كان دوره عظيماً فقد بث الوعي وأثار الحماس وكشف النقاب عن أسباب الضعف وبدء الانهيار.

لقد سخر الشعراء أدبهم لخدمة دولتهم والذود عن حياضها ومقدساتها وأدركوا أن الكلمة المقاتلة تؤدي دورها في المعركة ، فحمل الشعراء مسؤولية عظيمةً وساروا في طريق المقاومة ، ودقّوا ناقوس الخطر محذرين الملوك بإحساسهم المرهف ، وضميرهم القومي الحي من الخطر الداهم ، ولفتوا نظر الشعب إلى تقاعس القادة الذي أدى بالأمة إلى فقدان كرامتها ومقدساتها ، فالقادة في لهو ومجون لا يسهرون على أمن الأمة وحفظ مقدساتها ، وإنما كانوا غارقين في ملاهيهم بين كأس يشربها وقينية يسمعها ، وحرب يعلنها على جاره ، بينما أفواه الإسبان فاغرة لاتهام الدولة العربية.

وقد اندفع أبو حفص الوزير عمر بن حسن الهزوني إلى الجهاد ، يذكر المعتصم بخطر الفرجنة الداهم ويدعوه إلى الجهاد قائلاً : (٣)

أعبداد ضاق الذرع واتسع الخرق ولا عرب في الدنيا إذا لم يكن الشرق  
ودونك قوله طال وهو مقصّر فللعنين معنى لا يعبره النطق  
إليك انتهت آمالنا فارم ما دهـى بعزمك يدفع هامة الباطل الحقـ  
ويرسل الشاعر رسالة أخرى إلى المعتمد بن عبـاد عندما حلـت الكارثـة بمـدنـية بـرشـترـ يـخـثـهـ فيهاـ عـلـىـ الجـهـادـ  
ويمـذـرهـ منـ الخـطـرـ المـحـدـقـ بـقولـهـ : (٤)

أعبدـادـ حلـ الرـزـءـ والـقـومـ هـجـعـ عـلـىـ حـالـةـ مـنـ مـثـلـهاـ يـسـتوـقـعـ  
فـلـقـ كـتـابـيـ مـنـ فـرـاغـكـ سـاعـةـ وإنـ طـالـ فـالـمـوـصـوفـ لـلـطـولـ مـوـضـعـ  
وـيـنـقـمـ السـمـيـسـ الشـاعـرـ الثـائـرـ،ـ النـاـقـدـ عـلـىـ مـلـوكـعـصـرـهـ لـأـنـهـ شـارـكـواـ فـيـ ضـيـاعـ دـوـلـةـ الـأـنـدـلـسـ وـخـذـلـواـ  
شـعـبـهـ فـيـقـولـ مـعـاـبـاـ مـنـذـراـ: (٥)

رجـونـاـكـ فـمـاـ أـنـصـفـتـمـونـاـ وأـمـلـنـاـكـ فـخـذـلـتـمـونـاـ  
سـنـصـبـرـ وـالـزـمـانـ لـهـ انـقلـابـ وـأـنـتـمـ بـالـإـشـارـةـ تـفـهـمـ وـنـاـ  
لـقـدـ وـاجـهـ شـعـراءـ الـأـنـدـلـسـ مـلـوكـهـ بـجـرـأـةـ وـشـجـاعـةـ فـانـتـقـدـواـ سـيـاسـاتـهـمـ وـفـضـحـواـ أـسـالـيـبـهـمـ وـعـرـواـ  
أـسـالـيـبـ حـكـمـهـمـ المـفـسـخـ وـكـثـرـةـ الشـعـرـ الذـيـ يـتـقـدـ سـيـاسـةـ الـمـلـوـكـ ،ـ وـيـعـبرـ عنـ شـعـورـ الـأـنـدـلـسـيـنـ وـيـبـحـثـ عنـ  
مـنـقـذـ يـتـمـ عـلـىـ يـدـهـ التـحرـيرـ وـاستـرـجـاعـ ماـ يـسـقطـ مـنـ الـمـدـنـ يـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ ،ـ لـإنـقـاذـ سـمـعـةـ الـإـسـلـامـ وـالـحـفـاظـ عـلـىـ  
مـعـاـقـلـهـ فـيـ الـمـغـرـبـ ،ـ وـبـعـدـ أـنـ سـقـطـتـ طـلـيـطـلـةـ ،ـ اـهـتـزـ الشـعـورـ الـعـرـبـيـ وـانـبـرـيـ الشـعـراءـ يـصـرـخـونـ فـيـ وـجـهـ مـلـوكـهـمـ  
مـؤـبـيـنـ لـأـنـيـنـ كـمـاـ صـاحـ أـبـوـ الـحـسـنـ بـنـ الـجـدـ فـيـ قـصـيـدةـ يـمـدـحـ بـهـ أـمـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ يـوـسـفـ بـنـ تـاشـفـينـ : (٦)

فـيـ كـلـ يـوـمـ غـرـبـ فـيـهـ مـعـتـبرـ نـلـقـاءـ أوـ يـلـقـانـاـ بـهـ خـبـرـ  
أـرـىـ الـمـلـوـكـ أـصـابـتـهـمـ بـأـنـدـلـسـ دـوـاـئـرـ السـوـءـ لـاـ تـبـقـيـ وـلـاـ تـذـرـ  
نـامـواـ،ـ وـأـسـرـىـ لـهـمـ تـحـتـ الدـجـىـ هـوـىـ بـأـنـجـمـهـمـ خـسـفـاـ وـمـاـ شـعـرـواـ  
وـكـيـفـ يـشـعـرـ مـنـ فـيـ كـفـهـ قـدـحـ يـحـدـوـ بـهـ فـلـهـيـاهـ الـسـنـايـ وـالـوـتـرـ  
صـُـمـتـ مـسـامـعـهـ فـيـ غـيـرـ نـفـمـتـهـ فـمـاـ تـرـبـهـ الـأـيـاتـ الـسـورـ  
وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ تـقـاعـسـ الـمـلـوـكـ وـالـحـكـامـ بـاـنـ ضـمـيرـ الـأـمـةـ ظـلـ يـصـرـخـ مـسـتـجـداـ ،ـ وـبـقـيـتـ الـكـلـمـةـ الصـادـقةـ  
الـلـتـزـمـةـ تـنـاضـلـ فـلـمـ يـصـبـ الشـعـراءـ بـالـفـتـورـ وـاسـتـمـرـواـ فـيـ الـاسـتـصـرـاخـ وـكـشـفـ مـفـاسـدـ الـحـكـامـ وـتـعـرـيـةـ مـفـاسـدـهـمـ  
وـبـيـانـ التـفـسـخـ الـدـينـيـ الـذـيـ أـصـابـ الـمـجـتمـعـ ،ـ وـالـذـيـ يـعـدـ مـنـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ قـادـتـ الـأـنـدـلـسـ إـلـىـ مـخـتـهـاـ.

إن الحنة مازالت في بدايتها ويجب رفض الهزيمة والقضاء على كل أسبابها وقيام الناس من أجل الدفاع عن كرامتهم ومقدساتهم وأخذ الثأر للإسلام والمسلمين ، ولذلك هبَ الشعراة مطالبين ملوك الطوائف بالوقوف في وجه الفرجنة فيقول الشاعر : (٧)

خنعوا ثار الديانة وانصرواها فقد حامت على القتلى النسور  
ولا تهمنوا وسلوا كلَّ غصبٍ تهاب مضارياً عنِّه السنحورُ  
ولا تجئن إلى سلمٍ وحارب عسى أن يجبر العظيمُ الكبيرُ  
وموتوا كلَّكم فالملاوت أولى بكُمْ أن تختاروا أو تجسروا

فالشاعر يحرض على الحرب وعدم الاستسلام للهزيمة والرکون إلى حياة الذل والإهانة فإما حياة العز والكرامة وإما الموت في ميدان الشرف والقتال.

وتعلو الصيحات متالية على مر السنين مع توالي غزوات الفرنج للدوليات الأندلسية. فالشاعر ابن أبي الخصال يستهض همة الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، داعياً إياه إلى قتال العدو مثيراً عاطفته الدينية بقوله : (٨)

وانهض نهوضَ أبي النفسِ معتزمٍ واسلك سبيلاً أبي إسحاقِ معتصمٍ  
وخذ بثأرك في البيضاء واحتكم يا غيرة الله قد عانيتِ فانتقمي

وأمام المزائم التي يلحقها الفرنج التورمان بالعرب في صقلية.

يقف ابن حميس ثائراً غاضباً، ينبه قومه إلى الخطر الداهم، ويحثهم على الوقوف في وجه الأعداء بلهجـة حماسية، وهو يدعـونـهم لهجر النـومـ والـهجـومـ بـسيـوفـهـمـ لـلفـتكـ بـأـعـادـهـمـ فيـقـولـ: (٩)

بني التـغرـ لـستـمـ فيـ الـوـغـىـ مـنـ بـنـيـ أـمـىـ إـذـاـ لـمـ أـصـلـ بـالـعـربـ مـنـكـمـ عـلـىـ الـعـجمـ  
دـعـواـ النـوـمـ إـنـيـ خـائـفـ أـنـ تـدـوـسـكـمـ دـوـاهـ وـأـنـتـمـ فـيـ الـأـمـانـيـ مـعـ الـحـلـمـ  
فـرـدـواـ وـجـوهـ الـخـسـيلـ خـسـوـكـرـيـهـ مـصـرـحـةـ فـيـ الرـوـمـ بـالـشـكـلـ وـالـتـنـمـ

لقد عانى الأندلسـيونـ مـعـانـاةـ شـدـيـدةـ بـعـدـ سـقـوـطـ مـدـنـهـمـ مـاـ جـعـلـ النـكـبةـ تـسـعـ وـتـعـمـقـ فـيـ نـفـوسـ الشـعـراءـ  
الـذـينـ اـنـبـرـواـ يـحـضـونـ الـقـادـةـ وـالـأـهـلـ عـلـىـ الـنـهـوـضـ فـيـ وـجـهـ الـأـعـدـاءـ.

وقد أدرك أبو يعقوب أن الجزيرة قد أصبحت بمحاجة إلى فتح جديد فعلية أن يعد العدة للجهاد الأكبر والطويل ليعيد به للإسلام صفحته الجيدة، فكتب عنه ابن طفيل إلى عرب إفريقية يحثهم على القodium لخوض معركة التحرير في الأندلس وذلك في قصيدة يقول في أولها : (١٠)

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل  
وقوموا لنصر الدين قيمة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صايل  
تعالوا فقد شدت إلى الفزونية عاقبها مقصورة بالأوائل  
هي المفروزة الفراء والموعد الذي تنجز في أفق الهدى بدلائل  
فطبروا إليها يا هلال بن عامر ثقلاً خفافاً بين حاف وناعل

إن القصيدة الأندلسية رافقت الحنة في كل مراحلها، وجسدت كل صورها وأبعادها، فهي تخلد شعور الأمة في حزن وألم وبكاء، وتسجل انفعالاتها وإحساساتها في كل وقت وحين، وكذلك صورت مراحل الثورة ومراحل السقوط، فلم يشّع الشعرا ولم تعرف نقوشهم الذل والاستسلام، بل تحملوا مسؤولية كبرى في الأحداث التي تجري في البلاد، فهم يحسون بعمق المجرح حقاً، ويدركون أن عليهم أن يتجاوزوه ويتساموا فوق الآلام والأحزان وقد اتجه الشعراء إلى الملوك يستصرخونهم ويشرون هممهم كما فعل ابن الأبار عندما ذهب إلى أبي زكريا الخصي مستجداً مستيناً قائلاً : (١٢)

نادتك أندلسُ فلبَّ نداءَها واجعل طواغيتَ الصليبِ فداءَها  
واشدد بخيلك جرَّد خيلك أرزَها تردد على أعقابِها أرزاًها

فالخصيون هم الأمل الوحيد الذي يقى للأندلسين وهم الذين سيحطمون الأعداء ويسخرون شوكتهم ويعيدون للأندلسين كرامتهم وثقلهم بالمستقبل لذلك ناداهما الشاعر قائلاً :

هِبْوَالْهَا يَا مِعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ آنَ الْمُبْوَبْ وَأَحْرَزُوا عَلَيَّهَا

وينضرعَ اللَّهُ تَعَالَى طَالِبًا شَفَاعَتِهِ لِإِنْقَاذِ الْأَنْدَلُسِ بِقَوْلِهِ :

رَشَّ أَيْهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمَ جَنَاحَهَا وَاعْقَدَ بِأَرْشِيهِ النَّحَّةَ رَشَّاهَا  
حَاشَاكَ أَنْ تَفْنِي حَشاشَهَا وَقَدْ قَصَرَتْ عَلَيْكَ نَدَاءَهَا وَرَجَاءَهَا

ويكرر ابن الأبار صرخة الاستغاثة والاستجاد والدعوة إلى القتال في قصائد، أخرى في معانيها عن القصيدة السابقة كقوله :

أدرك بخبلك خليل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا  
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلأ ولا مرسا  
واحبي ما طمست منها العداة كما أحبت من دعوة المهدى ما طمسا  
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً وبيت من نور ذلك الهدى مقتبسا  
هذى رسائلها تدعوك عن كثب وأنت أفضل مرجولن يثسا  
يا أيها النصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا  
وانصر بعيداً بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعاً لهم زكي وخسا

لقد كان ابن الأبار من الشعراء الذين أكثروا من شعر الاستصراخ والاستجاد والتحت على القتال، التصدي للأعداء فيعبر بقوه وعزمه وإيمان. فهو يقول في قصيدة يصف فيها معركة تراثت له فيها صورة النصر فيعبر بأنفاسِ ثوريه : (١٥)

رحى المياجِ دائرةً عليكم بما ينهد حنيفته حراء  
ستصدُّكم وتصدُّكم خيول من الأسطول ضمرها الجناء  
كامثال المذاكِي سابحات لها عادولن فيه اعتداء  
جوار منشآت من تبار إلى الفوز العظيم بما تشاء  
وجسد مقربات أيدتها على من علت في الأرض السماء

وتعالت أصوات الشعراء في الأندلس والمغرب مطالبة الحكماء بالقيام للجهاد والوقوف مع الشعب في وجه العدو، فقد خاطب الشاعر أبو عبد الله بن يحيى البهلوبي السلطان ابن عبد الله محمد بن علي الإدريسي الذي بُويع بالخلافة سنة ٨٦٩هـ / قائلاً :

قم للجهاد رعاك الله منتهجاً نهج الرشاد على الأقوام لوفهموا  
من بعد أندلس مازلت محتمداً لو كان يمكنني في الليل احتزم

وقد كان الشاعر الأندلسي يعد المشاركة في الحث على الجهاد من أول واجباته، فكان حسُّ القومي يدفعه لاثارة الهمم، والاستجادة بالملوك، واستصرخ القبائل كما فعل ابن سهل في قصيده التي استجد بها ملوك العدوة في عاطفة دينية إسلامية قوية عندما كانت إشبيلية محاصرة من كل جانب : (١٦)

يا عشر العربَ الذين توارثوا شيمَ الحميةِ كابراً عن أكبرِ  
ناديَ الجهادِ بكم بنصرٍ مُضمرٍ يبدوا لكم بين القنا والضمرِ  
إن الإله قد اشتري أرواحكم بيعوا ويهينكم وفاء المشتري  
أنتم لحق بنصر دين بنكم وبكم تمهد من قدم الأعصرِ

ونمضي القصيدة على هذا النحو من إثارة العاطفة الدينية والدعوة للجهاد، ويتجلى فيها الطابع الإسلامي والوطني معاً .

ويرتفع صوته ليوقظ الخاملين بقوله : (١٧)

أين الحفائظ مالها لم تبعث أين العزائم مالها لا تibri  
أيهـ زمـكـمـ فـارـسـ فـيـ كـفـ سـيفـ ، وـديـنـ حـمـدـلـمـ بنـصـ

ومن ناحية أخرى يرتفع صوت الشاعر موسى بن هارون منادياً أهل إشبيلية وقد أحاط بها الدمار من كل جانب بقوله :

يا أهل وادي الحمى بالعدوة اتعشاـ هـذـاـ الدـمـاءـ فـقـدـ اـشـفـىـ بـهـ الـقـمـمـاـ  
ماـذـاـ يـطـيـبـكـمـ عـنـاـ وـحـولـكـمـ إنـ تـبـصـرـواـ دـارـ قـوـمـ أـصـبـحـتـ رـمـاـ  
ياـ حـمـصـ أـقـصـدـكـ المـدـورـ حـيـنـ رـمـىـ لـمـ يـمـرـ فـيـكـ إـلاـ وـلـاـ ذـمـاـ

لقد تناول شعراء الأندلس موضوع النكبة في شعرهم، فأكثراهم من القصائد التي تمحث على الجهاد والتي تفيض بالحس القومي، وتلتزم قضية الأمة السياسية وهي الدفاع عن الوطن والوقوف في وجه أعداء . فعلى الرغم من الألم الذي أمض قلوب الشعراء وهو يندبون الأمة الشهيدة التي ذاقت صنوفاً من العذاب وعاشت تاريخها مليئاً بالنكبات والكوارث وقد سقطت مدنها وتهدمت صروحها ولم يبق لها إلا هذا النزيف من الدموع الذي لا يرقأ ترسله من غير انقطاع فقد كان هناك بعض الشعراء مازلوا يتباشرون بأسلوب المقاومة ويدعون الناس إلى الجهاد، رغم شدة المأساة وتحملون المسؤولية للذين يتوانون في الدفاع عن

الوطن، وهذا صوت أبي البقاء الرندي ينادي بصوت مرتفع علّه يصل إلى أولئك الراتعين في دعه وراء البحر  
فيقول : (١٨)

يَا راكِبَيْنِ عَنْقَ الْخَيلِ ضَامِرَةٌ كَانُهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عَقْبَانِ  
وَحَامِلِنِ سَيِّفَ الْمَهْنَدِ مَرْهَفَةٌ كَانُهَا فِي ظَلَامِ السَّنْقَعِ نَسِيرَانِ  
وَرَاعِيَنِ وَرَاءِ الْبَحْرِ فِي دُعَةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عَزٌّ وَسَلْطَانٌ  
أَعْنَدُكُمْ نَبَأًا مِنْ أَهْلِ أَنْدَلْسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رَكْبَانِ

ويعبر ابن المرحل عن ألم دفين ويحز في نفسه أن يرى قطعه من أرضه تسقط في يد الأعداء ويري إخوانه وهم يواجهون مصيرهم المظلم ، فيجد أن من واجهه القومي أن يستغفر المغاربة للمساعدة والإنقاذ  
بقوله : (١٩)

مَاهِي إِلَّا قَطْعَةً مِنْ أَرْضِكُمْ وَأَهْلُهَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ

وفي هذه القصيدة يعبر الشاعر عن آلام أمة الجريحة وآلامها في نكبة دينها ووطنهما ، مأساة الأرض والمدن التي ضاعت وآلام الإسلام التي انتهت ويتنهى في تلك الربوع وآلام الحضارة والفنون والإنسان وإن الشاعر يحيث الناس على مقاومة العدو ويدعوا إلى الجهاد في سبيل المحافظة على رمك الإسلام وهو يتخذ إلى ذلك كل أسباب التأثير ويقال إن القصيدة قرئت على الناس في جامع التروين بعد صلاة الجمعة وبكي الناس تأثرًا لسماعها ومنها قوله : (٢٠)

اسْتَنْصَرَ الدِّينَ بِكُمْ فَاقْدَمُوا فَأَكْمَلَ إِنْ تَسْلِمُوهُ يَسْلِمُ  
لَذْتَ بِكُمْ أَنْدَلْسَ نَاشِدَةً بِرَحْمِ الدِّينِ وَنَعَمُ الرَّحْمَ

وقد استمر الشعراً يثنون روح الجهاد ويحيثون على المقاومة ، حتى سقوط المدن الأندلسية ولكن قصائدتهم فقدت روح الحماس والقوة وغلبت عليها نبرات الحزن والبكاء ، فالشاعر أبو عمران المرابط وهو شاعر منبني الأحمر استجده بالسلطان يوسف المريني وبقصيدة ذات نغمات حزينة ونبرات شجية هو ينادي ويتساءل عن منجد للعرب والإسلام بقوله : (٢١) .

هَلْ مَنْ مَعِينِي فِي الْمَوْى أَوْ مَنْجَدِي مَنْ مَتَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَوْ مَنْجِدِي  
هَذَا الْمَدِي دَاعٌ فَهَلْ مَنْ مَسْعِي بِإِجَابَةٍ وَإِنَابَةٍ أَوْ مَسْعِدِي

يُرجوا النجاة بجهة الفردوس أو يخشى المصير الجحيم الموقد  
يا أمل النصر العزيز على العدى أجب المدى تسعد به وتوئيد  
وتعلو حدة الاستراخ، وتأجج نار الألم فيستند بالجوار علهم يغيثونهم بقوله:

أبْنِي مَرِينْ أَنْتُمْ جِيرَانِنَا وَأَحَقُّ مَنْ فِي صَرْخَةِ بَهْمَ ابْتَدِي؟؟  
أَفْلَاتِذُوبْ قَلْوِيكُمْ إِخْوَانِنَا مَا دَهَانَا مِنْ رَدِيْ أَوْ مِنْ رَدِيْ؟؟  
أَفْلَاتِرَاعُونَ الْأَذْمَةَ يَبْنَنَا مِنْ حَرْمَةِ وَحْبَةٍ وَتَوْدِيْ  
أَكَذَا يَعِيشُ الرُّومُ فِي إِخْوَانِكُمْ وَسَيَوْفِيكُمْ لِلثَّارِ لَمْ تَتَقْلِدِ

وقد لبّيَ المغاربة النداء ورد الشاعر مالك بن المرحل على ابن المرابط بقصيدة يقول في مطلعها: (٢٣)  
شَهَدَ إِلَهٌ وَأَنْتَ بِأَرْضِ اشْهَدِي أَنَا أَجْبَنَا صَرْخَةَ الْمُسْتَجِدِ

وهنا يبدو أن ابن المرحل يشهد الأرض على قتالهم وكأنها هي المقصودة بهذا الجهاد. فالله والأرض شاهدان على كفاحهم، الذي بدا يقتصر على المحافظة على ما بقي من معالم الإسلام في غرناطة ومالقة. وكان ابن الخطيب من الشعراء الذين حملوا لواء الشعر المدافع عن العروبة والإسلام في المغرب العربي، فاستطاع بشعره أن يعيد بوارق الأمل إلى نفوس الأندلسيين فهو يتحدث بقوة وبيث الحماس، ويستلهم الماضي بقوله: (٢٤)

لَا يَعْزِزُ الرُّومُ مَا نَالُوا وَمَا فَعَلُوا فَإِنْ ذَلِكَ إِمْلَاءٌ إِلَى أَمْدِ  
فَلَلْقَلْوَبِ مِنَ الْغَمَاءِ، مَنْصُرٌ بِمَا تَقْدِمُ مِنْ بَدْرٍ وَفِي أَحَدِ  
وَالْعَزْمُ بَادٌ وَصَنَعَ اللَّهُ مَرْقَبَ وَالْفَتْحُ مُنْتَظَرٌ إِنْ لَمْ يَحْنَ فَقَدِ  
وَعَادَةُ النَّصْرِ لَا تَسْتَبِطُ مَقْدِمَهَا إِنْ لَمْ تَوَافَكِ فِي سَبْتٍ فَقَدِ أَحَدٌ

ويضي ابن الخطيب في استئارة هم الأندلسيين وتغريض عواطفهم الدينية والقومية وفي حين بدأت فيه البئم تفتر، والنفوس تيأس فيقول: (٢٥)

أَخْوَانِنَا لَا تَنْسُوا الْفَضْلَ وَالْعَطْفَا فَقَدْ كَادَ نَبْرَالَهُ إِنْ يَطْفَأِ  
وَإِذَا بَلَغَ الْمَاءُ الْعَذْبَى فَتَدارَكُوا فَقَطْ بَسْطُ الدِّينِ الْخَيْفُ لَكُمْ كَفَا

تحكَّم في سكان أندلس العدا فلهما على الإسلام ما يبنهم لهما  
وكيف يعيث الكفر فينا دوننا قبائل منكم تعجزُ الحصرُ والوصفا  
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا وهبوا نصر الدين فينا فقد أشفا  
وهانحن، قد لذنا، بعزم حماكم ونرجو من الله الإدالـة واللطـفـا

وهنا نلاحظ أن بوارق الأمل بالنصر قد تلاشت، وأن ثورة الحماس المتاجحة قد خبت وبدأت نبرة  
الشعر تميل إلى الضعف والاستجاد اليائس من مصير آلت إليه الأندلس كاملة، وكان آخر معاقلها مدينة  
غرناطة، فإن الخطيب كان من أكثر شعراء الأندلس استجاداً واستصراخاً فهو يقول مستصرحاً للسلطان أبي  
عثمان : (٢٦)

يَا ناصِرَ الْحَقِّ الْغَرِبِ وَأهْلِهِ أَنْصَاءَ مَسْفَبَةِ وَفِلَ خطوب  
حَقَّ ظُنُونَ بَنِيهِ فِيكَ فَإِنَّهُمْ يَتَعَلَّلُونَ بـ— وَعِدَكَ الْمَرْقُوب  
فَانظُرْ بَعْنَ العَزِّ مِنْ ثَفَرَ غَدَا حَذَرَ العَدَا يَرْنُو بَطْرَفِ مَرِبْ  
نَادِتُكَ أَنْدَلُسَ وَجَدَكَ ضَامِنَ لَا تَخْبِبْ لَدِيكَ فِي مَطْلُوب  
غَصَبَ الْعَدُو بِلَادِهَا وَحَسَامِكَ الْمَاضِي الشَّبَا مَسْتَرْجِعُ الْمَغْصُوب  
وَالرُّومَ فَأَرْمَ بِكُلِّ رَحْمٍ ثَاقِبٍ يَذْكُرِي بِأَرْبِعَهَا شَوَاظِ لَمِبِ

وعندما سقطت غرناطة فقد العرب آخر معلم للعرب والإسلام في المغرب، وأدرك العرب آنذاك أنهم  
فقدوا فردوساً وابرى الشعراً يشيرون إلى الأخطار المحدقة بالأمة العربية - الإسلامية كلها وليس بالأندلس  
والمغرب فقط وقد أشار ابن الدقون إلى تلك الأخطاء وهو يики غرناطة قائلاً : (٢٧)

هَذَا النَّزِيرُ جَهَارًا جَاءَ يَسْنَدُنَا وَالْأَذْنَ في صَمْمِ عَنْ قَيْلِ أوْ قَالِ  
وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يَرَادُ بَنَا نَمْشِي عَلَى مَهْلَةٍ مِنْ طَوْلِ إِمْهَالٍ  
يَا أَهْلَ فَاسِ أَمَا فِي الْفَيْرِ مَوْعِدَةٌ أَنَّ السَّعِيدَ لِمَوْعِدِي بِأَمْثَالٍ  
وَلَا سَيْلَ إِلَى التَّرِيقَ غَيْرِ تَقْرَى وَالْحَزْمُ فِي سَعَةٍ مِنْ قَبْلِ آجَالٍ  
وَأَمَامِ الْحَزْنِ الشَّدِيدِ الَّذِي أَلَمْ بِأَهْلِ أَنْدَلُسِ، بَعْدَ أَنْ سَقَطَتِ الْمَدْنَ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الْوَاحِدَةِ تَلَوَ الْأُخْرَى،  
نَجَدَ أَنَّ الشَّعْرَاءَ قَدْ ابْرَوُا يَتَقدُّمُونَ سَاسِهِمْ وَيَلْقَوْنَ اللَّوْمَ عَلَيْهِمْ، إِذَا لَوْ لَا تَهَاوُنُهُمْ وَتَفْرَقُهُمْ لَمَّا دَبَّ الْضَّعْفُ

بين صفوفهم وتمكن العدو من التغلب عليهم فقد رأى موسى بن هارون أن الحكام هم الذين ضيّعوا الأندلس لما ألم بهم من تفرقة وضعف وتنافس على السلطة وأمور الدنيا : فقال (٢٨)

يأسائي عن مصاب المسلمين بها أصح لتسمع أمراً يورث الصما  
لما نفرق الأهواه واضطررت نار السبغة فقامت للردي علما  
ونزوع الأمر أهلوه وقام به من لم يجد فدماً فيه ولا قُدماً

وقد توقع البيسطي هذا المصير المفجع للمدن الأندلسية كلها بعد أن سقط حصن (أرشدونه) ذلك المعلم الحصين ، فتوقع الانهيار لما تبقى من حصون ومدن لأن الشقاق قد اضعف الحكماء فقال : (٢٩)

خيال هذا الحال تؤذن بالهلال وتقضي لنا بالذل والعزل للشرك وإن بلاد المسلمين بأسيرها بهذا القطر يحويها العدو بلا شك ونحن على نهج الشتات مسيرنا لإدرك ممال المسلمين أو الملك

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر لسان قومه ، وإن كانت الأندلس قد سقطت فقد ترك سقوطها في القلوب غصة وفي العيون دمعة ، وإن تلك الأصوات الحرة التي وقفت تستصرخ العزائم وتثير الهمم ، لم تستسلم بسهولة ، وبقيت روح الحماس متأججة في النفوس العربية ، مؤكدة أن للشعر دوراً في معركة الوجود ، وأن الكلمة سلاح فعال يشهره الشاعر في وجه أعدائه ، وقد أثبت الشعراء أن الشعر المقاوم لا يقف عند حدود النبكه وتصوير الآلام وتجسيد النكبات وإرسال الآيات والآهات وإنما هو شعر يستثمر طاقة الشعوب تلك الطاقة تحول المهزعة إلى نصر والموت إلى حياة .

### العواشي:

١. مقدمة ابن خلدون - الفصل الرابع عشر - ص ٣٠٤ .
٢. ابن خلدون العبر - ط ١ / ٣٧٢ - .
٣. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام / ج ١ ص ٨٩ .
٤. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام / ج ١ ص ٩٠ .
٥. الذخيرة ٣٨٧ / ١ .
٦. أعمال الأعلام - ابن الخطيب س ٤٤١ .
٧. نفح الطيب - أحمد بن م حمد (المقري) : ج ١ ص ٩٠ .
٨. ديوان ابن أبي الحصال ص ٢١ .
٩. ديوان ابن حمديس ٤١٦ .
١٠. المن بالإمامية - ابن صاحب الصلاة ص ٢١١ .
١١. المن بالإمامية ص ٤١٥ .
١٢. نفح الطيب ج ٦ ص ٢٢٣ - ٢٢٧ - .
١٣. نفح الطيب ج ٦ ص ٢٢٣ - ٢٢٧ - وديوان الآبار ص ٧ .
١٤. نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٠ الديوان ص ٢١١ ت .
١٥. نفح الطيب ج ٦ ص ٢٠٠ - الديوان ص ٢١١ .
١٦. الاستقصاء لأحمد بن خالد ج ٢ - ص ١٥٧ .
١٧. الأخيرة ص ٧٣ / ٧٣ / ديوان ابن سهل ، ص .
١٨. نفح الطيب ج ٦ ص ٢٣٢ .
١٩. الذخيرة ص ١٠٩ .
٢٠. الذخيرة ص ١٠٩ .
٢١. نفح الطيب ج ٦ ص ١٩٨ - ٢٠٠ .
٢٢. نفح الطيب ج ٦ ص ١٩٨ - ٢٠٠ .
٢٣. نفح الطيب ج ٧ ص ٢٢٠ .
٢٤. الصيб والجهام ص ٢٨٣ - ٢٩١ - .
٢٥. الصيб والجهام ص ٦٢٨ .

٢٦. الصيب والجهام ص ٢٩١ .
٢٧. أزهار الرياض ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها .
٢٨. المراكشي ( ابن عذاري - البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨١ ) .
٢٩. البسطي آخر شعراء الأندلس - ابن شريفة محمد ص ١٧٤

#### **قائمة المصادر والمراجع:**

١. أزهار الرياض - المقرى - تحقيق مصطفى السقا - القاهرة ١٩٣٩ م.
٢. الاستقصاء - أحمد بن خالد - العراق - بلا تاريخ .  
الصيب والجهام ( لسان الدين ابن الخطيب ) تحقيق محمد الشريف قاهرة الجزائر ١٩٧٣ م.
٣. أعمال الأعلام - ابن الخطيب - تحقيق ينفي بروفاتل - الرباط ١٩٣٤ م .
٤. البسطي آخر شعراء الأندلس - شريف محمد .
٥. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ابن عذاري المراكشي - دار الثقافة - بيروت .
٦. ديوان ابن أبي الحصان - رضوان الداية - دمشق .
٧. ديوان ابن حمديس صحيحه وقدم له إحسان عباس ، - دار الثقافة - العراق ١٩٧٥ م .
٨. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - علي ابن بسام - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت .
٩. ابن خلدون - العبر - ط١ - أروبا - بلا تاريخ .
١٠. المقدمة - ابن خلدون - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - مصر ١٢٨٤ هـ .



# ابن الخطيب الأندلسي إحاطته

□ د. فريد أمضشو \*

أنجبت إمارة غرناطة، خلال القرن الهجري الثامن، عدداً من الشعراء والكتاب والأدباء الذين أعادوا للأدب الأندلسي المتميّز الكثير من شبابه وبريقه وقوته؛ منهم ابن خاتمة الأنصاري؛ شاعر ألمورية، وأبن جُرَيْ، وأبن رِمْرُك. ولعل من أبرزهم جميماً الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي كان عقريّة فذة، وأدباً موسوعياً خاصاً غماراً مختلفاً ميادين المعرفة والإبداع من شعر ونظم وترسل وموسيقى وطب وتصوف ورحلة وتاريخ... وصف في جل المجالات مؤلفات نفيسة؛ بعضها وصل إلينا (في حدود الثلث حسب بروفسال)، وأكثرها لا نعرف عنه سوى اسمه أو أجزاء منه فقط.

ومن أشهر كتب ابن الخطيب وأبرزها وأضخمها كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" الذي يشكل موسوعة أندلسية عظيمة في التاريخ والأدب معاً. ولأهمية تلك، بادر الكثير من دارسي الأدب ومؤرخيه بمدارسته والتأمل في محتوياته والنظر في مضامينه ومنهاجه العام ونحو ذلك. وستسعى هذه الورقات إلى التعريف بشخصية ابن الخطيب من خلال الوقوف عند أطوار حياته التي تراوحت بين الأندلس والمغرب، وتسلیط الضوء على أبرز مؤلفاته، وبيان مكانتها العلمية والأدبية السامية (المبحث الأول)، وإلى التعريف بأحد تلك المؤلفات من خلال الوقوف عند مضامينه، وتوضیح منهجه، وإبراز قيمته (المبحث الثاني).

\* عضو هيئة التدريس في جامعة حلب.

## ١- من هو ابن الخطيب؟

لقد خصَّ ابن الخطيب نفسه بترجمةٍ وافية في آخر كتابه "الإحاطة"<sup>(١)</sup>، ذكر فيها أصله ونسبه وسياسته ومؤلفاته وتنقلاته ومشيخته وما إلى ذلك. والملحوظ أن هذه الظاهرة شائعة في التراث العربي الإسلامي؛ إذ ألف الكثير من أدبائنا القدامى تراجم خاصة بهم، ومنهم - إلى جانب ابن الخطيب - معاصره وزميله العلامة عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ) الذي وضع ترجمة مطولة لنفسه في مؤلفه "التعريف" بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وكذلك العلامة جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) الذي كتب ترجمة لحياته في الجزء الثاني من كتابه الموسوم بـ"حسن المحاضرة"، وابن حجر في "قضاء مصر"، وأبي شامة في "كتاب الروضتين"، والفالاسي في "تاريخ مكة". كما أن في الجزء الثالث من "فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب العديد من المعلومات عن ابن الخطيب، ذلك بأنَّ أحمد المقرري التلمساني (ت ٤١٠ هـ) كان من المعجبين كثيراً بهذا الأخير. وأفرد له، أيضاً، معاصره وصديقه ابن خلدون ترجمة في الجزء السابع من تاريخه الكبير المسمى "العبر".

المتحدث عنه، هنا، هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السُّلْماني. وـ"السلماني" نسبة إلى "سلمان"، وهو حيٌّ من مراد من عرب اليمن القحطانية. وكان هذا اللقب يغلب عليه، ولا سيما في المغرب، حيث كان يُعرف بـ"ابن الخطيب السلماني". وأما "لسان الدين" فيقول لنا ابن الخطيب، في مستهل ترجمته لنفسه في مؤخرة "الإحاطة"، إنه يلقب من الألقاب المشرقة بـ"لسان الدين"<sup>(٢)</sup>، ولم يقل لنا متى، ولا في أي ظرف أُسْتَغَّ عليه هذا اللقب. ولقب الرجل، أيضاً، بـ"ذِي الوزارتين"؛ لجمعه بين مهنة الوزارة ومهنة الكتابة. وقد ولد بمدينة لوسا (Loja)، التي تبعد عن غرناطة (أو إغريناطة) ب نحو عشرة فراسخ، في الخامس والعشرين من رجب عام ٧١٣ هـ، الموافق للسادس عشر من نوفمبر عام ١٣١٣ م. ويتحدر من بيت علم وجاه وفضل وشرف؛ بحيث يحدّثنا ابن الخطيب نفسه بأنَّ بيتهما كان يُعرَف بـ"بني الوزير"، ثم سُميَ كذلك بـ"بيت الخطيب". وسبُّ التسمية الأخيرة أنَّ جده الأعلى كان عالماً ورعاً يُلقِي دروسه ومواعظه تحت أطلال برج؛ ومنه غلب عليه اسم "الخطيب"، وأورث بنيه هذا اللقب، فُعِرُفُوا بـ"بني الخطيب" منذ ذلك الإبان. كما أنَّ أباَه عبد الله بن سعيد (ت ٧٤١ هـ) يعد من علماء لوسا في زمانه، وكان له، فضلاً عن ذلك، مركز متَّميز داخل المخزن الغرناطي أو البلاط السلطاني؛

<sup>(١)</sup> ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحر. وتق.: محمد عبد الله عنان، مكتبة الحاخامي، القاهرة، ط. ٢، ١٩٧٣، ٤/٤٣٧، وما بعدها.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ٤/٤٣٩.

إذ إنه تقلد جملة من المناصب السياسية، أهمها اشتغاله في ديوان الإنشاء مع الأديب الرئيس أبي الحسن بن الجياب. وقد خصَّ ابن الخطيب أباه بترجمة في "الإحاطة".

نشأ ابن الخطيب وتربَّع في غرناطة؛ عاصمة بني الأحرر، التي انتقلت إليها أسرته لأسباب معينة. ومع أنه استقرَّ بها منذ حادثة سنه، إلا أنه لم ينسَ قطُّ لوسيا، بل ظلت حاضرة في قلبه، راسخة في وجده، وكأنها أمُّ له. وما يزكِّي هذا الكلام أنه تغنى بذلك الحب مراراً في قصيده، بل إنَّ تلقيه في بعض قصائده يسميهُ "فتحة غرناطة".

لسان الدين بن الخطيب عالمٌ، كاتبٌ، شاعرٌ، مترسلٌ، سياسيٌ، ناظمٌ... أخذ العلم والأدب عن ثلة من الشيوخ وكبار العلماء والأدباء في عصره عن طريق التلمذة لهم. يقول في الترجمة التي كتبها ل نفسه: "قرأتُ كتاب الله عز وجلَّ على المكتب... أبي عبد الله بن عبد الولي العواد كتاباً ثم حفظَ، ثم تجويداً إلى مقرئ أبي عمرو... ثم نقلني [والدي] إلى أستاذ الجماعة... الشيخ الخطيب أبي الحسن القيجاطي، فقرأتُ عليه القرآن والعربية، وهو أول من انتقمت به. وقرأت على الحبيب الصدر أبي القاسم بن جزي. ولما زلت قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخار البيري... وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنِّن أبي عبد الله ابن بكر رحمة الله. وتأدبَت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى... أبي الحسن ابن الجياب. ورويتُ عن كثيرٍ من جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية... ومن أهل العدوة الغربية والمشرق، الكثير بالإجازة. وأخذتُ الطبع والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي ذكري بن هذيل ولازمته..."<sup>(١)</sup>. وإن الذي يتضمن كتباً ابن الخطيب يمده دائم الاعتزاز بمشايخه الذين هم ينابيع علمه، وروافد ثقافته الموسوعية. ولعل أبرز دليل على قوَّة هذا الاعتزاز والحب أنَّه كان كثيراً الاستدلال بكلامهم في كتاباته، ولا سيما التاريخية منها، ثم إنَّه ترجم لهم في إحاطته ترجماتٍ نقلها المقرئ التلمساني في الجزء الثالث من "فتحة". وما يتفق عليه الباحثون ودارسو سيرة ابن الخطيب أنَّ الطبع والأدب أبرز المجالات المعرفية التي تفوق فيها مُذْ صغره.

ومثلاً تلتمذ الرجل بجملة من الشيوخ والأساتيد، كان له عددٌ من التلاميذ النبهاء الذين أخذوا عنه العلم والأدب وفنون السياسة، واغتربوا من بحر علمه الغزير. ومنهم أبو عبد الله الشرسبي؛ مؤدب أولاد السلطان الغنِيَّ بالله النصري (ت ٧٩٣هـ)، الذي تولى نسخ "الإحاطة" أولَ مرة من مسودات أستاده، فجاءت هذه النسخة في ستة مجلدات؛ حسبما يذكر المقرئ. ومنهم ابن زُمرُك الذي كان، في بايِّن الأمر،

<sup>(١)</sup> نفسه، ٤٥٩ / ٤، بتصرف.

معاوناً له في الوزارة، ثم تحوّل، فيما بعد، إلى واحدٍ من أكبر خصومه، طالما حاول الإيقاع به، وتکدير صفو علاقته بالسلطان الغرناطي من جانب، وبالبلاط المغربي من جانب آخر.

وعاصر ابن الخطيب مجموعة من أكابر العلماء ورجال الأدب، وفي طليعتهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي أتّحَفَ البشرية بعِصْدَمَتِهِ الخالدة. وكان الاثنان يتراسلان ويتبادلان الكتابات، وكان يقر كلّ منهما بمكانة الآخر في العلم والمعرفة. وقد ترجم كلّ منها للآخر. ومنهم، كذلك، الرحالة الشهير ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ)، والإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٨٠ هـ).

رأينا سابقاً أنَّ والد ابن الخطيب كان ذا حُظْوةٍ بارزةٍ لدى سلطان غرناطة. وقد تأثر ابنه بهذا الجوَّ منذ صباحه، وعاش عيشة هانة، في نعيمٍ وبخوبٍ، بعيداً عن مشاق الحياة ومتاعها. ولما توفي والده عبد الله، دُعيَ لشغل منصبه، ولم يكن عمره إِبْيَانَثِيَّةٍ يتجاوزُ الثامنة والعشرين. وهكذا فقد تولى أمانة السرَّ لاستاذه ابن الجياب؛ وزير السلطان أبي الحجاج يوسف – وهو أعظم سلاطين غرناطة – وكانته الأثير. وتلقى ابن الخطيب في ديوان الإنشاء على يد استاذه الجليل الكاتب والشاعر ابن الجياب أرفع أسلوب النظم والثرثُر في ذلك العصر، وظهرت براعته في تدبیج الرسائل السلطانية مبكراً. وكان ابن الخطيب قد ألف كتاباً ضمَّنه عدداً من رسائل استاذه هذا ونشره، أسماه "نافه من جم ونقطة من يم"، وهو من مصنفاته الضائعة التي لم تصلنا!

ولما توفي ابن الجياب في طاعون سنة ٧٤٩ هـ، خلفه ابن الخطيب في رئاسة ديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو الحجاج رتبة الوزارة وألقابها. ومع توالي الأيام سيتَّالقُ خجم ابن الخطيب، ويبرُزُ في سماء السياسة، وتعظُّم منزلته عند السلطان الذي لم يتَردد في إغراق النعم والبهات والعطاف عليه، فجعله كاتبَ السرَّ، ولسانه في المكاتب السلطانية الرسمية. وهكذا كتب لسان الدين عدداً من الرسائل الملوكيَّة البديعة التي ينعتها ابن خلدون باسم "الغرائب"، لروعتها وجمالية صوغها وجزالة لغتها. وقد جمع الكاتب نفسه العديد من هذه الرسائلات، فيما بعد، في كتابه "ريحانة الكتاب ونجمة المتأب" (٨) أسفار - تحقيق ونشر محمد عنان عام ١٩٨٠)، الذي تُوجَدُ له عدة نسخ مخطوطة بالخزانات المغربيَّة. ونقل إلينا، كذلك، المقرى عدداً منها في مؤلفه "فتح الطيب".

وفي سنة ٧٥٥ هـ، قُتل السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، فخلّفه ابنه الغني بالله (محمد الخامس). واستمرَّ ابن الخطيب في منصبه الوزاري، بل زاد مرتكزه قوةً. وهكذا فقد أرسله السلطان الجديد سفيراً عنه إلى السلطان المربي أبي عنان على رأس وفدٍ من رجالات غرناطة. وهنا ثلّفي ابن الخطيب يصف، شرعاً، حفاوة استقباله بالغرب من لدن السلطان أبي عنان. ويحسنُ بنا أن نشير هنا إلى أنَّ ابن

الخطيب كان سفيراً أميناً في النقل، دقيقاً في الملاحظة، حريصاً أشد الحرص على تأدية واجب السفاراة على أكمل الوجه<sup>(١)</sup>. وقد عهد إليه، على الأقل، بثلاث سفارات؛ الأولى كانت عام ٧٥٢هـ من لدن سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف إلى السلطان المغربي أبي عنان، والثانية كانت عام ٧٥٥هـ إلى السلطان المذكور نفسه ولكن هذه المرة ورد إلى فاس مبعوثاً من قبل الغنثي بالله، والثالثة قادته إلى ملك قشتالة بذرو الأول (القاسي).

ونتيجة لظروف تاريخية عصيبة وحوادث سياسية أليمة، خلع السلطان الغنثي بالله من منصبه الرئاسي ليتولاه أخيه، وقد خلع معه وزيره المحنّك ابن الخطيب الذي كان رجل دولة من العيار الثقيل. ومن هنا شتبدأ حكمة الرجل؛ إذ صودرت، عقب عزله، أملاكه، وفقد مكانته السامية، وصار منبوذاً معدماً لا فرق بينه وبين أغور الناس. وتحدت المظان القديمة عن تدخل السلطان المريني أبي سالم لدى سلطان غرناطة الجديد طالباً إليه السماح بانتقال الملك المخلوع وزيره لسان الدين إلى فاس. وهو ما تم فعلاً. وفي عاصمة بني مرين سيلتقي ابن الخطيب، لأول مرة، بابن خلدون الذي كان ذا شأن رفيع في بلاط المغاربة. ويقول الدارسون إن مكانة ابن خلدون في المغرب كانت تصافىي مكانة ابن الخطيب في غرناطة، وكلاهما كان رائداً في فن الكتابة. وامتازت العلاقة الرابطة بين الرجلين، بادئ الأمر، بالمحبة والإعجاب والاحترام المتبادل، ولكن بالتقائهما وتعارفهما أكثر تأكيدت هذه العلاقة، وازدادت قوّة.

لقد عاش ابن الخطيب رديحاً من الزمن في كف سلطان المغرب الأقصى، ولاسيما في نفر سلا، ونغل لنا كثيراً من حوادث حياته في هذا الأخير، وأشاد بطيب مقامه هناك؛ وذلك في كتابه "فاضحة الجراب". وقد أنجى خلال مستقره بهذا المكان جملة من المؤلفات توزعت ما بين منظوم ومنتور، ومنها بعض تصانيفه التاريخية القيمة؛ من مثل "اللمحة البدوية"، و"رقم الحلل في نظم الدول" (تونس - ١٨٩٨)؛ وهو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الإسلامية والخلفاء الأوائل وبني العباس وبني الأغلب والعبيدين وبني أمية بالأندلس وملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وبني مرين وبني نصر. ولهذا الكتاب نسخة وحيدة في خزانة القرويين بفاس، وثلاث نسخ بالخزانة العامة بالرباط (المكتبة الوطنية حالياً)، وثلاث نسخ كذلك بالخزانة الملكية بالرباط. وينضاف إلى هذا كثير من الرسائل السلطانية التي دبّجها، وأتبتها كلها في النفاضة<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد الباقي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب بطنوان، ع. ٢٠، س. ١٩٨٧، ص ٤١ - ٤٢.  
 (٢) يمكن أن تقرأ لابن الخطيب رسائل أخرى، سلطانية وغير سلطانية، في كتابه "كتاب الدكان بعد انتقال السكان" (ألفه بسلا)، تعلق: محمد شبانة، مراجعة: حسن محمود، دار الكاتب العربي، ط ١٩٦٦.

وما ساعده على إنتاجه العلمي الكثير في سلا أنه عاش هناك عزيز الجانب، مرتاح البال، موفر الرزق؛ بحيث تذكر المصادر القديمة أنه افتى بسلا الدور والضياع والرياض، وصار واحداً من أغنى الرجال السلاويين على ذلك العهد. كما أنه نظم مدائحَ جميلة في حق السلطان أبي سالم، ونظم أشعاراً في أغراض أخرى عديدة.

وبعد مضيَّ مدة من الزمن، سيساعد المغاربة السلطان الغرناطي المخلوع الغني بالله على استرداد عرشه من جديد، مستظلين، في ذلك، ثورة عارمة وقعت في حاضرة غرناطة. وما كاد محمد الخامس الغني بالله يجلس من جديد على كرسي العرش حتى كتب إلى وزيره المُنفي ابن الخطيب رسالة رقيقة عام ٧٦٣هـ يخبره فيها بنجاحه في استرجاع مُلكه، ويطلب إليه العودة والقدوم إلى غرناطة لتقْلِد منصبه مُجددًا، ونزولاً عن رغبة السلطان، غادر ابن الخطيب مقامه الهاي بسلا، وجاز إلى غرناطة، فأعاده ملِيكه إلى منصبه الوزاري القديم، واستأنف عمله في وزارته ناجحاً منهجاً المعتاد.

وفي ذلك الحين، وقد على الأندلس صديقه الحميم ابن خلدون، بعدما فقد حظوظه في البلط الفاسي، فاستقبله الغني بالله استقبلاً حاراً، وفعل الشيء نفسه وزير ابن الخطيب. وبقي ابن خلدون في الأندلس زمناً قوياً خلاًه مكانته عند سلطان غرناطة؛ فبعثه سيراً إلى ملك قشتالة التصراني، ونال عنده حظوظه واضحة ستعكس سلباً على وجوده في المنطقة لاحقاً! كيف ذلك؟ لقد أثرت هذه العلاقة القوية بين الغني بالله وابن خلدون؛ نزيل غرناطة، في نفسية ابن الخطيب، وحرّكت كوابئ شعوره، وجعلته أكثر تخففاً على فقدان منصبه السياسي. وهنا تتحدث بعض المصادر عن تخريض ابن الخطيب سلطانه على ابن خلدون. وبالفعل، فقد أثرت نصائح لسان الدين وأقوابه في نفس ملِيكه أيمماً تأثير؛ فبدأت علاقة الغني بالله بابن خلدون تفتر. ولما اتضح لابن خلدون إعراض السلطان عنه، وتغير علاقته به، وأحسن بأثر ابن الخطيب في هذا التحول المفاجئ، شدَّ الرحال قاصداً المغرب سنة ٧٦٦هـ. وعلى إثر ذلك، فترت العلاقة بين الأدباء وضفت.

لقد كثُر خصوم ابن الخطيب في الأندلس، وعلى رأسهم تلميذه النابه الكاتب الشاعر ابن زمرك، فبدأ مركزه المتميز يضعف يوماً بعد يوم؛ فقرر ترك السياسة ومتاعبها ومسؤولياتها، والاتجاه نحو الزهد والاعتكاف وزيارة البيت الحرام لأداء مناسك الحجَّ. فاستشار مولاه في الأمر. وقد كان لابن الخطيب السلطان المطلق في إدارة شؤون غرناطة، وكان العمدة في سياسة المنطقة داخلياً وخارجياً؛ لذا نرى سلطانه شديد التمسك به، والتماس مشورته في الأمور كلها، فلم يسمح له بترك الوزارة أو التغيير عنها مدة، ولو لأداء فريضة شرعية أساسية. فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال على السلطان، عاقداً العزم على الفرار

إلى العدوة الأخرى، بعدما يُئس ميدان السياسة ومشاكله، فكتب رسالة مؤثرة إلى ملِيكه يوْدَعه فيها، ويشرح له، عبر أسطرها، دواعي استقالته. وقد نقل إلينا ابن خلدون نص تلك الرسالة في عِبره (ج. ٧)، ووصفها بأنها من أغرب الرسائل وأروّعها وأجودها على الإطلاق. وبعد ذلك، جاز المضيق متوجهًا صوب المغرب سنة ٦٧٧٢هـ، وقد تلمسان حيث بلاط عبد العزيز المريني، وهناك استُقبل أجمل استقبال وأحرّ، وأرسل السلطان المغربي مبعوثًا، في الحال، إلى غرناطة ساعيًّا في استقدام أسرة الوزير المستقيل، فأتى بها معززة مكرمة، وذلك في أواسط العام ٦٧٧٣هـ. وهكذا، استقر ابن الخطيب في وطنه الجديد هانثاً منعماً على الشأن كريم الجائب، وشعر بأنه قد استرد في بلاط المغاربة منزلته المفقودة.

ـ ومن جانبيهم واصل خصوم ابن الخطيب إشعال نار التلقيق والاتهام ضده، فرموه بالإلحاد والخروج عن الشرع في بعض ما كتب في مؤلفاته. وكان أبرز مُروج لهذه الدعاية، كما هو معلوم، تلميذه وخليفة في الوزارة أبو عبد الله ابن زمرك. وانضاف إليه النباهي الذي كان من أكبر وأوْفَى أصدقاء لسان الدين، قبل أن تتوَّر العلاقة بينهما فيما بعد لاعتبارات مَا. وقد بعث هذا الخصم برسالة إلى ابن الخطيب يتهمه فيها بالكفر والإلحاد. فلما وصلت إلى ابن الخطيب أثرت فيه تأثيراً غائراً، فرد عليها برسالة مائلة وبلهجة حادة كذلك. ونتيجة لكل هذه التهم والتَّرهات، التي نجحت إلى حد بعيد، أحرقت كتب ابن الخطيب في ساحة غرناطة، بعد صدور فتوى فقهية في هذا الصدد، على أساس أنها تتضمن بين ثواباتها أشياء تخديش الدين، وتتطوي على إلحاد. وبهذا العمل فقدت المكتبة العربية الإسلامية عملاً غزيراً في عدد من حقول المعرفة. وعليه، فقد أرسل السلطان الأندلسي إلى نظيره المغربي كتاباً يطلب منه فيه تنفيذ حُكم الشارع في الوزير الملحد، في نظره، وهو الإعدام. فما كان من ملك المغرب إلا أن ردَّ على طلبه بالنفي القاطع، وأكثر من ذلك فقد زاد من تقرير ابن الخطيب، وإكرامه، وإغراق الآلاء عليه، وحمايته من كيد أعدائه الذين يتربصون به لتصفية حساباتهم معه.

ولما توفي السلطان عبد العزيز، خلفه على العرش ولده الطفل السعيد، وغادر بلاط أبيه بتلمسان في اتجاه فاس ومعه ابن الخطيب الذي تقوى مركزه في بلاد المغرب. وقد حاول الغني بالله مراراً أن يُوقع بابن الخطيب، إلا أنه فشل؛ لسمُّ مكانة هذا الأخير لدى سلطان المغرب آنذاك. وساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، فدفع ابن الأحمر بعض الثوار والخوارج منبني مرين إلى الانقلاب والثورة على السلطان المريني الذي أبى أن يُلْبِي رغبة السلطان الغرناطي في قضية الوزير الأسبق ابن الخطيب، فأمدهم بالعون المادي والمعنوي. وقد أفلح الثوار فعلاً، فتمكنوا من خلع الملك الطفل السعيد، وتنصيب الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم مكانه عام ٦٧٧٦هـ. وكان التفاهم قد تَمَّ بين الغني بالله وبين زعماء الثورة بخصوص مصير ابن

الخطيب. وب مجرد نجاح الانقلاب، بادر السلطان الجديد بإلقاء القبض على ابن الخطيب واعتقاله. وحُكم بعدما ثُبّت إليه اتهامات كثيرة كان للنبياني وابن زمرك اليد الطولى في إعدادها. وعُزِّر الرجل، وعذب أمام الملا، وسُجن في زنزانة مظلمة؛ فهاجمه بعض أعدائه في سجنه ليلاً، وقتلوه خنقاً، وأخرجوا جثته في الغد، ودُفنت بالقبة الواقعة تجاه باب المخروق؛ أحد أبواب فاس القديمة، ثم أخرجت جثته في اليوم التالي، وطُرحت فوق القبر، وأضرمت فيها النيران، فاحترق شعر الرأس واسودت البشرة، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحرق كلية. وقد وقعت هذه المأساة في ربيع الأول، أو ربيع الآخر، سنة ٧٧٦ للهجرة، الموافق لـأغسطس، سنة ١٣٧٤ للميلاد. وقد أشار ابن خلدون إلى تلك الواقعة الأليمة في تاريخه، قائلاً عن القليل إنه "الحالك لهذا العهد شهيداً بسعادة أعدائه". وهكذا، رحل ابن الخطيب عن دُنيا الناس تاركاً ثلاثة أبناء، هم: عبد الله، و محمد، و علي. وكانت وفاته، كما قال المرحوم محمد عبد الله عنان؛ "محقق الإحاطة"، "ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد السياسية والوضيعة"<sup>(١)</sup>. ومن المواقف البارزة في حياة الرجل، التي يحسن بنا أن نرمي إليها، موقفه من مستقبل غربانة بلديه، فقد تبنّى بسقوط مملكةبني الأحرmer نظراً لتلك الحال المزرية التي رأها عليها عصراً ثالثاً. وقبل الحديث عن مؤلفات لسان الدين، لا بأس من أن نشير إلى أن المقربي، الذي كان من كبار المُعجَّبين بالحالك، كان قد زار قبر ابن الخطيب، أكثر من مرة، في أثناء إقامته بفاس في أوائل القرن الهجري الحادى عشر. ثم إن ضريحه ما يزال قائماً بفاس القديمة، وقد كُتب عليه، بالخط العربي، العبارة الآتية: "هذا ضريح العلامة لسان الدين بن الخطيب".

لقد خلّف ابن الخطيب عدة كتابات في ميادين شتى؛ ذلك بأن الرجل كان كثير المطالعة والبحث والتصنيف. ومن هذه التأليف ما كتبه في بلاد الأندلس، ومنها ما صنفه في بلاد المغرب، ولاسيما في سلا. يقول حسن الوراگلي: "كانت مواهيب ابن الخطيب الأدبية ومعارفه العلمية من العناء والسعنة بالدرجة التي أتيح له معها أن يجري قلمه بالتأليف في مختلف الفنون والعلوم من أدب، وتاريخ، وجغرافية، وتصوف، وأخلاق، وفقة، وسياسة، وطب، وبيطرة، وموسيقى، وغير ذلك مما تدل عليه عنوانين كتبه ورسائله"<sup>(٢)</sup>. وقد ذكر لنا ابن الخطيب ثبت مؤلفاته - أو أكثرها - بتعبير أدق: لأن الرجل بدأ استعراضها بقوله: "من ذلك..." - ضمن ترجمته لنفسه في آخر كتابه "الإحاطة" ، ولكن هذا الثبت ناقص لا يشمل جميع كتبه

<sup>(١)</sup> محمد عبد الله عنان: "أندلسيات، سلسلة "كتاب العربي" ، الكويت، رقم ٢٠، يوليو ١٩٨٨ ، ص ٦٦.

<sup>(٢)</sup> حسن الوراگلي: "لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيلوجرافيا)" ، مجلة كلية الآداب بطنوان، ع ٢، س ٢، ١٩٨٧، ص ١١٣.

المؤلفة؛ لأنَّه فرغ من كتابة "الإحاطة" حوالي عام ٧٧٣هـ، وكتب بعد هذا التاريخ عدداً من المؤلفات والرسائل. ونقل إلينا المقرى ثبت كتب ابن الخطيب في مؤلفيه الشهيرين "نفح الطيب" (ج.٤)، و"أزهار الرياض" (ج.١).

يتضح مما تقدَّمُ أنَّ ابن الخطيب خلْفٌ، فعلاً، تراثاً ضخماً، ومكبة مهمة من التصانيف في مختلف الميادين. وقد بلغت مؤلفاته زهاء الستين (ما بين كتاب ورسالة)، وصل إلينا أقلَّ من نصفها، ولاسيما من المؤلفات التاريخية والأدبية. ويبدو أنَّ تصانيف لسان الدين التي لم تصلنا قد صاغَ جُلُّها في محنة إحراق كتبه التي وقعت في ساحة غرناطة سنة ٧٧٣هـ، وهي، في جملتها، من كتب الطب والتصوف والموسيقى. ثم إنَّه أغلب كتبه التي نجَّتْ من تلك الحرقـة قد وصل إلينا عن طريق المغاربة. وعلى العموم، فيمكِّننا تصنيف مؤلفات ابن الخطيب إلى المجموعات الكبرى الآتية:

❖ التاريخ: من أهم المؤلفات التي وضعها ابن الخطيب في الميدان التاريخي، إلى جانب "الإحاطة" التي سنخصصها بمحديث مطول لاحقاً، نذكر:

- "أعمال الأعلام" فمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلَّق بذلك من شجون الكلام: كتب ابن الخطيب هذا الكتاب في ظرف سياسي عصيب كان يمر به المغرب، للرد على خصميه القاضي أبي الحسن النباхи. وقد تركه ناقصاً؛ لأنَّه لم يُتح له إنتهاء وإكماله. والمصنفُ موضوعُ، أساساً، للوزير المستبد أبي بكر ابن غازي عقب وفاة عبد العزيز المربي، وتنصيب ولده الطفل السعيد سلطاناً مكانه؛ مما أثار حفيظة خصوم هذا الوزير الذين عارضوا، بشدة، تولية الطفل، واتهموه بإهدار مصالح المسلمين. وأمام هذا الوضع، كُلِّفَ ابن الخطيب بتأليف هذا المصنف، على عجل، ليثبت فيه أنَّ لهذا الحدث؛ حدثٌ تنصيب طفل سلطاناً، نظائرٌ عديدة في التاريخ الإسلامي، وأنَّه تصرف سليم لا يتناهى وأحكامُ الشرع في شيء، وكان المؤلف، إذاك، منشلاً بتأليف كتاب آخر؛ كما صرَّح بذلك في قوله: "... فاملئته عفواناً من غير رؤية تحكم الاختيار، و تستدعي للحفظ والامتياز، قطعت به العزيمة عن الاستغال بالكتاب الكبير المسمى "رياسة الفلك في سياسة الملك" إلى أن نَكِّرَ إن شاء الله عليه"<sup>(١)</sup>. ويقع الكتاب، قيد التعريف، في ثلاثة أقسامٍ كبرى؛ بحيث تحدث المؤلف، في القسم الأول المُصدَّر بـمقدمة نفيسة، عن سلاطين مسلمين بوريعوا صغاراً في تاريخ

(١) ابن الخطيب: إعمال الأعلام، ١/١٠. نقلَّاً عن مقال رابح المزاوي "مخطوط إعمال الأعلام فيمن بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلَّق بذلك من الكلام" لسان الدين بن الخطيب الأندلسي: كشف لثنيات التصنيف وفحص لفُرَدَات العنوان، مجلة آفاق الثقافة والتراث، جمعية الماجد للثقافة والتراث، دبي، ع ٣٠/٢٩، س. ٨، يوليو ٢٠٠٠، ص ٢٢٧.

الدولة الإسلامية بالشرق ومصر والشام، وفي القسم الثاني عن أطفال تولوا السلطة في فترات من عمر دولة الإسلام ببلاد الأندلس منذ انطلاق حُكم بنى أمية إلى قيام دولة بنى الأحمر بغرناطة، ولاسيما عهد الغني بالله، وتحدث، في آخر الأقسام، عن السلاطين المسلمين الذين حكموا قبل الاحتلال في تاريخ إفريقية والمغرب الإسلاميين بدءاً من أيام الأغالبة إلى حدود بداية عصر الموحدين. وتوجد لهذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة، ولاسيما بمكتبات المملكة المغربية (الرباط - فاس...). وإذا كان القسم الأول من الكتاب ظل مخطوطاً إلى عهد قريب، فإن القسمين الآخرين قد نُشرا معاً منذ عقود؛ بحيث حقق القسم الثاني المستشرق الفرنسي الكبير ليثي بروفنقال (E. L. Provençal)، ونشره بعنوان "تاريخ إسبانيا الإسلامية"، على حين حقق الثالث الأستاذان أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ونشراه بعنوان "تاريخ المغرب العربي". وقبل الفراغ من التعريف بهذا المؤلف، تحسن الإشارة إلى أن الآراء تضاربت حول عنوانه؛ لورود كلمته الأولى، في جميع مخطوطاته، دون ضبط همزتها (أي بهذه الصورة الخطية: اعمال)؛ لذا وجدها بعض الدارسين يثبتون الكلمة بكسر همزتها (إعمال)، وأخرين بفتحها (أعمال). وجاء مطلع العنوان، في بعض النسخ، بصورة مغایرة، هي "إعلام الأعلام"، انسجاماً مع عدد من مؤلفاتنا القديمة التي تصدرتها كلمة الإعلام. وكان أستاذنا الفاضل رابع عبد الله المغراوي قد نشر كتابة رصينة في تحقيق عنوان هذا الكتاب، مثبتاً، في المآل، أن الأصح هو "إعمال الأعلام..."<sup>(١)</sup>.

- "اللحمة البدوية في الدولة النصرية": وهو مختصر ل التاريخ بنى نصر، ملوك غرناطة، حتى أوائل ستة سبعينيات القرن العشرين. وقد نُشر بالقاهرة، عام ١٩٢٨، بعناية المرحوم محب الدين الخطيب. وله نسختان مخطوطةتان بمخزانة القرويين بفاس، ونسخة أخرى بخزانة المكتبة الوطنية بالرباط. وقد أشار ابن الخطيب في كتابه هذا الواقع في جزءٍ وحيدٍ، وفي "الإحاطة" كذلك، إلى عنوان كتاب آخر له، ولكنه مفقود للأسف، هو "طفة العصر في تاريخ دولة بنى نصر"، الذي اعتقاد المستشرق مستنجلد، خطأ، أنه اسم ثان لللحمة. فالكتابان معاً يورّحان للدولة النصرية في غرناطة، ولكن المطلع عليهما معاً يلاحظ أنهما ليسا كتاباً واحداً بل عنوانين لكتابين مختلفين؛ كما ذكر المرحوم محمد عبد الله عنان في تقدمة تحقيقه للإحاطة.

- "نفاستة الجراب في علة الاغتراب": وهو كتاب يشتمل على "مذكرات شخصية" كتبها ابن الخطيب عن فترة من أهم فترات حياته؛ وهي تلك الفترة التي قضتها في عزلته بسلا من عام ١٣٧٦هـ إلى عام

(١) رابع المغراوي: "مخطوط إعمال الأعلام" فيهن بoyer قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام" للسان الدين بن الخطيب الأندلسي: كشف لثبيبات التصنيف وفحص لمفردات العنوان، ص ٢٢٢ - ٢٣٩.

٧٦٣هـ، ثم، بعد ذلك، عودته إلى الأندلس وتوليه الوزارة ثانيةً إلى حدود ربيع الأول من عام ٧٦٤هـ. ومن هنا، يظهر الطابع السير ذاتي لهذا العمل الأدبي<sup>(١)</sup>، الذي قوامه ثلاثة أسفار حسبما يذكر مؤلفه، ولكنه لم يصلنا كاملاً! ورغم ذلك، فإنه يظل "من أهم كتب ابن الخطيب، بل ربما كان أهم كتاب [له] بعد كتاب "الإحاطة"<sup>(٢)</sup>؛ على حد تعبير محمد عنان رحمة الله عليه.

ويحسن بنا أن نشير، هنا هنا، إلى أن ثمة مؤلفاً تارخياً ينسب خطأً لابن الخطيب، هو "الحلل الموشية في الأخبار المراكشية"، الذي طبع في تونس العام ١٣٢٩هـ (مطبعة التقدم الإسلامية) بوصفه كتاباً للمؤلف المذكور. ولكن لهذا العمل نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ورد فيها أن الكتاب من تأليف أبي العلاء بن سماك العاملي المالقي!<sup>(٣)</sup> وكان قد ظهر، عام ١٩٧٩، تحقيق لكتاب يشبه عنوانه عنوان هذا الكتاب؛ وهو "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" مؤلف مجهول الاسم، ولكن أثبتت على غلافه أنه أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري!<sup>(٤)</sup>.

## • الترسل والأدب والمصنفات الخاصة: ومن كتب هذه المجموعة الأدبية نذكر:

- "بستان الدول": وهو كتاب ضخم في السياسة والقضاء وال الحرب، وأهل المهن والحرف، وطوائف الشعب، يخصص لكل منها شجرة. وقد ذكر ابن الخطيب، في "الإحاطة"، أنه كتب منه ثلاثين سفراً، ثم عاقته الحوادث عن إتمامه. ونشير إلى أنه لم يصلنا كاملاً. قال المؤلف عن موضوع تأليفه هذا: "... وهو موضوع غريب ما سمع بمثله، قل أن شذ عنه فن من الفنون، يشتمل على شجرات عشر؛ أولها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلوة، ثم شجرة السلطة والحساب، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد، وهو فرعان: أسطول وخيوط، ثم شجرة ما يضطر بباب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والنُّدماء والشُّطُّرجين والشعراء والمغنين، ثم شجرة

<sup>(١)</sup> للإستزاد، يمكن الرجوع إلى مقال عبد النبي ذاكر "ملامح سير ذاتية في رحلة ثفاضة الجراب"، ضمن الكتاب الجماعي "مدارس ثقافية وفكرية"، من منشورات كلية الآداب بأڭاڻير، سلسلة "شهادات"، رقم ٣، مطبعة أنفو - بريت، فاس، ط. ١، ٢٠٠٦، ص ١٣٩ - ١٤٧.

<sup>(٢)</sup> ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٥٦/١. (من تقديم المحقق)  
<sup>(٣)</sup> نفسه، ٥٩/١. (من تقديم المحقق)

<sup>(٤)</sup> الكتاب من تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامنة، ونشر دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء (المغرب).

الرعايا. وتقسيم هذا كله غريب، يرجع إلى شعب وأصول، وجرائم وعمد، وقشر ولحاء، وغضون وأوراق، وزهارات مشمرات وغير مشمرات، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء اسم الفن<sup>(١)</sup>.

- "روضة التعريف بالحب الشريف" (أو "كتاب الحبة") : وتعد هذه الرسالة الضخمة (سفران) واحدة من مؤلفات ابن الخطيب الهمة والمتميزة، فعلاً، فكرة وأسلوباً. إذ إنها من أقوى نفائس لسان الدين الشريعة وأبلغها، وأحفلها بالأفكار الفلسفية الطريفة، والتشبيهات المبتكرة في موضوع الحب الإلهي بأوسع دلالاته؛ هذا الحب الذي عليه ابن الخطيب أصل طريق التصوف، وأساس الوعي الروحي، وأن الأرض التي يغرس فيها - وهي النفس - لا بد من تنظيفها وتنقيتها من شتى أصناف الشك والإرتباط، قبل العمد إلى إروائها من نبع جداول النقل والعقل بعد تغيير ما يصلح منها وما لا يصلح لاغتراس الحب الإلهي. وقد كتبت في وقتٍ كان يجاهبه الأمن الروحي للأمة الإسلامية تحديات خطيرة في الشرق والغرب معاً، وذلك تلبية لطلب مليكه الغني بالله ليربّه على ما جاء في "ديوان الصباية" للفقيه والأديب المغربي ابن أبي حجلة التلمساني (ت ٧٧٦هـ). تزيل القاهرة، الذي يعني بذلك أخبار العشق والعشاق ثراً وشعرًا، وكان قد ذاع صيته، وانتشر أمره بين الناس، وبلغ بلاد الأندلس، ووقع بين يدي السلطان الغني بالله الذي أثار على وزيره الأديب ابن الخطيب بأن يكتب تاليًّا في الرد عليه، فما كان من المأمور - الذي كان سيناًًاً شعرياً - إلا أن يستجيب، فوضع كتاب "الروضة" الذي سلك فيه مسلكاً جديداً في تصوير الحبة؛ إذ يقول: "... وجعلته شجرة وأرضاً فالشجرة الحبة مناسبة وتشبيهاً، وإشارة لما ورد في الكتب المتزلة وتنبيهاً، والأرضُ النفوس التي تغرس فيها، والأغصانُ أقسامها التي تستوفيها، والأوراقُ حكاياتها التي تحكيها، وأزهارها أشعارها التي تجنبها، والوصول إلى الله تعالى ثمرة التي تدخلها بفضل الله ونقتتها".<sup>(٢)</sup> كما أنه تفيأً الارتفاع بالحبة من درك الغرائز إلى معارج الارتفاع بالروح إلى سماء الولاية؛ الأمر الذي من شأنه أن ينقل الإنسان من طبقة الأشقياء لليلحقة بزمرة السعداء المطمئنين. وقد فرغ ابن الخطيب من تأليف هذا الكتاب أوائل ٧٦٩هـ، جاعلاً إياه "أجمل خاتمة لحياته الأدبية وحياته العلمية؛ تلك الحياة التي كانت مليئة بالأعمال التي تباعدت أطراها بين نزوع دنيوي ونزوع آخر وهي فنون". فكان هذا الكتاب خطاباً لنفسه قبل أن يكون خطاباً لغيره، وإرواءً لشوقه قبل أي غرض آخر. وليس مما يخرج عن المعتاد في أمثاله يومئذ أن تكون ثقافته الشمولية الواسعة قد جنحت به إلى هذا المنزع الذي يرى الحقيقة واحدة من خلال التعدد. وهذا ما ألح عليه في كتابه "روضة التعريف".

<sup>(١)</sup> ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٦٠/٤.

<sup>(٢)</sup> ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تج. وتنق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي، القاهرة، ط. ١، ١٩٦٨، ص ٨٨.

وبذلك كان موقفه بين المذاهب السائدة يومئذ موقف الوسط الذي يرفض التطرف، ولكنه على مسافة واحدة من جميع المتطرفين<sup>(١)</sup>. ونشير إلى أن المقرى قد نقل لنا، في "نفحه"، مقدمة "كتاب الحبة"، وبعض فصوله أيضاً. وفي عام ١٩٦٨، نُشر الكتاب كله بالقاهرة بتحقيق عبد القادر أحمد عطا. وبعد أزيد من ستين، ظهرت نشرة أخرى له، بالدار البيضاء، بتحقيق محمد الكتاني. وللكتاب نسخ عديدة بخزانات المغرب (الرباط - فاس). ويقول كثيرون من دارسي تراث ابن الخطيب وحياته إنه قُتل بسبب هذا الكتاب، الذي أثار ضجة غبٌ ظهره، والذي قرر فيه، حسبما زعم خصومه، مذهب الوحدة المطلقة المفضي إلى القول بالخلوٍ والاتحاد ونحو ذلك من أفكار الإلحاد. وقد انطلق الذين حاكموه، وهو قضاة مالكية، من هذه التهم، كما يرجح أولئك الدارسون، للحكم على ابن الخطيب، وإدانته، واستصدار أمر بقتله، دون العودة إلى الكتاب للوقوف على صحة تلك المزاعم التي اتضحت، فيما بعد، أنها قد جانبت الصواب، وأن كل ما في الأمر قضية تصفية حسابات سابقة لا غير!

- "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار": وهو وصف ثري مسجّع لدن مملكة غرناطة، ولعديد من مناطق المغرب، يتوزع على مجلسين / فصلين كُتبَا على طريقة المحاورة. وقد طبع الكتاب بالمغرب، تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، عام ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، في ١٩٨٠ صفحه من القطع الكبير، بتحقيق محمد كمال شبانه؛ ناشر أعمال "خطيبية" أخرى (مثل كتابه "أوصاف الناس في التاريخ والصلات")، الذي قال عنه: "إنه عبارة عن وصف قصصي، جاء في صورة مقامة تقليدية، حاول بها ابن الخطيب - كما حاول في غيرها - أن يجاري بها من سبقوه في هذا الميدان، وفي سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ونهايتهما، حيث انتصر فيها إلى حدٍّ ما عن المعنى إلى اللفظ مما أفقد المقدمة - خاصة - قيمتها الأدبية من أديب مثل ابن الخطيب"<sup>(٢)</sup>. وتجدر الإشارة إلى أنه قد سبق للمستشرق الإسباني سيمونيت (J. F. Simonet) أن نشر الجزء المتعلّق بغرناطة من "معيار الاختيار"، وجعله ملحقاً بكتابه "وصف مملكة غرناطة تحت حكمبني نصر".

<sup>(١)</sup> محمد الكتاني: ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع. ٢٠، س. ١٩٨٧، ص. ٤٠.

<sup>(٢)</sup> ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ترجمة محمد شبانة، مطبعة فضالة، الحمدية / المغرب، ط ١٩٧٦، ص. ٥٥.  
(من تقديم المحقق)

## • النظم والشعر: من آثار ابن الخطيب السلماني في هذا الصدد نجد:

- "جيش التوشيح": وهو ديوان يقع في سِفْرَيْن، جمع فيه ابن الخطيب — وهو من أئمَّة المُوشحات الأندلسية — طائفة مختارة من مُوشحات رواد التوشيح بالأندلس؛ أمثال ابن بقي، وابن اللبانة، والأعمى التُطْبِيلي، وابن شرف. وقد نُشر هذا العمل بتوسُّعٍ، عام ١٩٦٧، محققاً بعناية الأستاذين هلال ناجي و محمد ماضوري. وذكر صاحب "الفتح" أنَّ معاصرَه ومواطنه الكاتب الوزير المغربي عبد العزيز بن محمد الفشتالي (ت ١٠٣١هـ) كتب ذِيلاً على هذا الديوان أسماءً مدد الجيش، ضمَّنته كثيراً من مُوشحات المغاربة إلى حدود أوائل القرن الحادى عشر الهجري.

- "ديوان الصَّيْب والجَهَام والكَهَام": وهو ديوان ابن الخطيب (سفران)، ولكن لم تصلنا، للأسف، نسخة كاملة منه. وقد نُشر ما يقى منه بالجزائر (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، عام ١٩٧٣، بعناية محمد الشريف قاهر. ونشر، هنا، إلى أنَّ محمد مفتاح، الناقد المغربي المرموق، كان قد حقق ديوان ابن الخطيب، في إطار عمل جامعي قدمَه، قبل أزيد من ثلاثة عقود، لنيل د.د.ع. من كلية الآداب ظهر المهاز بفاس، وقد أرفق تحقيقه هذا بدراسة معمقة عن شعر الشاعر. وينطوي عنوان هذا النص على ثنائية اثنتين؛ الأولى طرفاها "الصَّيْب" (السحاب الذي فيه ماء) و"الجَهَام" (السحاب الذي لا ماء فيه)، والثانية طرفاها "الماضي" (النافذ السريع) و"الكهَام" (البطيء الكليل).

- "السحر والشعر": يتدرج هذا المصنف ضمن ما يسمى، في تاريخ النقد العربي، "كتب الاختيارات الشعرية". فقد ذكر ابن الخطيب، في مقدمة الكتاب، أنه بمناسبة ترُّعِّر ولده عبد الله، اغتنم الفرصة فاختار له جملة من القصائد الملوِّحة التي تتعلق بالوصايا والمبادئ والحكم والفوائد، وجعلها في تصنيف، ليكون له أحسن زاد، وأفضل عتاد. يقول في مقدمته: "لما طلع الآنَ الولُّد عبد الله يسر الله بخياته، وعجل تلبيته لداعي الرشد إنجاته، اغتنمت له فرصة العمر عند إمكانها، واحتبت غرة الدنيا المقبلة بسكنانها، وأعددت له العتاد الذي يجده، واستدعيت له المدد الذي ينجده، واستجزرت له من شيوخ وقته من أغضى عنه حمامه، واتصلت أيامه، ونظمت له قصائد في الوصايا والمبادئ، يستقبل مع درسها، ويجني مع السعادة غرسها، وظهر في الآن أن أيسَّر له مجموع هذه الأناشيد ليحضر بها ويتمثل، ويتأسس البيان بذكرها لديه ويتأنل".<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن الخطيب: السحر والشعر، تج: محمد مفتاح، بحث جامعي مرقوم موجود بمزانة كلية آداب فاس، ص ٣. نقلأً عن مقال سليمان القرشي "مفهوم الشعر عند لسان الدين بن الخطيب"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع ٢٢، س ٨، يناير ٢٠٠١، ص ٦١.

وكان من انتقى لهم نصوصاً شعرية، من أهل المشرق، ابن باتة ومهيار الديلمي وأبو العناية وابن الرومي والشريف الرضي، ومن المغاربة والأندلسيين، اختار نصوصاً لابن رشيق القير沃اني والمعتمد بن عباد وابن اللبانة وابن عبدون وابن سهل وابن صمادح. وراعي المصنف في قسمه الأول نفط الشعر، وفي الثاني نفط السحر. ونفق في كلِّ منها على جملة أبوابٍ يستقلُّ كل باب منها بعرض من أغراض الشعر المهدودة، وهي، على التتابع، المدح، والفرح، والرثاء، والنسب (أي الغزل)، والوصف، والملح، والحكمة. وقد وجדنا في الغرب الإسلامي آخرين، غير ابن الخطيب، ألفوا تاليف جامعه بين هذين التمرين؛ من مثل ابن ليون التجيبي، أحد شيوخ ابن الخطيب، في كتابه "لح السحر من روح الشعر وروح الشّحر". ولمؤلف "السحر والشعر" قيمة نقدية تنضاف إلى قيمته الأدبية الواضحة؛ ذلك بأنه يشكل "حلقة مهمة في النظرية الشعرية القائمة على التصور الفني، المعتمدة على الذوق في إدراك سر الجمال في الشعر لما يحدّنه من تأثير في المثلقي... ولا شك أن النظرة الخطيبية للعملية الشعرية صادرة عن إيمان عميق بجدوى الشعر ووظيفته؛ هذا الإيمان الذي لم يكن ليترسخ إلا عن طريق فهم هذا الشعر أولاً، وتدوّفاً ثانياً، ومارسته في مرحلة ثالثة، وهي كلها شروط توافرت لابن الخطيب الأديب والناقد.

وإذا كان كتاب "السحر والشعر" لا يرقى إلى مصافَ الأعمال النقدية الكبرى، فإن قيمته تجلّى في كونه مختارات شعرية تمثل ذوق ابن الخطيب أولاً، وذوق المرحلة ثانياً؛ هذا الذوق الذي ساهمت المدارس والتيارات النقدية المتنوعة في تربيته وتكونه وترسيخه. وبهذا يكون الكتاب برأته للشعر، وباختياراته الشعرية، صدّي صادقاً، وانعكاساً مباشرأً للحياة الثقافية والفكرية خلال القرن الثامن للهجرة بالأندلس.<sup>(١)</sup>

## • المجال العلمي: ومن كتبه الآتي:

- "رجز في الأغذية" أو "أرجوزة الأغذية": ويعُق في حوالي مائتين وألف بيت، عرَضَ فيها الناظمُ الأغذية مرتبة على حروف المجم، وذكر طبائعها ومنافعها ومضارها وإصلاح خللها...
- "عمل من طب لمن حب": وهو كتاب طبيٌّ ضخم نشرته المستعمرة الإسبانية ماريَة دي لاكونثيون، في العام ١٩٧٢ ، تطرق فيه ابن الخطيب إلى مختلف الأمراض مستعرضاً أسبابها وأعراضها وسبل علاجها ونظام الغذاء المناسب لكل منها. كما تحدث فيه عن شتى أعضاء الجسم، وطرق الاعتناء بها.

<sup>(١)</sup> سليمان القرشي: مفهوم الشعر عند لسان الدين بن الخطيب، ص ٦٩.

وقد ألقى صاحبه عام ٧٦١هـ، خلال إقامته الأولى بفاس، وأهداءه إلى السلطان أبي سالم المرني، الذي كانت أفضاله على ابن الخطيب كثيرة؛ لذا فقد أشاد به في دياجة الكتاب بعبارات رنانة، مصرياً بأنه لم يجد، لرد جميل أبي سالم، خيراً من الطب الذي يحفظ الصحة، ومنه الدين والدنيا. وله تأليف آخر شبيه بهذا من عدة وجوهه، عنوانه "الوصول لحفظ الصحة في الفضول"، كتبه في غرناطة، عام ٧٧١هـ، لسلطانها أبي عبد الله محمد الخامس النصري، وهو من تواليف ابن الخطيب الطيبة التي وصلتنا.

- "مقطعة السائل عن المرض البائلي": وهو عبارة عن رسالة طيبة وصحية من نوع خاص، ألفها لسان الدين عن الطاعون الخطير الذي اكتسح الأندلس وجُلّ مناطق العالم الإسلامي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م. وفيها يصف الرجل ظروف ظهور هذا الوباء، وسرعة انتشاره، وأماراته الأولى، وسبل التحوط منه. كما عرفنا فيها بوباء الطاعون، مبرزاً أسبابه (سبب أقصى - سبب أدنى)، وموضحاً آثاره على مستوى بدن المصاب به، وطرق المعالجة منه، وانتقد بين طياتها بعض التصورات البعيدة عن مفهوم القدر. وقد ذكر ابن الخطيب، ضمن الترجمة التي كتبها لنفسه في آخر إحاطته، هذه الرسالة باسم "رسالة الطاعون"، وهو الاسم نفسه الذي نجده في مؤلفات أخرى عرفت باسم ابن الخطيب؛ ككتاب "جذوة الاقباس في من حل من الأعلام مدينة فاس" لأحمد بن القاضي المكتناسي (ت ١٠٢٥هـ). وقد حقق، مؤخراً (٢٠٠٥)، نور الدين الموادر، عميد كلية آداب وجدة حالياً، هذه الرسالة انطلاقاً من مخطوطه لها موجودة بخزانة المكتبة الوطنية بالرباط، ضمن مجموعة يضم أربع رسائل طيبة حول الطاعون. وتوجد نسخة من هذه الرسالة، كذلك، ضمن مجموعة خططي بمكتبة دير الإسكوريال بإسبانيا. وتنطوي هذه الرسالة على زخم من المصطلحات الطيبة الذي يصلح لأن يكون موضوع بحث مستقل؛ مثل: الحمى الوبائية، والمُصادَّة، والبثور، والعدوى، والتُشنج، وفساد الدم، ولابن الخطيب آثار في ميادين أخرى؛ من مثل "الخلل المرقوم في اللمع المنظومة" (أصول الفقه)، و"خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" (الأدب الرحلاني)، و"رسالة في الموسيقى" (تعرضت إلى الإحرقان في حادث حرق مؤلفات ابن الخطيب في غرناطة)، و"استزال اللطف الموجود في سير الوجود" (رسالة صغيرة في التصوف)، و"حمل الجمهور على السنن المشهور" (رسالة في الحث على الجهاد)، والإشارة إلى أدب الوزارة" (السياسة)، و"كتاب البيطرة".

ما تقدم يتبيّن لنا أن ابن الخطيب كان عبقريّة فذة في شتى فروع المعرفة وصنوف العلم. كما أنه يعد واحداً من أبرز أدباء الغرب الإسلامي وعلمائه في القرن البحري الثامن، ترك بصمات واضحة في تاريخ الأدب العربي عمّة. ومثل هذه الموسوعية "ليست منهاجاً غريباً بين علمائنا في القرون الماضية الذين لا يؤمنون

بقضية التخصص في فرع واحد من فروع العلم؛ تلك القضية التي لا زال يؤيدُها بعضُ المفكرين في العصر الحديث، ولها في جانبِها أنصارٌ وخصومٌ<sup>(١)</sup>. وقد أشاد بمكانة ابن الخطيب تلك، فضلاً عن معاصريه من الأدباء والعلماء والنقاد، عدّ كبير من الدارسين المحدثين سواء من العرب أو من المستشرقين الكبار. وترجمت جملة من آثاره إلى عدة لغات أجنبية؛ مثل الإسبانية، والفرنسية، والإنجليزية.

فمن معاصريه الذين أشادوا به، واعترفوا بفضلِه وسموّ مقامه في دنيا العلم، ابن خلدون الذي وصفه، في مقدمته، بأنه "شاعر الأندرس والمغرب لعصره"<sup>(٢)</sup>. وذكره كذلك، في كتابه "التعريف"، بقوله: "كان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والثر، والمعارف والأدب، لا يُساجل مدار، ولا يُهتدى فيها بمثل هداه"<sup>(٣)</sup>.

ومن أهم المستشرقين، ولاسيما الإسبان، الذين نوهوا بابن الخطيب، وأبرزوا منزلته في ميادين الأدب والعلم، مورينو نيفيو (M. Nieto) الذي قال عنه: "لا يوجد في تاريخ غرناطة الأدبي ما يمكن أن يقارن بهذا الكاتب الخصيّب"، وسيمونيت الذي وصفه بـ"أمير الأدب الأندلسي الغرناطي". وخصّه المستشرق كونثالث بالنسيا (A. G. Palencia) بترجمة وافية حسنة في كتابه "تاريخ الأدب العربي - الإسباني". وبعد المستشرق الألماني ماركوس مولر (M. Muller) أول مستعرب اعتمد بنشر الأعمال "الخطيبية" في الميدان الطبي، وذلك حين حقق، عام ١٨٦٣، رسالة الرجل حول وباء الطاعون التي تقدم ذكرها، وأصدر الباحث نفسه كتاباً بعنوان "نخب من تاريخ الغرب العربي" ، ضمّنه ثلاثة من أعمال ابن الخطيب.

وثمة كثير من رجال الفكر والأدب العرب المحدثين مِنْ أشادوا بلسان الدين وبمكاناته العلمية، بعدما درسوا إنتاجه وأدبِه الغزير. ولعل من أبرزهم محمد عبد الله عنان؛ مُحقق "الإحاطة" ، الذي أفاد، في مقدمة تحقيقه لهذا الأخير، في الإشادة بالرجل، وتبيان قيمته ومكانته في مضامير علوم وفنون قولٍ كثيرة. وكان قد ألف، عام ١٩٦٨، كتاباً أسماه "لسان الدين ابن الخطيب: حياته وتراثه الفكري" ، أشاد فيه بالمترجم له فيه، وذكر إسهامه الكبير في تلك المضامير كلها بغير قليل من الإعجاب والإكبار. ومنهم، أيضاً،

(١) من تقديم عبد القادر أحمد عطا لكتاب ابن الخطيب "روضة التعريف" الذي حققه، م.س، ص ٢١، بتصرف.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، تتح: دروش الجودي، المكتبة المصرية، بيروت، ط. ١، ١٩٩٩، ص ٦٠.

(٣) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (الجزء السابع من كتابه "العبر")، تتح: خليل شحادة، مراجعة: سهيل بكار، دار الفكر، د.ت، ص ٥٩١.

محمد بن أبي بكر التطواني؛ صاحب كتاب "ابن الخطيب من خلال كتبه" (نشره معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان - ١٩٤٨ - جزآن)، والحسن السائح؛ صاحب كتاب "متواعات ابن الخطيب"، الذي أصدرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، عام ١٩٧٨، بمناسبة مرور ستمائة سنة على وفاة لسان الدين بن الخطيب.

وعلى العموم، فإن الخطيب أديب مُلقِّب برع في شتى فنون المعرفة، وشاعر مرموق نظم القصيدة في مختلف أغراض الشعر المهاودة، وإنْ غالب عليه النظم في المدح والهجاء. وقد وصفه معاصره أبو الوليد ابن الأحمر بـ"شاعر الدنيا، وعلم الفرد والثنيا"<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك، من أئمة التوشيح في زمانه، ومن أشهر موسحاته تلك التي مطلعها: (من الرمل)

جَادَكَ الْفَيْثُ إِذَا الْفَيْثُ هَمَّى  
يَا زَمَانَ الْوَصْلَ بِالْأَنْدَلُسِ  
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا  
فِي الْكَرَى أَوْ خُلْسَةَ الْمُخْتَلِسِ

وهو إمام في فن الرجل أيضاً، ولا سيما على طريقة الشاعر الأندلسي المتصوّف أبي الحسن الششتري، ويُكَان للقارئ أن يطلع على نموذجات من زَجله في السُّفر الثالث من كتابه "نفحة الجراب"، الذي حققه السعدية فاغية، في إطار بحث أكاديمي جامعي بمدريد، بإشراف المستشرق فرناندو لا كرانجا. وعلاوة على ما ذكر، فقد تفوق ابن الخطيب، كذلك، في التشرُّي الوزاري والسياسي، ذلك بأنه دَبَّجَ كثيراً من الرسائل السلطانية الرسمية المسجوبة أيام توليه منصب الوزارة لسلطان غرناطة. ثم إن لسان الدين، كما أسلفنا القيل، كان عالماً مقتداً، ومتسللاً كبيراً، وسياسياً خيراً.

## ٢- كتاب الإحاطة: مضمونه، ومنهجه، وقيمةه:

سنحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على واحدٍ من أبرز آثار ابن الخطيب على سبيل الإطلاق، استمر تأليفة سنوات؛ ويتعلق الأمر بكتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة". ولتقديم صورة دقيقة عن الكتاب وقيمة ومنهجه، ارتتأينا الاكتفاء بال الوقوف عند جزئه الأول فقط<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> ابن الأحمر: ثغر فائد الجمان في نظم فحول الزمان، تج. وتق: محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ط. ، ص.

<sup>(٢)</sup> نشير إلى أن هذا الكتاب يقع في أربعة مجلدات (تحقيق عنان). وذكر المقربي، في "الفتح"، أن نص "الإحاطة" الأصلي يقع في مئويةأسفار، معتمداً في ذلك على وثيقة تحيسse.

إن لهذا الكتاب مجموعة من الأصول المخطوطة في عدد من المكتبات العالمية؛ مثل مكتبة ليدن (هولندا)، وجامع الزيتونة (تونس)، ودار الكتب (مصر)، والتحف البريطاني، والخزانة الملكية (الرباط)، وخزانة جامع القرويين (فاس)، ومكتبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف (مصر)، ومكتبة سان لورنزو الملكية بالإسكوريال (إسبانيا)، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريـد... وقد حـقـقـ الكتاب بـعـدـ النـظـرـ فيـ هـذـهـ المـخـطـوـطـاتـ، أوـ فيـ عـدـيـدـ مـنـهـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ،ـ وـالـمـقـابـلـةـ بـيـنـهـاـ.ـ وـيـعـدـ تـحـقـيقـ الـمـرـحـومـ مـحـمـدـ عـبـدـ اللهـ عـنـانـ (١٩٥٦)ـ،ـ فـيـ حـدـودـ عـلـمـيـ،ـ أـجـودـ تـحـقـيقـاتـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ وـأـحـسـنـهاـ،ـ أـظـهـرـ فـيـ صـاحـبـهـ مـقـدرـتـهـ الـعـلـمـيـ،ـ وـمـكـنـهـ الـمـأـلـفـ فـيـ جـهـوـدـهـ،ـ عـادـةـ،ـ فـيـ تـحـقـيقـ نـصـ هـذـاـ الـكـتـابـ التـارـيـخـيـ الـأـدـبـيـ،ـ وـالتـقـديـمـ لـهـ،ـ وـوـضـعـ حـوـاشـيـهـ وـفـهـارـسـهـ الـمـخـلـفـةـ.ـ وـأـكـدـ الـحـقـقـ،ـ فـيـ أـكـثـرـ مـنـ مـنـاسـبـ،ـ أـنـ مـاـ بـلـغـنـاـ مـنـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ قـرـبـ الشـبـهـ بـأـصـلـهـ.ـ وـلـاـ نـرـيـدـ أـنـ نـفـوـتـ هـذـهـ الـفـرـصـةـ دـوـنـ الإـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ نـقـدـاـ كـثـيرـاـ قـدـ وـجـهـ إـلـىـ تـحـقـيقـ الرـجـلـ لـكـتـابـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ مـنـ قـبـلـ عـدـدـ مـنـ الدـارـسـيـنـ الـعـرـبـ؛ـ مـنـهـمـ الـمـرـحـومـ مـحـمـدـ بـنـ تـاوـيـتـ الطـنجـيـ الـذـيـ كـتـبـ سـلـسـلـةـ مـنـ الـمـقـالـاتـ،ـ قـبـلـ خـوـلـائـينـ سـنـةـ،ـ فـيـ مـجـلـةـ "ـالـمـنـاهـلـ"ـ الـمـغـرـيـةـ،ـ لـتـبـيـهـ عـلـىـ مـاـ وـقـعـ فـيـ تـحـقـيقـ الـمـذـكـورـ مـنـ هـفـوـاتـ وـتـصـحـيفـ وـتـحـرـيفـ وـاضـطـرـابـ،ـ وـيـرـجـعـ أـحـدـهـمـ ضـعـفـ هـذـاـ تـحـقـيقـ،ـ بـالـأـسـاسـ،ـ إـلـىـ "ـتـوـعـ مـادـهـاـ"ـ.ـ فـضـلـاـ عـنـ الـأـدـبـ بـشـعـرهـ وـتـرـسـلـهـ،ـ وـهـوـ مـاـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـ بـالـتـخـصـصـ الـعـلـمـيـ لـلـمـحـقـقـ،ـ تـشـتـمـلـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ عـلـىـ التـارـيـخـ وـالـجـغرـافـيـةـ وـغـيـرـهـمـاـ مـنـ الـعـارـفـ وـالـعـلـومـ"ـ(١)ـ.ـ وـلـعـلـ هـذـاـ الغـنـيـ وـالـتـوـعـ هوـ الـذـيـ جـعـلـ بـعـضـ الدـارـسـيـنـ يـدـعـونـ إـلـىـ إـعادـةـ تـحـقـيقـ النـصـ الـمـذـكـورـ مـنـ قـبـلـ لـفـيـفـ مـنـ الـعـلـمـاءـ مـنـ تـحـصـصـاتـ شـتـىـ،ـ ذـلـكـ بـأـنـ "ـنـشـرـ كـتـابـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ يـحـتـاجـ إـلـىـ لـجـنـةـ مـنـ الـأـدـبـاءـ وـالـمـؤـرـخـينـ وـالـجـغرـافـيـينـ؛ـ لـأـنـ الـجـهـوـدـاتـ الـفـرـديـةـ لـاـ تـكـفـيـ لـتـحـقـيقـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـوـسـوعـةـ الـضـخـمـةـ الـمـقـدـةـ الـتـيـ تـحـتـاجـ إـلـىـ مجـهـودـ جـمـاعـيـ لـتـحـقـيقـ ماـ وـرـدـ فـيـهـاـ مـنـ أـعـلـامـ وـأـماـكـنـ،ـ وـشـرـحـ أـسـلـوبـهـ عـلـىـ أـسـاسـ عـلـمـيـ صـحـيـحـ"ـ(٢)ـ.

(١) سبق للأستاذ شفيق العظم أن نشر جزئين من "الإحاطة"، في مطلع القرن الماضي (١٩٠١)، بالقاهرة.

(٢) حسن الوراگلي: لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)، مس، ص ١١٢.

(٣) أحمد مختار العابدي: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع ٢، مج ١٦، صيف ١٩٨٥،

ويلح بعض الدارسين<sup>(١)</sup> على أن ما بين أيدينا، الآن، من "الإحاطة" لا يعدو أن يكون قلّاً من كثـرـ، ولعله لا يبلغ نصف حجمها الحقيقـيـ<sup>(٢)</sup>. كما أنه مزيـجـ من الأصل والمختصراتـ، وأن هذه الأخيرة هي غالـبةـ عليهـ<sup>(٣)</sup>، لاسيـماـ إذا عرفـناـ أنـ الـقـدـمـاءـ قدـ اـحتـفـلـواـ أـيـمـاـ اـحتـفـالـ بـ"ـالـإـحـاطـةـ"ـ، فـكـتـبـواـ مـنـ حـولـهاـ عـدـداـ مـنـ المـخـصـرـاتـ؛ـ مـثـلـماـ فـعـلـ أـبـوـ جـعـفرـ الـبـقـنـيـ،ـ وـمـحـمـدـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ الـبـشـتكـيـ فـيـ مـخـصـرـهـ الـمـوسـومـ بـ"ـمـرـكـزـ الـإـحـاطـةـ"ـ فـيـ أـدـبـاءـ غـرـنـاطـةـ"ـ (ـسـفـرانـ).ـ وـكـانـ قدـ شـكـ الـمـرـحـومـ الـمـونـيـ فـيـ أـصـالـةـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ الـمـتـدـاـولـ نـصـهـ بـيـنـ الـقـرـاءـ وـالـدـارـسـينـ مـذـ الـخـمـسـيـاتـ،ـ مـطـلـقاـ مـاـ لـمـ سـهـ مـنـ تـنـاقـضـ حـينـ قـارـنـ بـعـضـ مـنـ تـرـجـمـاتـهـ بـأـوـرـدـهـ الـمـؤـلـفـ عـيـنهـ فـيـ مـصـنـفـاتـهـ الـأـخـرـقـ بـخـصـوصـ مـتـرـجـمـ لـهـ بـعـيـنهـ.ـ يـقـولـ:ـ يـبـيرـ الـانتـبـاهـ فـيـ كـتـابـاتـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ الـتـارـيخـيـ تـنـاقـضـهـ فـيـ أـوـصـافـ بـعـضـ النـاسـ،ـ فـيـحـلـيـ مـتـرـجـمـهـ بـخـلـيـةـ الـعـلـمـ وـفـضـلـ وـكـرـمـ الـأـبـوـةـ...ـ حـتـىـ إـذـ عـاـوـدـ تـرـجـمـتـهـ فـيـ مـؤـلـفـ آخـرـ يـسـلـبـهـ كـلـ فـضـيلـةـ،ـ وـيـسـبـدـلـهـ بـمـاـ يـكـيلـ لـهـ مـنـ الشـتـمـ وـالـسـخـرـيـةـ.ـ وـغـاذـجـ هـذـاـ لـيـسـ بـالـقـلـيلـةـ عـنـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ،ـ وـمـنـهـ مـاـ يـتـبـيـنـ بـالـمـقـارـنـةـ بـيـنـ تـرـاجـمـ وـرـدـتـ فـيـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ ثـمـ فـيـ "ـالـكـيـبـةـ الـكـامـنـةـ"ـ<sup>(٤)</sup>؛ـ حـيـثـ كـانـ التـعـرـيفـ بـأـمـثـالـ أـبـيـ سـعـيدـ اـبـنـ لـبـ،ـ وـالـنـبـاهـيـ،ـ وـأـبـيـ الـقـاسـمـ بـنـ قـطـبـةـ الرـؤـاـسـيـ،ـ وـابـنـ زـمـرـكـ،ـ وـأـحـمـدـ بـنـ سـلـيـمـانـ بـنـ فـرـكـونـ.ـ فـتـأـيـ تـرـاجـمـ هـؤـلـاءـ فـيـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ بـمـاـ يـتـجـاـوبـ مـعـ مـرـكـزـهـ الـعـلـمـيـ أوـ الـأـدـبـيـ حـتـىـ إـذـ قـدـمـ تـرـاجـمـهـ فـيـ "ـالـكـيـبـةـ"ـ تـغـيـرـ رـؤـيـةـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ لـلـمـتـرـجـمـ،ـ وـيـسـبـغـ عـلـيـهـ -ـ أـحـيـاـنـاـ -ـ مـنـ قـبـحـ النـعـوتـ مـاـ لـيـحـتـمـلـ،ـ وـيـصـلـ بـهـ تـنـاقـضـ إـلـىـ الـأـمـرـ بـاسـقـاطـ تـرـجـمـةـ اـبـنـ فـرـكـونـ مـنـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ،ـ عـلـىـ حـينـ أـنـهـ تـنـصـفـ وـاقـعـ الـمـرـجـمـ،ـ عـكـسـ تـرـجـمـتـهـ الـمـظـلـمـةـ فـيـ "ـالـكـيـبـةـ"ـ<sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> رابح المفراوي: كتاب "الإحاطة بأخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب الأندلسي (٧١٣ - ٧٧٦ھـ): منهجهة التأليف والتصنيف (دراسة تحليلية)، مجلة آفاق الثقافة والتاريخ، ع ٢١٢٠، س ٥، أبريل ١٩٩٨، ص ١٨٢ - ١٨١.

<sup>(٢)</sup> ومن صرـحـ بذلك عبد السلام شـغـورـ، الذي سـبـقـ لهـ أـنـ نـشـرـ قـطـعةـ مـنـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ لـمـ تـرـدـ فـيـ تـحـقـيقـ حـمـدـ عـنـانـ، عـشـرـ عـلـيـهـ فـيـ مـكـبـةـ الـإـسـكـوـرـيـالـ (ـمـدـرـيـدـ)، تـضـمـ أـرـيـدـ مـنـ مـائـيـنـ وـمـائـةـ تـرـجـمـةـ.ـ (ـانـظـرـ درـاستـهـ مـاـ لـمـ يـنـشـرـ مـنـ كـاتـبـ "ـالـإـحـاطـةـ"ـ لـابـنـ الـخـطـيـبـ،ـ مجلـةـ الـآـدـابـ بـطـوانـ،ـ عـ ٢ـ،ـ سـ ٢ـ،ـ ١٩٨٧ـ،ـ صـ ٣٩٩ـ ٤٤٥ـ).

<sup>(٣)</sup> رابح المفراوي: كتاب "الإحاطة بأخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب الأندلسي: منهجهة التأليف والتصنيف...، ص ١٨١ - ١٨٢.

<sup>(٤)</sup> العنوان الكامل للكتاب هو "الكتيبة الكامنة في ملئياته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة"، وهو مؤلف في الترجم، حققه إحسان عباس، عام ١٩٦٣، ونشره بدار الثقافة البيرورية.

<sup>(٥)</sup> محمد المنوني: محاولة لقراءة جديدة في التراث التاريخي لابن الخطيب، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع ٢، س ٢، ١٩٨٧، ص ١٥٢.

إن كتاب "الإحاطة" ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه الكُورة الأندلسية المعروفة من الأخبار والأوصاف والمعالم. إذ إنها تصف لنا جغرافية غرناطة وخططها ومواقعها وما يحيط بها من المروج والجبال، وتتناول تاريخها<sup>(١)</sup> منذ نزول أوائل العرب الشوام بها، وأخبار من كان بها ومن نزلها أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمغلبين، كما تقدم خلاصة لتاريخ الدولة النصرية مذ عصر مؤسّسها محمد بن يوسف بن الأحرmer حتى عصر المؤلف (ق ٨٤هـ). كما ركز حديثه، كثيراً، على هذه الحاضرة الإسلامية على عهد ملوك الطوائف (ق ٥٥هـ) مؤرخاً لها، وواصفاً جوانب متعددة من حضارتها وبيئتها ورجالاتها ونحو ذلك. وعلى الرغم من أن إحاطة ابن الخطيب وكبة الأخرى تعد مصادر مكمّلة فيما يخص دراسة تاريخ هذه الكورة، بحكم زمن تأليفها التأخر عن عصر الطوائف، إلا أنها تظل محتفظة بقيمتها الأكيدة بالنسبة إلينا، في ظل قلة الكتابات التاريخية القديمة التي بلغتنا في هذا المجال. يقول أحد باحثينا المعاصرين : "تكمّن قيمة مؤلفات ابن الخطيب في كونها مصدرًا تكميلياً أو إضافياً لدراسة الأندلس في عهد الطوائف. فقيمتها أقل من قيمة المصادر المعاصرة لعهد الطوائف، إلا أن المصادر التكميلية لها قيمتها عندما يتعلق الأمر بعهد يبعد عنا بستة قرون نظراً لقلة ما وصلنا من مصادر لا تُشفى الغليل"<sup>(٢)</sup>.

وفي "الإحاطة" ترافق لكثير من الأعلام الذين عاشوا في غرناطة، أو نزلوا بها، أو مرّوا بها، أو وفدوا عليها في مختلف عصور التاريخ الأندلسي المتدا. وقد أفضى مؤلفها في ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران، واعتنى عناية خاصة بالترجمة لكتاب العلماء والكتاب والشعراء من جایلوه، سواء في العدوة الأندلسية أو في العدوة المغربية، وأورد لهم كثيراً من إنتاجهم الفكري شرعاً وتراثاً. ويضم كتاب "الإحاطة" بين دفتيه زهاء خمسمائة ترجمة تفاوت فيما بينها طولاً وقصراً وأهمية، مع ملاحظة أن أغليها مركّز وقصير، وأن ما كان يجتمع منها إلى الطول، نسبياً، هي، في الغالب، تلك المخصصة للملوك والأمراء النَّصريين الذين عاصرهم، ولبعض حملة القلم المشهورين. فإذا قارنا، على سبيل المثال، بين الترجمتين

<sup>(١)</sup> من مصادر ابن الخطيب، في "الصحوة"، كتاب يظهر من عنوانه أنه يورخ لغرناطة، هو "الإحاطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة"، نسبة إلى نفسه. ولكنه لم يذكره، إطلاقاً، ضمن ثبت مؤلفاته الوارد في آخر "الإحاطة"، ولا في ترجمته لنفسه في "نهاية الجراب"! كما أن المهنّتين بدراسة التراث الأدبي الأندلسي ونشره لم يقفوا على خطوطه للإحاطة في أي من المكتبات التي تحفظ بكتب هذا التراث! الأمر الذي جعل محمد عنان يرجح أن يكون العنوان المذكور عنواناً آخر للإحاطة، أو مختبراً لقسمها الأول فقط. (انظر تقديميه للإحاطة، ٥٩ - ٥٨١).

<sup>(٢)</sup> محمد بن عبود: ابن الخطيب مؤرخ الأندلس في عهد الطوائف، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع. ٢، س. ١٩٨٧، ص ١٨٣.

اللتين أفردَهما ابن الخطيب لأحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمданى التخمي وابن جزى الكلبى مجدًّا أن الأولى قصيرة جداً، على حين أن الثانية طويلة نسبياً. بل إن من تراجم إحاطته ما ناهز الخمس وسبعين صفحة؛ كما في ترجمته للأمير محمد بن يوسف بن إسماعيل الغنى بالله النصري الغرناطى. ولم يكن تطويل التراجم شأنًا خاصاً بأهل إغريانة الأصلاء، بل عمد إلى مثل ذلك مع غير الغرناطيين؛ على نحو ما نرى في ترجمته لمعاصره أبي عبد الله محمد بن محمد القرشى المقرى (ت ٧٥٩هـ)؛ قاضي الجماعة بفاس وتلمسان، الذي استوت ترجمته، في "الإحاطة"، على خمس وثلاثين صفحة تقريباً.

إن المترجم لهم في الكتاب مختلفون؛ ذلك بأن ابن الخطيب ترجمَ، في إحاطته، للملوك والأمراء (كامير المؤمنين الموحدى المؤمنون، وأمير المؤمنين الأندلسي إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خمسين بن نضر بن قيس المخزري الأنباري)، والقواد (كأسد بن الفرات المري)، والقضاة (كالحضرى بن أحمد بن الحضرى أبي العافية)، والأدباء (كالحسن بن محمد بن علي الأنباري)، والعلماء (كأصبىع بن محمد بن الشيخ المهدى)، والشعراء (كأبى بكر المخزومى الأعمى الموروري)، والطلاب النجابة (كمحمد بن الحسن بن زيد بن أبىوب بن حامد الفاقفى). ولم يقتصر لسان الدين على الرجال، بل إنه ترجم للنساء كذلك؛ من مثل حمدة بنت زياد المكتب، وأم الحسن بنت القاضى أبي جعفر الطنجالى؛ وهي من أهل لوشى؛ مسقط رأسه.

لقد استهلَ ابن الخطيب أول أجزاء إحاطته بقدمه قيمة تعداد صفحاتها حوالي الخمس، افتتحها بقوله: "أما بعد حمد الله الذى أحصى الخلائق عدداً، وابتلاهم اليوم ليجزيهم غالياً..."، وختمتها بقوله: "وجعلت هذا الكتاب قسمين، ومشتملاً على فئتين: القسم الأول فى حلى المعاهد والأماكن، والمنازل والمساكن. القسم الثاني فى حلى الزائر والقاطن، والتحرك والساكن". فهذه المقدمة، على قصرها، ضمت جملة من العناصر والمضامين؛ ففيها حمد الله تعالى والثناء عليه، والصلوة على الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين. ويطرد هذا العرفُ في الكتابات الإسلامية المتقدمة جميعها. وعقب ذلك، أومأ الرجل إلى أهمية فن التاريخ، وبين بعض دواعي الاحتفال به؛ على نحو ما فعل ابن خلدون في فاتحة مقدمته. وفي المقدمة نفسها ذكر لنا ابن الخطيب سبب تأليفه "الإحاطة"، وهو أنه رأى كثيراً من العلماء والأدباء قد ألغوا تاريخ لأوطانهم في الشرق والغرب معاً؛ من مثل ابن عساكر (تاريخ دمشق)، وأبو نعيم (تاريخ أصبهان)، والأردسى (تاريخ سمرقند)، والقشيري (تاريخ الرقة)، والأزرقى (تاريخ مكة)، وابن النجاشي (تاريخ المدينة)، وابن الأصغر (تاريخ تلمسان)، وابن أبي زرع (تاريخ فاس)، وابن خمسين (تاريخ

الجزيرة الخضراء)، فحرّك فيه ذلك شعوراً دفعه إلى التفكير في كتابة تاريخ لكورته "غرناطة". كما ذكر ابن الخطيب منهجه في التأليف والترتيب وموضوعات إحياته؛ إذ أشار إلى أن كتابه هذا يتحدث عن إقليم غرناطة من حيث هواه، وسكناه، وقبائله، وملوكيه، وأعيانه، وأكابرها، وفضلاوه، وقضائه، وأدباؤه، وزهاده، وغير ذلك من الأمور المتصلة بذلك الإقليم. وأشار، كذلك، إلى أحد المتقدمين الذين عمدوا إلى كتابة تاريخ لغرناطة، إلا أن حاولته جاءت قاصرة في نظره؛ حيث يقول: "كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة قام من هذا الفرض بفرض، وأنى من كله ببعض، فلم يُشفِّفْ من غلة، ولا سُدَّ خلة، ولا كثرة، فقمتُ بهذا الوظيف، وانتدبْتُ فيه للتأليف"<sup>(١)</sup>. وذكر أن عمله هذا الذي هو مُقدِّمٌ عليه لن يكون شاملًا، ولن يكون كاملاً؛ لـ"زيارة حظ الصحة، وازدحام الشواغل الملحقة"<sup>(٢)</sup> عليه. وما تمتاز به مقدمة "الإحاطة"، من الناحية اللغوية والأسلوبية، غلبة ظاهرة السجع عليها، وكذا طابع الإيجاز والجمل القصيرة المتوازية، وحضور اللفظ الغريب والخلل الفصيح بين ثنياتها أيضاً.

ويقع الجزء الأول من "الإحاطة"، فضلاً عن الخطبة/ المقدمة، في قسمين اثنين. فأما الأول فعنوانه "في حلِّ المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن"، وقد تطرق فيه المؤلف إلى اسم مملكة "غرناطة" (أو إغرناطة)، وتحدث عن تاريخها وجغرافيتها وبنائها وفتحها ونزوول العرب الشاميين من جند دمشق بها وعمَّن تداول هذه المملكة العريقة منذ أن صارت دار إمارةبني زيري، سنة ٤٠٣ هـ، إلى أن تخذلها بنو الأحرmer قاعدة ملكهم. وأما القسم الثاني فعنوانه "في حلِّ الزائر والقطن والمتحرك والساكن" ، وقد ترجم فيه ابن الخطيب لعدد من الرجال والأعلام ذكوراً وإناثاً، ومنهم: ابن جُزَيِّ الكلبي، وابن قُعْنَب، وابن الباذش، وابن مصادق، وابن فركون، وابن صفوان، وابن خاتمة الأنصارى. وتجدر الإشارة إلى أن في هذا الجزء، الواقع في أزيد من ٦١٥ صفحة من القطع المتوسط، ستَّا وتسعين ترجمة مرتبة ترتيباً أُبجَدياً، بدأها ابن الخطيب بحرف الهمزة؛ بحيث إن أول ترجمة، هنا هنا، هي ترجمة أحمد بن خَلَفَ بن عبد الملك الغساني القُلُبِي، وأخر ترجمة هي ترجمة محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الأنباري الخزرجي. إلا أنه لم يتلزم بهذا الترتيب التزاماً دقِّياً!

<sup>(١)</sup> ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٨٥/١.

<sup>(٢)</sup> نفسه.

ويتضح من قراءة "الإِبْحَاطَة" أن صاحبها قد اتبع منهاجاً مُتميّزاً في تنظيم محتواها وموادها. ونقصد بالمنهج (*Méthode*)، في هذا الصدد، الطريقة التي يسلكها المؤلف في ترتيب عناصر مؤلفه وتصنيفها وتنظيمها. كما يُراد به، في سياق آخر. الطريق التي يسلكها الدارس لمعالجة الظاهرة الأدبية وتحليلها وتأويلها. وقد أشار ابن الخطيب، في مقدمة كتابه، إلى بعض معالم منهاجه في تصنيف "الإِبْحَاطَة"، وهو منهاج يمتاز، عموماً، بالوضوح والإحكام إلى حد بعيد. يقول: "ذَكَرْتُ الْأَسْمَاءَ عَلَى الْمَحْرُوفِ الْمَبْوَأَةِ، وَفَصَلَتْ أَجْنَاسَهُمْ بِالْتَّرَاجِمِ الْمُرْتَبَةِ؛ فَذَكَرْتُ الْمُلُوكَ وَالْأَمْرَاءَ، ثُمَّ الْأَعْيَانَ وَالْكُبَّرَاءَ، ثُمَّ الْفَضَّلَاءَ، ثُمَّ الْفَضَّاءَ، ثُمَّ الْمُقْرَنِينَ وَالْعُلَمَاءَ، ثُمَّ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفَقَهَائِينَ وَسَائِرِ الْطَّلَبَةِ النَّجَابَاءَ، ثُمَّ الْكِتَابَ وَالشِّعْرَاءَ، ثُمَّ الْعَمَالِ الْأَثْرَادَ، ثُمَّ الزَّهَادَ وَالصَّلَحَاءَ وَالصَّوْفَيَّةَ وَالْفَقَرَاءَ"<sup>(١)</sup>. ويُسَوِّغُ هذا الترتيب الذي ارتضاه لترجم كتابه برغبته في أن يكون الابتداء بالملك، والاختتام بالملوك<sup>(٢)</sup>. وعمد إلى تقسيم كل فئة من المترجم لهم المشار إليهم في النص السابق، تقسيماً داخلياً، إلى "مَنْ سَكَنَ الْمَدِينَةَ بِحُكْمِ الْأَصَالَةِ وَالْإِسْتِرْكَارِ، أَوْ طَرَا عَلَيْهَا مَمَّا جَاَوَرَهَا مِنَ الْأَقْطَارِ، أَوْ خَاضَ إِلَيْهَا وَهُوَ الْفَرِيقُ أَثْيَاجُ الْبَحَارِ، أَوْ أَلْمَ بَهَا وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"<sup>(٣)</sup>. مؤديًّا هنا أن مساحة أولئك المترجم لهم ستكون أوسع؛ بحيث لن تقتصر على أبناء غربناطة فحسب، بل ستشمل، كذلك، كل من كانت له علاقة بهذا المكان من قريب أو من بعيد. وعلى هذا الأساس، فقد أفتى، بالفعل، بترجم للأندلسيين والمغاربيين وبعض المغاربة والنصارى من القشتاليين وغيرهم.

لقد ذكر ابن الخطيب في مقدمة إحاطته، وفي منتها، مصادره ومظانه، وعلى رأسها تواريخ ابن القوطية وبني الرازي، و"المقبس" لابن حيان، و"قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، و"الذخيرة" لابن سبام الشنتريني، و"تاريخ مالقة" لابن عساكر، و"البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي، و"روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي. ورجح، فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية، بشكل كبير، إلى تاريخ ابن الصيرفي المسماً "الأنوار الجليلة في تاريخ الدولة المرابطية". أما فيما يخص الترجم، فقد رجع الرجل إلى "تاريخ علماء إبيرة" لأبي القاسم الغافقي الملأحي (ت ٦١٩ هـ)، وإلى تاريخ ابن مسدة المسماً "تاريخ قومه"، وإلى "القديح المعلى في التاريخ الملائى"، وإلى "الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد" لابن سعيد الأندلسي، وإلى "الحلة السيراء" لابن

<sup>(١)</sup> نفسه، ٨٧/١.<sup>(٢)</sup> نفسه.<sup>(٣)</sup> نفسه.

الأبار البنسي، وكتاب "الصلة" لابن بشكوال، و"صلة الصلة" لابن الزبير، و"الذيل والتكميلة" لابن عبد الملك المراكشي. ورجمع، فيما يتعلق بمعاصيره – وهم الكثرة الغالبة في إحياته – إلى مادة غزيرة من الوثائق والمعلومات الخاصة من ذوي الشأن أنفسهم أو من أقربائهم ومعارفهم. ورجمع، فيما يتعلق بسلطان الدولة النصرية وزرائها وكبارها، إلى الوثائق والمخطوطات السلطانية والديوانية.

ويبدو لسان الدين، في كتابه، بعض أقوال الأدباء والعلماء الآخرين، وكذلك مصادرها. وتارة ينقل الرجل من أحد كتبه المؤلفة قبل "الإحاطة"؛ منها "عائد الصلة" الذي جعله نيلاً لـ"صلة ابن الزبير" (ت ٧٠٨هـ)، وـ"ظرف العصر في تاريخ دولة بنى نصر"، وـ"اللمحة البدرية"، وـ"نفاضة الجراب"، وـ"الكتيبة الكامنة"، وـ"التاريخ المحلي في مساجلة القدر المعلى"<sup>(١)</sup>. كما نلاحظ، في متـن "الإحاطة"، أن صاحبـها كثيـراً ما يستعين بالشعر لأهميـته ووفرـته. وقد استعمل ابن الخطيب في تأليفـه هـذا أسلوبـاً جـزاً، رـصيناً، مـسجـعاً، جـذابـاً.

إن تراجم الكتاب متفاوتـة فيما بينـها من حيث الحجم، وخـاصـعة لمـنهـج واضح الصـوـى عمومـاً. فهو يذكر، في التـرـجمـة، اـسـمـ الشخصـ المـترجمـ لهـ، وأـجـادـاهـ، وـكـيـنـيـهـ، ولـقبـهـ الـذـي عـرـفـ بهـ، وـانتـماءـ الـعـرـقـيـ، وـولـادـتـهـ، وـحـالـهـ، وـأـخـارـهـ، وـأـولـيـتـهـ، وـمـشـيخـتـهـ، وـمـخـنـتـهـ وـنـكـبـتـهـ، وـمـنـاقـبـهـ، وـبـنـاهـتـهـ وـخـطـوطـهـ، وـزـلـايـهـ، وـشـعـرـهـ وـكـتـابـتـهـ، وـدـخـولـهـ غـرـنـاطـةـ إـنـ كـانـ أـجـنبـاًـ، وـتـوـالـيـفـهـ وـمـصـنـفـاتـهـ، وـمـذـهـبـهـ، وـأـوـلـادـهـ، وـوـفـاتـهـ... إـلـخـ<sup>(٢)</sup>. والجدير بالذكر أن ابن الخطيب لم يكن يورد كل هذه العناصر في التـرـجمـةـ الـواحدـةـ بـشـكـلـ مـطـرـدـ، وإنـماـ كانـ يـركـزـ عـلـىـ بـعـضـهـاـ فـقـطـ، عـلـىـ أـنـ مـنـهـاـ مـاـ كـانـ ثـابـتـاـ دـائـمـ الـورـودـ فيـ جـمـيعـ التـرـجمـاتـ؛ـ وـأـقـصـدـ اـسـمـ المـترجمـ لـهـ، وـنـسـبـهـ، وـأـصـلـهـ، وـكـيـنـيـهـ، وـحـالـهـ، وـمـوـلـدـهـ، وـوـفـاتـهـ.

والحق أن كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة"، كما يسمى في مخطوطة دار الكتب بمصر، ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس، أو "الإحاطة بتاريخ غرناطة" أو "الإحاطة في تاريخ غرناطة" أو "الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة"، يعد أشهر كتب ابن الخطيب وأهمها، رغم أن المتوفر منه لدينا ناقص... كما يصعب على القارئ حصره في بـوـتـقةـ وـاحـدةـ، بلـ إـنـهـ كـتـابـ ضـخـمـ فـيـ التـارـيـخـ وـالـأـدـبـ وـالـتـرـاجـمـ وـغـيـرـهـ. وـكـانـ لـلـكـتابـ نـفـسـهـ مـكانـةـ خـاصـةـ عـنـدـ صـاحـبـهـ الـذـي ظـلـ "ـدـائـمـ الـصـلـةـ بـهـ،ـ يـنـقـحـهـ،ـ وـيـضـيـفـ إـلـيـهـ طـوـالـ حـيـاتـهـ.ـ فـقـدـ بدـأـ قـبـلـ مـحـنـتـهـ

<sup>(١)</sup> هذا التأليف عبارة عن مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ تأسيسها على يد بنى نصر. كما يتضمن تراجم لأعيانها في القرن الثامن الهجري؛ ومنها ترجمة أفرادها ابن الخطيب لنفسه، وأخري لأبيه.

<sup>(٢)</sup> نفسه، ٨٧/١ - ٨٨.

الأولى ونزوحه إلى المغرب سنة ٧٦٦هـ، وأنّه للمرة الأولى سنة ٧٦٩هـ، وبعث بنسخة منه إلى القاهرة في هذه السنة نفسها. ثم واصل اهتمامه به إلى ما بعد سنة ٧٧٢هـ<sup>(١)</sup>. وقد تحدث العديد من العلماء والنقاد – سواء من القدماء أو من المحدثين (عرب وغير عرب) – عن شخص ابن الخطيب وعلمه الغزير الذي شبهه الأمير شكيب أرسلان بـ"البحر الخضم الذي لا يقدر الإنسان أن يخصيًّاً مواجهة"، وعن مؤلفه المتميز هذا، وأشاروا بقيمة العلمية والأدبية... والواقع أنه لا يمكن لأي دارس لتاريخ الأندلس وحضارته عامة، ولتاريخ غرناطة وحضارتها خاصة، الاستغناء عن "إحاطة" ابن الخطيب السلماني.




---

<sup>(١)</sup> رابح المغراوي: كتاب "الإحاطة بأخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب الأندلسي: منهجية التأليف والتصنيف...، م.س، ص! ١٦!

# نظريّة التحدّي لدى ابن شهيد رسالة (النوابع والزوايا) أنموذجاً

٣٨٢ - ٩٩٢ هـ ١٠٣٤ م

## المقدمة

\* د. محمد دوالبي

زخر بحر الأدب العربي في الأندلس بدرر أدبية ثمينة تعددت مناحيها وتنوعت اتجاهاتها، فمنها ما كان يتصل بالأدب الخالص، ومنها ما كان يتصل بالفکر أو التصوف أو الفلسفة أو البلاغة أو النقد الأدبي وباقى العلوم الأخرى، ولمعت في سماء الإبداع الأندلسي أسماء عديدة كان لها الفضل المبين في إبراز قواعد كل علم من علوم العربية خصوصاً، والأصول التي كان يقوم عليها ذلك العلم، وقد حظيت تلك العلوم بالعديد من الدراسات والبحوث على اختلاف مستوياتها، ومدى التزام الباحثين في تناولها، والنتائج التي اهتدوا إليها بعد الجهد والبحث. ويوضح هذا البحث إلى دراسة علّم من أعلام الأدب والنقد الأندلسيين، وهو أبو عامر ابن شهيد القرطبي، وسوف يتناول جوانب من شخصية ابن شهيد وأدبه ونقده من خلال رسالته (النوابع والزوايا) ولعل هذه الجوانب لم تحظ بالدراسة والبحث الوافيين، وسيقف البحث هنا على جوانب أدبه ونقده ليحاوّل إبراز أهم القضايا النقدية التي طرّقها والآراء التي طرّحها ودافع عنها.

\* مدرس الأدب الأندلسي في جامعة حلب.

والتي شكلت أصلاً من أصول صناعة الأدب (شعرًا ونثراً) في أدبنا العربي الأندلسي، سواء بما تأثر بها من أدب المشرقيين وتقديهم، أو بما كان من ابتكاره هو، معتمداً على موهبته وفطرته وما اكتسبه من أصول صناعة الأدب والنقد، وكان يحدوه في عمله هذا هدف طالما سعى إليه ابن شهيد، وهو ترسيخ نظرية التحدى التي تبناها في رسالته المذكورة، فحاول إفحام خصومه من الأباء والنقاد والغلب عليهم، والذين ما انفكوا يحاولون النيل منه ومن أدبه وفنه، وكان هدفه أيضاً إثبات ذاته في صنعة الأدب والنقد، وإبراز فحوله بالبرهان واللحجة والدليل على من ناصبه الخصومة والعداء، وسنتي تفصيل ذلك من خلال دراستنا لرسالته (الدوايغ والزوايغ).

### موجز عن سيرته:

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن عبد الملك بن شهيد، "وكان جد أبيه أحمد وزير الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن الثالث؛ وأول من تسمى بذوي الوزارتين في الأندلس، ولد أبو عامر بن شهيد بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر؛ وذلك في عهد الحاجب محمد بن أبي عامر الذي حجب الخليفة القاصر عن الحكم"<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر البستاني في مقدمة (الرسالة) ما يخص شيئاً عن طفولته كان له الأثر البالغ في نفسه وحياته: "كان ابن شهيد في العاشرة من عمره، وكان والده أبو مروان قد زهد في الدنيا... وخطر له أن يمحجّب ولده عن الحياة الماهنة، فحلق له لته ونزع عنه ثياب الحرير وألبسه لباس الكتان وحمله على التقشف وقصافة العيش، فتذمر الصبي من ذلك وضاق ذرعاً بما يفعله أبوه فيه، وكان لذلك أثر عميق في صبوته؛ فقد هبّ بهجة الحياة ورونق الحياة"<sup>(٢)</sup>.

وجعله ذلك يعيش في كبره ما حُرمَه في الفتولة والصبا، إلا أنه أفرط فيما بعد في حياة الترف ومتطلبات النفس، حتى ألمَ به الفالج، وظل ابن شهيد على رغم مرضه يقرض الشعر ويكتب الشعر مراسلاً به أصدقاءه من الوزراء والأدباء، وكانت وفاته سنة (٤٢٦) عن عمر ناهز الرابعة والأربعين.

توفر لابن شهيد عدد من الصحابة الراقيين، كان منهم الوزراء والكتاب، والأمراء وذلك في مجالس السياسة والأنس، وكان في تلك المجالس قطب الفلك ومخط الاهتمام من ذوي شأن؛ يلتمسون مودته

(١) ابن شهيد، رسالة التوايغ والزوايغ ص ٧/٧، تحقيق: بطرس البستاني - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٦ - ١٩٩٦م.

(٢) ابن شهيد - الرسالة ص ٩/٩ - بتصرف وإيجاز.

ويشيرون قريحته الأدبية، وقد بادلهم الود الصادق بود أصدق، ومنهم الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم.

أما تلك المنزلة التي حازها ابن شهيد وتقلب بين جنبها متنعماً بذاته، المودة والإعجاب والشهرة، وممتعة الاعتداد بالنفس فقد عادت عليه، من جانب آخر بالأرق والهم والظلم، وذلك حين ترصد له خصومه من الحساد والمنافسين من أقرانه وأصحاب حرفة، إذ ساءهم ما كان ينعم به عند الملوك والأمراء، وأرق لهم ما وُهب من الذكاء وقوة التفكير، فسعوا به لدى أولئك الحكماء، وأوغروا صدورهم عليه، وحاولوا النيل منه ورميه بسهام الانتقاص والتجریح، وذكر منهم ابن شهيد في (رسالته) ثلاثة بكتاهم من دون ذكر أسمائهم، وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر الذي أورد ابن شهيد كلاماً له في رسالته (التابع والزوایع) "كيف أتي الحكم صبياً، وهزّ بجذع النخلة فاسقط عليه رطباً جنباً؟"<sup>(١)</sup>، وزاد صاحب الذخيرة في روایته "أما ابن به شیطاناً یهدیه، وشیصباناً یأتیه (وأقسامُ آنَّ له تابعةً تُتجدهُ، وزبعةً تؤیده، ليس هذا في قدرةِ الأنس" وللرواية بقيةً عند ابن بسام).

### أدبه ونقده

ويدل شعره على أنه سما به إلى مواطن الإبداع، وشف عن سماته العامة والخاصة، ويستحق النظر فيه والإمعان في معانيه، فهو يومئ إلى منهجه وتفكيره وطرق تعبيره، ثم إنه تناول كباقي الشعراء أغراض الشعر عامة كالملديع والهجاء والرثاء والفخر والوصف. وغيرها؛ لقد وصف المرأة ومجالس اللهو، والطبيعة والصيد، وهنا وقع ابن شهيد بشراك الرأي وخلافه حين لام الشعراء أقرانه لأنهم قدموه لقصائد هم بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ثم فعل هو ما نهى عنه، وخصوصاً أنه عاش حياة القصور وواكب حضارة الأندلس، وله في ذلك رأي نقدي في إتقان صناعة الكلام "وما يلزم المدعى لصناعة الكلام، إذا اعتمد وصف حالة أن يستوفي جميعها، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسيط لها، فذلك أبهى لكلامه، وأفحى للمتكلم به، وأدل على أن الكلام له"<sup>(٢)</sup>، وقد علق (البستانى) على هذا الرأي بقوله: وهذا النقد جميل يدل على بصره بالشعر ومذاهبه.

وما أخذَ عليه أيضاً الاعتماد على نهج القصيدة القدية (الوقوف على الأطلال وبكاء الديار)، فقد عاد ابن شهيد في بعض وصفه للصيد إلى نهج القديم، وذلك حين قال:

(١) ابن شهيد (الرسالة)، ص/٢٩٠، ونظر: الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص/٢١٠/.

(٢) ابن شهيد (رسالة التوابع والزوایع) ص/٣٩٠/.

نَمَسْحٌ بِالْخَوْذَانِ مِنْهُ أَكْفَنا  
إِذَا مَا اقْتَصَنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلٍ  
فهو في ذلك يقفوا أثر امرئ القيس حين قال:  
نَمَشُّ بِأَعْرَافِ الْخَيْولِ أَكْفَنا  
إِذَا نَحْنُ قُمنَا عَنْ شَوَاءِ مُضَهَّبٍ<sup>(١)</sup>

ويشهد (البستانى) بعد هذا بفحولة ابن شهيد في مجال النقد الأدبي حين يقول: "فأبو عامر من خيرة النقاد في العصر القديم، وله نظرات جريئة يحمد عليها، وإن تسلم من الغمز والتجريح، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا، ... وسيمرّ بنا شيء غير قليل من نقده وسخره في رسالة التوابع والزوايا"<sup>(٢)</sup>. ولهذا كله جعل ابن شهيد من رسالته تلك كنانته الفضلى، جمع فيها سهام نقه ومجلى أدبه، فقد افتخر فيها بفنه شعراً وثراً، وسدّد سهامه تباعاً لحساده وأنداده، ورمى بها نقداً بنقد، وتهكمماً لاذعاً بشعرهم وتراثهم بمثل ما فعلوا به من قبل تميزاً وغليظاً.

ونحن سنحاول في هذا البحث الوقوف على أبرز مواطن إبداعه الأدبي، والكشف عن عبريته النقدية التي كانت وليدة لوهبة فذة وخياط خصب رحيب وحسن مرتف، وذكاء وقاد، ونقف هنا على وصفه لنفسه بتلك المواهب "من خلال حوار وجهه لصديقه أبي بكر بن حزم "لله أبا بكر ظن رميته فأصمتَ، وحدَّسْ أملَّته فما أشُوتَ؟ أبديتَ بهما وجهَ الجلَّةِ، وكشفتَ عنْ غَرَّةِ الحقيقةِ، حينَ لمحَ صاحبَكَ الذي تكَبَّسَهُ، ورأيَتَه قد أخذَ بأطرافِ السماءِ، فآلَفَ بينَ قَرَبَيْها، ونظمَ فرقَيْها، فكلَّما رأى ثُغْرَأَ سَدَّهُ بسُهَاهَا، أو لمحَ خَرْقاً رَمَّهُ بِزَيَانَاهَا"<sup>(٣)</sup>.

ويتعجب صاحبه أبو بكر من براعة هذا الوصف، فيزيده ابن شهيد عجباً حين روى له قصة لقائه الأول مع شيطانه وملهمه في أدبه وتقدده (زهير بن نمير)، الذي اخذه خليلاً ورفيق سفر، قال "فاصبحَ أسمِعُكَ العَجَبَ الْعَجَابَ (وقصَّ عَلَيْهِ حَكَايَةَ حُبِّ سَالِفَةٍ كَانَ قَدْ عَاشَهَا فِي فَتوَّهٍ وَخَطْفِ الْمَوْتِ مُحِبَّوْهُ فَرِثَاهُ رَثَاءً حاراً) قال:

(١) ابن شهيد (رسالة التوابع والزوايا) ص/٤٠/. الخوذان: بنت أصفر - مُضَهَّب: لحم مقطع مشوي لم يتضجج جيداً. على حجارة عمادة، ووردت (الخيول) في رواية ديوان امرئ القيس (الجياد). تأليف حسن السنديسي.

(٢) المصدر نفسه ص/١٢٧/.

(٣) ابن شهيد، رسالة التوابع والزوايا ص/٨٧/. أصمت: أصبت - ما أشوت: ما أخطأت - سهاماً: كوكب زيانها: كوكبان نيران.

تَوَلَّى الْحِمَامُ بَطْبَى الْخَدْرُ  
وَفَازَ الرَّدَى بِالْفَزَالِ الْغَرِيرِ  
وَكُنْتُ مِلْلَتُكَ لَا عَنْ قِلْسٍ  
وَلَا عَنْ فَسَادٍ جَرِي فِي ضَمَيرِي<sup>(١)</sup>

فأرتجَ على ابن شهيد القول ولم يستطع إتمام قوله، وهنا يجتمع بخياله ليرسم صورة بارعة لأول لقاء جمعه بشيطان أدبه، وهو (زهير بن نمير) فيقول: "فأرتجَ علىَ القولُ وَأفحِمْتُ، فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما يقلَ وجهه، قد اتكاً على رُمحِه، وصاح بي: أعجزَ يافتي الإنسِ؟ قلتُ: لا وأبيكَ للكلامِ أحياناً، وهذا شأنُ الإنسَانِ! قال لي: قُلْ بعده:

كَمِثْلِ مَلَلِ الْفَتَّى لِلْتَّعِيمِ إِذَا دَامَ فِيهِ وَحَالَ السُّرُورُ

فيقول ابن شهيد، فأثبتَ إجازته، وقلتُ له: بابي أنت؟ من أنت؟ قال: أنا زهيرُ بن نمير من أشجع الجن. قلتُ: وما الذي حداكَ إلى التصورِ لي؟ فقال: هوَ فيكِ، ورغبةُ في اصطفائِكِ. قلتُ: أهلاً بكَ أيها الوجه الواضح، صادفتَ قلباً إليكَ مقلوباً، وهوَ نحوكَ مجنوباً...<sup>(٢)</sup>. وتحادثنا حيناً، ... وأوثبَ الأدهم جدارَ الحائط ثم غابَ عنِي.

إلى آخر قصة لقاءه الخيالي.

إنما ذكرنا قصته تلك بشيءٍ من التفصيل لأنَّه لقاء التعرُفِ الأول، وهو بداية الطواف لخياله في عوالم غريبة سوف يأتي منها بالفهم المفيد والرأي السديد، ولعل نظرة متأملة في ذلك النص الطريف تشي لنا ببعضٍ من حذقةِ الأدبي وفهمه النقدي، فهو أولاً إنسانٌ كباقي البشر يحب ويكره، ويفخر ويرثي ويحزن، وهو أيضاً يصرح بصفة العجز التي هي من جبلة البشر، ثم ينشط بخياله ليرسم صورة فارسه الأثير الذي سينجده من لحظات العجز والإرباك الأدبي، ثم إنه هو الذي يجيز شيطانه بخلاف المعمود، وهذه حالة نحسب أنَّه خصَّ بها نفسه ليفهم خصومه ويُظهر تفوقه عليهم، ثم إنَّه جعل نسب شيطانه وفارسه إلىبني أشجع مناظرة لنسبة هو من أشجع الإنس، فهو وفارسه واحد، وإذا كان فارسه فارساً لأدهم جلمود قادر على الوثب والغياب في جدارِ الحائط، فهو فارس الكلمة النافذ في جذرِ الأدب والنقد، وصاحب الرأي السديد المفحم للخصوم والأنداد.

(١) المصدر نفسه ص/٨٨، ٨٩/.

(٢) المصدر نفسه ص/٩٠ - ٩١. وانظر الناحيةُ القسم الأول المجلد الأول من/٢١٢، ٢١١/. يقلَ وجهه: خرج شعره -

أشجع الجن: بنى أشجع من الجن، وابن شهيد من أشجع الإنس. قلباً مقلوباً: مصاباً أو محولاً. وانظر: المغرب في حلِّ المغرب لابن سعيد الأندلسي - تحقيق د. شوقي ضيف - دار المعارف بمصر.

## أهم القضايا النقدية التي تناولها ابن شهيد

لعل أهم تلك القضايا تدرج في مسألة (اللفظ، المعنى، الموهبة، الإبداع والتقليد، الخيال، والصورة الفنية عموماً)، ولعل في ترحالنا معه إلى عوالم التواي عبر مطية خياله المجنح ما يكشف لنا المزيد من إبداعاته وغوصه في لجج الأدب ومسارب النقد، فيها هو ذا يعطي صهوة خياله على جواد (زهير) ليتقمي تواي الشعراة مبتدئاً بفحول الشعر الجاهلي، فيلتقي أولًا (عتيبة بن نوفل) شيطان أمرئ القيس، ويصف لقاءه (بدارة جلجل) "فظهر لنا فارس على فرسٍ شقراء كأنها تلهب، فقال: حياكَ اللهُ يا زُهير، وحيَا صاحْبُكِ! أهذا فتاهم؟ قلتُ: هو هذا، وأيُّ جمرة يا عتبة!..."<sup>(١)</sup> إلى آخر الحوار الذي رکز فيه على قول زهير فيه (أي جمرة يا عتبة) وما توحى به من معانٍ الحس المرهف والذكاء الحاد، وربما نستشف العلاقة المعنوية الخفية بين وصفه لفرس عتبة (شقراء تلهب) و (جمرة). ثم ينشد ابن شهيد بطلب من عتبة فيقول:

شَجَّهَ مَغَانِيْ مِنْ سُلَيْمَىْ وَادْرُ

حتى انتهى إلى قوله :

تَزَلُّ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَحَدَّرُ	وَمِنْ قُبَّةِ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا
وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الْخَطَّ أَسْمَرُ	وَمِنْ تَحْتِ حِضْنِيْ أَيْضُّ دُوْ سَفَاسِقِ
مُقْيِلَانِيْ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا	هُمَا صَاحِبَايِيْ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يَافِعًا
وَذَا غَصْنَ فِي الْكَفِ يَجْنِيْ فَيُشِّرُ	فَذَا جَدَوْلَ فِي الْعِمَدِ تُسْقِيْ بِهِ الْمَنِيْ

فلما انتهيتُ تأملني عتبة ثم قال : اذهب فقد أجزتكَ. وغاب عنا<sup>(٢)</sup>.

بدأ ابن شهيد هنا التنافس أولًا مع رائد الفحول الجاهليين (امرئ القيس) وإن كان التحدي ظاهراً مع ملهمه (عتيبة)، وذلك محاولة لإثبات ذاته وقدرته على مقارعة فحول الأدب والنيل منهم بآرائه السديدة في شعرهم وملكتهم، فيها هو ذا يتناول قضايا اللفظ والمعنى ووظيفتها في السياق العام للبيت والتركيب، وخصوصاً في أبيات التي دلّ فيها على رفعة قدره (قبة لا يدركُ الطرفُ رأسها)، ثم أشار إلى فتوته حين جعل السيف والرمي صاحبين له منذ زمن اليفاعة، وكأنه في البيت الأخير يغمز من قتلة خصمه، ولهذا جعل من سيفه جدولًا يسقي الموت به لعدوه، وكذلك الرمح الذي نعنه بالغصن الذي يجني به أرواحهم، ولا نحسب

(١) ابن شهيد، رسالة التواي و الزوابع ، ص/٩٢/. وانظر الذخيرة ق ١ م ص /٢١٣ / .

(٢) ابن شهيد، المصدر نفسه ص/٩٢/. وانظر الذخيرة ق ١ م ص /٢١٣ - ٢١٤ ). سفاسق: طرانق، عَسَالَة: رمح يهتز.

ذاك السلاح القابع في ضمير ابن شهيد إلا كنایة عن موهبته النافذة وقدرته الفنية العالية التي فاق بها أقرانه وأنداده، وفي آخر المطاف يحمل (الكتني) على الاعتراف بتلك الصفات بقوله: أجزتك.

وهذه الكلمة (أجزتك) كانت وما تزال لها الواقع الفني على السمع والإقناع والإثبات في قواميس الأدباء والنقاد منذ الجاهلية، وهو يستخدمها في (رسالة التوابع والزوایع) مراراً، والمقصود بها (نفسه).

ويتابع ابن شهيد رحلته مع تابعه (زهير) فيلتقي شيطان طرفة (عنترة بن العجلان)، فيصف أولًا سحر المكان الذي جمعهما، فيظهر مقدرته على حسن الوصف بأوثق الحرف، ورسم الحال بالطف المقال، يقول:

فجز عنا (قطعنا) وادي عتبة، وركضنا حتى انتهينا إلى غيبة شجرها شجران: سام يفوح بهاراً، وشجر يعمق هندية وغاراً ... <sup>(١)</sup>

إنه الخيال الربح الذي يمده بأحسن الصور، كما تمده ثقافته الواسعة التي شملت معارف عدّة، فها هو ذا يتأثر الشعر مع (عنتر) طرفة، يقول شيطان طرفة:

لسعدي بحزان الشريف طلول

فأنشده ابن شهيد معارضًا له:

أمن رسم دار بالعقيق محيل

حتى انتهى بقوله:

على كل خوار العنان أسيل  
كراديس من عض الشواء نشيل  
إذا ما اقتضنا منه غير قليل  
أساطين قصر أو جذوع نخيل

وكما هبطنا الفيث تذعر وخشء  
وبادر أصحابي النزول فأقبلت  
لمسح بالخوذان منه أكفنا  
نشاور على الزهراء صرعى كأنهم

فصاح عنتر: الله أنت! اذهب فإنك مجاز <sup>(٢)</sup>.

(١) ابن شهيد (التابع والزوایع) ص/٩٣/. سام: خيزران - بهاراً: نبت طيب الرائحة - شجر: اسم شجر، هندى: شجر زكي الرائحة.

(٢) المصدر نفسه ص/٩٤ - ٩٥/. الخزان: الأمكنة التليظة - الشريف: جبل عال - خوار العنان: فرس لين العطف - نشيل: اللحم الذي تشله باليد من القدر. ووردت (لسعدى) في ديوان طرفة بن العبد (الهندي) بشرح الأعلم الشتمري، ص/٨١/.

يثبت ابن شهيد مرة أخرى إلماه بالمعاني الجاهلية وصورها، ولعل البيتين الآخرين يشابهان معانٍ بعض أبيات أمرئ القيس حين وصف تناول الشواء الذي أعده لصويخاته يوم (دارة جلجل) حين قال:

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارِي مَطِيَّتِي  
فَيَا عَجَباً مِنْ كُورَهَا الْمُتَحَمَّلِ  
فَظَلَلَ الْعَذَارِي يَرْغِيْنَ بِلَحْمَهَا  
وَشَحَمَ كَهَدَابَ الدَّمَقَسِ الْمُفْتَلِ<sup>(١)</sup>

بل نقول إنه تعمد ذلك على سبيل التحدي والسبق وهي تعنى واقعاً فنياً درج الأدباء والنقاد العرب على السير بهجه وتأتيه ولنمطه وأسلوبه، يقول ابن طباطبا في هذا الشأن متحدثاً عن حسية التشبيه لظاهر الطبيعة "واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتتشبيهات والحكم وما أحاطت به معرفتها، وأدركته عيالها، فشبّهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً"<sup>(٢)</sup>.

فها هوذا ابن شهيد يعارض امرأ القيس وأقرانه بمعانيهم ولفظتهم ونهجهم ليثبت تمكّنه من عمود شعرهم وبلغ شأوهم ليتنزع بحق إجازة شياطين شعرهم واعترافهم بفضله ووفرة دلوه وغزارته فنه.

ويتابع ابن شهيد جولته الخيالية، فينتقل إلى حمى الفحول العباسين، ويناظر شياطينهم ويعارض شعرهم وآراءهم في غير غرض وغير قضية، ويثبت ذاته وفنه من جديد، وينافح عن آرائه في الأدب والنقد، فيختار الحديث مع (عتاب بن حبّان) صاحب أبي تمام، وقد رسم لنا صورة فنية مكانية رائعة لهذا اللقاء، تعاضدت فيها بدائع الاستعارة والتتشبيه، وتآزرت من خلالها التراكيب والألفاظ لتشف عن أدق المانع وأبعادها، يقول: "... وركضنا (يقصد هو وزهير) حتى انتهينا إلى شجرة غينة يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء، فصاح زهير: يا عتاب بن حبّان، حلّ بك زهير وصاحب، فعمرو والقمر الطالع، وبالرقة المفكوكة الطابع إلا ما أرثتنا وجهك! فانطلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهوا صاعداً إلينا من قعرها حتى استوى معنا، ... فقلت: وما الذي أسكنك قفر هذه العين يا عتاب؟ قال: حياتي من التحسُّن باسم الشعر وأنا لا أحسي: فصحت: ويلي منه؛ كلام محدث ورب الكعبة!"<sup>(٣)</sup>.

(١) التبريزـي - شرح القصائد العشر، تتحـ: د. فخر الدين قبـاوة، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيـروت ص/ ٣٥ - ٣٩  
المـؤـدان: بـنت أـصـفـر - الزـهـراء: رـبـا أـرـادـ (ـ مدـيـنةـ الزـهـراءـ).

(٢) ابن طباطبا، عبارـالـشـعـرـ، ص/ ١٠ - ١١ - طبـعةـ ١٩٥٦ـ، تـحـقـيقـ طـهـ الـحـاجـيـ وـمـحـمـدـ زـغـلـوـلـ سـلـامـ، المـكـتبـةـ التجـارـيـةـ الـكـبـرىـ  
الـقـاهـرـةـ.

(٣) ابن شـهـيدـ، رسـالـةـ التـوابـعـ وـالـزواـيـاـ صـ/ ٩٨ـ.

وفي قوله (محدث) إشارة للشعراء العباسيين الذين عُرف عنهم تزيين الشعر والنشر معاً، ثم يستشهد في حجم ابن شهيد إجلالاً، فيلح عليه، فيتشد قائلاً:

إِنِّي أَمْرُؤٌ لَعِبُ الزَّمَانَ بِهَمَّتِي  
وَسُقِيتُ مِنْ كَأسِ الْخُطُوبِ دَهَاقَهَا  
وَكَبُوتُ طِرْفَاً فِي الْعُلَى فَاسْتَضْحَكَتْ  
حُمُرُ الْأَنَامِ فَمَا تَرِيمُ نَهَاقَهَا<sup>(١)</sup>

ولعلنا نلحظ في إنشاده صورة لمعاناته من الزمان الذي رماه بالرزايا، ومن أهل هذا الزمان من خاصمه وآذوه بفعالهم وسلقوه بلسانهم، وهو يكتي عنهم بقوله (حمر الأنام - نهاقها) تعريضاً بهم.

ثم ييرز قدرته في فن الحكمة ووصف الموت، فيقول:

فَإِنَّ الْمَدَامَعَ تَلُوُ الْجَوَادِ  
وَسَعَدَ الْمُنْتَيَةَ فِي كُلِّ وَادٍ  
لَقَدْ عَشَرَ الدَّهْرُ بِالسَّابِقِينَ  
إِذَا الْقَلْبُ أَخْرَقَهُ بَثَّةٌ  
يَوْدُ الْفَتَنَى مَنْهَلًا خَالِبًا<sup>(٢)</sup>

إن معاني ابن شهيد تشف عن نفسها، وتحكي بتها.

ويقول من قصيدة نسمع منها نبرة الشكوى والأنين، والتحدي والانتقام:

رَمَيْتَ بِهَا الْأَفَاقَ عَنِّي غَرِيبةً  
لِأَبْدِي إِلَى أَهْلِ الْحِجَّى مِنْ بَوَاطِينِي  
أَنَا السِيفُ لَمْ تَتَعَبْ بِهِ كَفُ ضَارِبٍ  
سَعَيْتُ بِأَحْرَارِ الرِّجَالِ فَخَاتِنِي  
تَسْتِيجَةً خَفَاقَ الصَّلُوعَ كَظِيمٍ  
وَأَدْلِي بِعِنْدِي فِي ظَواهِرِ لَوْمٍ  
صَرُومٌ إِذَا صَادَقْتُ كَفَ صَرُومٍ  
رِبَّالٌ وَلَمْ أَنْجَذْ بِمَجْدِ عَظِيمٍ<sup>(٣)</sup>

تكشف ألفاظ ابن شهيد ومعانيه عن نفسها وعن حزنه من غدر الزمان وأهله، فهو الذي جربهم وخبرهم، وذاق علقهم، فجرد لسانه ليس لهم به كما سلقوه، والبادئ أظلم، فتحرى لهم سنان اللفظ، وزعاف المعنى ليثبت قوته وعزماً، ولاظهر تحدياً، وقد كان لاين طابطاً مذهب في قضايا اللفظ والمعنى لعله

(١) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ٩٩، وانظر (الذخيرة) ف ١ م ٢١٧/. حمر الأنام: كنابة عن الخصومة. طرقاً: الفرس الكريم.

(٢) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ٩٩/، وانظر (الذخيرة) ف ١ م ٢١٧/. لوم: مخفف لوم.

(٣) ابن شهيد، رسالة التوابع والزوايا ص ١٠١/، وانظر (الذخيرة) ف ١ م ٢١٨ / ٢١٩ -. لوم: مخفف لوم.

متح من معينه، قال "... وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتتسبّب في غيرها، فهي لها كالعرض للجارية الحسنة التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض، ... واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركته عيانها، ومررت به تجاربها..."<sup>(١)</sup>.

وبلغ بنا ابن شهيد الغاية بما عرضه وعدده ليضمنا أمام قضية تقديرية تتناول الطبع والتکلف، وذلك على لسان (عتاب) صاحب طرفة، والذي أفصح عنه بقوله: "إن كنت ولا بد قاتلاً، فإذا دعوك نفسك إلى القول فلا تكدر قربحتك، فإذا أكملتَ فجمام ثلاثة لا أقلَّ، وتفحَّ بعد ذلك، وتذكّر قوله (سويد بن كراع العكلي) شاعر أمري:

وَجَشْمِنِي خَوْفُ ابْنِ عَفَانَ رَدَهَا  
فَتَقَفَّتْهَا حَوْلًا كَرِيَّا وَمَرِيَّا  
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ  
فَلَمْ أَرِ إِلَّا أَنْ أَطْبِعَ وَأَسْمَعَا"<sup>(٢)</sup>

فقال له: (وما أنت إلا مُحسِنٌ على إساءة زمانك. فقبلتُ على رأسه، وغاص في العين). فمثلما كان ابن شهيد حريصاً على نقل آرائه وأفكاره بروية وأمان، نراه حريصاً على إعادة (عتاب) شيطان طرفة إلى مسكنه في قفر العين، وهذا وليد طبع الوفاء الذي فطر عليه في حياته وفنه معه.

ويتجلى هذا التبارز الفني في ذرورته حين يدخل أبو عامر حلبة الإفحام مع رائد الفن المتبي، فيلقى شيطانه (حارثة بن المغلس) صاحبه، ويصف هذا اللقاء بقوله لزهير: "... ما تَبْعَكَ لِهَذِهِ الْأَثَارِ؟ قال: هي آثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب، وهو صاحب قنس، وبهذه قناعة قد أستدنا إلى عنقه، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخي لها عذبة صفراء، فحياه زهير، فأحسن الرد ناظراً من مقلة شواس، قد ملئت فيها وعجاً، فعرفه زهير قصدي، وألقى إليه رغبتي".<sup>(٣)</sup>

تلحظ في هذا النص أمرين أساسين: الأول إظهار حارثة بصورة الشیخ المھیب بعمامة حمراء، ولعله قصد (بالحمراء) خلق الجن، وأيضاً إظهار المتبي على أنه شیخ شعراء عصره، بل جميع شعراء العصور، والأمر الآخر ذاتي يتعلق بطبع المتبي؛ وهو التيه والعجب بالنفس، وهذا الوصف بكامله يوظفه ابن شهيد بالنتيجة لخدمة موقفه وهدفه في صراعه مع أنداده، وكالعادة يستند به صاحبه فينشده من بدايهه قائلاً:

(١) ابن طباطبا، عيار الشعر ص ٨/١٠٠. لوم: عنف لوم، ردَهَا: أي رد المجهأ - كريتا: عاماً كاماً. الأسباب، جبال الثلاقي.

(٢) ابن شهيد، رسالة التوايّع والزوايّع ص ١٠١/١.

(٣) ابن شهيد، المصدر السابق ص ١١٢/. وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٢٩/٢٢٩. عذبة - طرف خلف العمامة. شواس: النظر بعذر العين تكبراً أو تغيظاً.

ونَفْسَ أَبْتَلَتِي مِنْ طُلَابِ الرِّذَايْلِ  
إِذَا تَلَقَّا نِي بِنَخْسِ الْمَقَاتِلِ  
وَأَغْرَقَ قَرْنَ الشَّمْسِ بَعْضُ جَدَالِي  
مِنْ الْمَدْحِ لَمْ تَخْمُلْ بِرَعْيِ الْخَمَائِلِ  
وَإِنْ سَاءَ حَسَادِي مَدِي كُلُّ قَاتِلٍ<sup>(١)</sup>

وَمَا هِي إِلَّا هَمَةُ أَشْجَعَةٍ  
وَهُمْ لَوِ الْبَرْجِيسِ جِئْتُ بِجَهَدِهِ  
وَلَا طَمَا بَحْرُ الْبَيَانِ يَفْكُرْتِي  
رَحَلْتُ إِلَى خَيْرِ الْوَرَى كُلُّ حُرَّةٍ  
وَكِيدْتُ لِقَاعِلِ الْقَوْلِ أَبْلَغْتُ سَاكِنَةً

يتناول ابن شهيد هنا أكثر من قضية؛ إذ نراه يبدأ بالاعتراض بنسبه (همة أشجعية)، وخصص (الهمة) هنا لأنها تقابل مع (الهمة) الكندية لأبي الطيب، ثم يظهر تزدهر عن الرذائل، وثقافته الكونية (البرجيس) وهو كوكب المشتري الذي يوحى بالسد، وذلك ليتفوقه علواً وسمواً، وكذلك (المقاتل) المريخ الذي يوحى بالحلدة وال الحرب، ثم يتحفنا ابن شهيد ببلاغته فتطالعنا استعاراته (بحر البيان) (رعى الخمائيل) (قرن الشمس)، يحشد فيها مقاصده وتلميحاته فتزدحم الصورة بالعبارات القرية الملوحية، حتى يصل إلى هدفه الأساس بالليل من حساده صراحة، فيصرح لهم بتحديه لأدبهم وتقديهم، فهو البلبل وإن بدا ساكتاً، وهذا يؤلمهم ويُضاهِمُهم، حتى كأننا بهذه المعاني والنظارات والأراء نرى أنه أراد أن يعارض المتبنّي ويتفوق عليه.

وفوق ذلك يزيد ابن شهيد من مدى تفوقه وظهوره على الأقران، فيصور إجازة صاحبه له بأبلغ صورة وأعمق معنى، يقول: "فَلَمَّا انتهَيْتُ، قَالَ لِزَهِيرٍ: إِنْ امْتَدَّ بِهِ طَلْقُ الْعُمَرِ، فَلَا بُدُّ أَنْ يَنْفَثَ بِدُرُّرِ، وَمَا أَرَاهُ إِلَّا سُحْتَرْ، بَيْنَ قَرْبَةِ كَالْجَنْفِرِ، وَهَمَةٌ تَضُعُّ أَخْمَصَهُ عَلَى مَفْرَقِ الْبَدْرِ. فَقَلَتْ: هَلَا وَضَعْتَهُ عَلَى صَلَعَةِ النَّسْرِ! فَاسْتَضْحَلَكَ إِلَيَّ وَقَالَ: اذْهَبْ فَقَدْ أَجْزَتُكَ بِهَذِهِ النُّكْتَةِ. فَقَبَلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَانْصَرَفَنَا<sup>(٢)</sup>".

ولا غرو، هنا، أن نرى هذا الاستحسان، بل الإعجاب المتداول بين كلا الشاعرين على هذه الصورة الفنية الفخمة، فلو تبعنا معاني ابن شهيد وألفاظه لرأيناها بمعظمها مستعارة من الطبيعة الساكنة والمحركة (البرجيس) - قرن الشمس - مفرق البدر - صلعة النسر... الخ، وكلها مصطلحات استخدمها ابن شهيد ليبرز تفوقه وليثبت حسن أدبه وبلالته على شاعر خلد اسمه الزمان ورسم صورته على مر الأجيال، صورة هي الغاية في الفخر، وعلو الهمة، وتحدي الظروف والأقران والحساد، وهذا جل ما يريده ابن شهيد لنفسه والإثبات قضيته في مجتمعه، وأمام حساده وأنداده.

(١) ابن شهيد، رسالة التوقيع والزوابع، ص/١١٤/١، وانظر (بتيبة الدهر) ج/٢/٣٦. البرجيس: المشتري - المقاتل: المريخ،

رعى الخمائيل: التكبب بالمدح.

(٢) ابن شهيد، المصدر نفسه، ص/١١٤/١.

## رحلته مع شياطين الكتاب

ويتهي ابن شهيد من رحلته مع شياطين الشعراء، ليبدأ رحلته مع شياطين الكتاب العظام الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي، فيختار إمام بيانهم (الجاحظ) ليدلوا بدلوه أمامه، فيلتقي شيطانه (عتبة بن أرقم)، فيقول في تصوير هذا اللقاء "... فصاح زهير: السلام على فرسان الكلام، فردو وأشاروا بالنزول، ... والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع، جاحد العين اليمني، ... فقلت سرًا لزهير: من ذلك؟ قال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ...<sup>(١)</sup>".

يتمثل ابن شهيد هنا أسلوب الجاحظ نفسه في الوصف ليبرأ فحولته في التربيل وبيان إمام الناثرين لينبال منه إجازته واعتراضه بأدبه وطول باعه بأساليب اللغة، وهذا ما حصل فعلًا، فها هو يذكر قول عتبة "... فاستدناني وأخذني في الكلام معى، فصمت أهل المجلس، فقال: إنك لخطيب، وحاتك للكلام مجيد، لو لا أنك مغرى بالسجع، فكلامك نظم لا ثر".<sup>(٢)</sup>

يقر عتبة بفحولة أبي عامر في الخطابة ويجادله حوك الكلام ويميل للسجع، فهو إذن يمتلك ناصية الكلام وأدواته، محسن في نظمه للحرف، فحتى شره ينظمه نظماً متقدماً، وهذا اعتراف من ناقد كبير كالجاحظ بفضل ابن شهيد في صوغ الكلام، وحسن سبكه لأسماع الأنام، وببقى الرأي من صنع ابن شهيد يلقيه بلسان الجاحظ كما ألقى آراءه على لسان فحول النظم، ثم ترى ابن شهيد ينفتح من همه فثة حرّى، ويبح من جواحه زفة ألم يشكو فيها أهل زمانه وأنداده الذين ناصبوه العداء، فجعلهم بلغته الناقدة اللاذعة دونه في فضل الكلام، يقول: "... ولكنني عدت ببلدي فرسان الكلام، وذهبت بغياؤه أهل الزمان، وبالحرّا أن أحركهم بالازدواج، ولو فرشت للكلام فيهم طوقاً، وتحركت لهم حركة مشولم، لكان أرفع لي عندهم، وأولج في نفوسهم".<sup>(٣)</sup>

إنه يسلّهم بلسانه وبلهجة ناقدة موجعة لكرامتهم؛ فقد عدموا موهبة الكلام، وتوسّحوا بالغباء، ثم يبدي أمامهم براعته في ذكر غرائب اللغة تحدياً لهم، وإظهاراً لثقافته الواسعة، فنراه يذكر (بالحرّا، طوقاً، مشولم)... وهذا كله أيام من؟ أيام فارس التربيل (الجاحظ). ونجده له العديد من هذه الوقفات والنظارات الناقدة تجاه أهل زمانه، الذين يرى فيهم العقل خواء، والقلب هواء، فلا للسانهم قوام ولا لكلامهم نظام، فلغتهم كما وصفها "إنما هي لكتة أعمجية يؤدون بها المعاني تأدية المحبوس والنبط".<sup>(٤)</sup>

(١) ابن شهيد، رسالة التوایع والزوایع ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ١١٦ / .

(٣) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ١١٦ / . وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٢٩ / ٢٢٩ . بالحرّا: بالخليق، طوقاً: نبات - مشولم: فتیان.

(٤) ابن شهيد، رسالة التوایع والزوایع، ص ١١٧ / . وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٢٩ / .

وله في موضع آخر في (التواي و الزوابع) وقفه نقدية بارعة انطوت على صفات اتسم بها أدبه وطبعه وقده ، وفي الوقت نفسه اشتملت على شعر حاد عرض فيه بمحساده ومن يترصد به دائمًا ، يقول على لسان صاحبين له سمعا (رسالته في الحلوا ) ، حين قال منها "... وقالا : إنَّ لِسَجْعُكَ مَوْضِعًا مِنَ الْقَلْبِ ، وَمَكَانًا مِنَ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَعْرَتَهُ مِنْ طَبِيعَكَ ، وَحَلَاوَةِ لَفْظِكَ ، وَمَلَاحَةِ سُوقَكَ ، مَا أَزَالَ أَفْتَهُ ، وَرَفَعَ غَيْتَهُ ، وَقَدْ بَلَغَنَا أَنْكَ لَا تُجَازِي فِي أَبْنَاءِ جِنْسِكَ ، وَلَا يُمْلِئُ مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْكَ ، وَالاعتراض لك" (١) .

ينظر ابن شهيد هنا لمعظم قضايا النقد التي أحرز في جموعها قصب السبق بين أقرانه ، فقد أوتي حسن الطبع ، وحلاؤه اللفظ والتركيب ، وسلامة الأسلوب التي تجعل كلامه يهز الوجدان ، ويستقر في القلوب ، ورغم ذلك لا يجد جزاء إحسانه بين بني جنسه ، بل إنه لا ينفك يطعن عليه ، وليس هذا الشيء إلا لأنه تفوق عليهم بأدبه وفنه واستقامة نهجه ، ولعلنا نكون من الصائبين بالحكم حين نقول : إن حكمه هذا هو الغاية القصوى التي طمح إليها ابن شهيد ليتقم من معارضيه ويحکم الطوق على ادعائهم الأدب والفن ، وبذلك يکبلهم بأغلال نقه المحكمة الإلگاق ، فيشل قدرتهم ويفعدهم.

ونحن نلحظ من النص الشري السابق محاولة جديدة من محاولات يروم منها وضع الأسس والقواعد والنظم التي ينبغي على الكاتب والأديب والناقد خصوصاً أن يلم بها حتى يكون قوله في موضع الاستحسان مكيناً ، وأن يكون له رأيه الصائب الرصين ، فلا انتزاع عن قرار ، ولا نبوء عن ذوق ولا تكرار ، يقول المرزوقي في قضايا المعنى واللفظ "عيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء ، ... خرج وافياً ، وإلا انقص بقدر شوبه ووحشيه ، وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجهه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم ... وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز ، ... وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير" (٢) .

وهذا كله مما تناوله ابن شهيد فأحسن أخذه ، وسما فوق لجه ، وألم بحبابه ، ثم غاص في أعماقه فاتى بالدر الفريد ، وأحاط بالمعنى المقيد ، وادرج اللفظ العتيد ، فانتزع بذلك اعتراف أقرانه وأفحى عقول حساده ، وأرتজَ السنة أنداده ، وحير عقول رصاده ، فانظر قوله في أحد مجالس نقاد الجن يتكلّم على لسان شيخ يعلم بنى الله صناعة الشعر "إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبة ، وأرق حاشيتها

(١) ابن شهيد ، المصدر نفسه ، ص / ١٢٢ / . وانظر (النخيرة) ق ١ م / ٢٣٢ / .

(٢) المرزوقي ، أحمد بن محمد . شرح ديوان الحماسة ص / ٩ / . تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة / ١٩٥١ .

فاضرب عنك جملة، وإن لم يكن بـدّ ففي غير العروض التي تقدّم إليها ذلك المحسّن، لتشتّط طبعتك، وتقوى متنك<sup>(١)</sup>).

يطرح ابن شهيد هنا رأياً نقدياً متشعباً يضمّنه الأصول والقواعد التي ينبغي الاعتماد عليها كل من يتناول معانٍ قد سبق إليها، وهي حسن الترکيب ورقته، هذا من الجانب الفني، ومن الجانب الذاتي ينشط الطبع ويقوى الموهبة، فالأخير في الأمر عنده عدم طرق المعاني المطروفة، وإن حصل فبإحسان بين، وبطبيع مؤثر، وبموهبة مبدعة.

ويختم ابن شهيد رسالته الناقدة الساخرة بجملة بأرض الجن، ويجعل من حديثه معهم شعباً وأفانين، فهو يقيم حواراً خيالياً مفترضاً مع (أوزة) ذات حظ في الأدب، ولما سأله عنها تابعه زهير قال: "هي تابعة شيخ من مشيختكم، تسمى العاقلة، وتُكتنِي أمَّ خفيف، وهي ذات حظٍ من الأدب، فاستعد لها"<sup>(٢)</sup>.

وكان قد دار حوار طويل بينها وبينه تضمن الكثير من الجدل والبراهين العقلية المسندة إلى كتاب الله، كما تضمن فيها بنفسه وعجباً بعقله حتى قالت له وقد تكلّمها منه الغيط والاستنكار: "كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ ما الذي تُحسن؟ قلت: ارجمال شعر، واقتضاب خطبة، على حكم المفترح والنسبة، قالت ليس عن هذا أسألك، قلت: ولا بغير هذا أجاوبك، قالت: حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردت بذلك إحسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام، ومادة البيان"<sup>(٣)</sup>.

وما نظن ابن شهيد هنا إلا مخاطباً ومناظراً لأنصاره ومحاديه، والإوزة إنما هي رمز أو مطية يتولّ بها إلى إفحام خصومه الأدباء، والنص بкамله إن هو إلا سفر من أسفار علم الكلام والجدل، له أداته ومنطقه، وله براهينه وحججه، وهنا دليل آخر على سُهرة ابن شهيد في هذا الميدان أيضاً أراد أن يثبت فيه نفسه وعلمه مرة أخرى، ويُظهر تفوقه على من يتلقّون عليه الحجة والدليل، ففيه قسط من مدرسة علم الكلام بيراهينه، وتعاليمه لمن أراد تعلم هذا العلم وإتقانه.

ويتابع ابن شهيد نقه للخصوص والمحساد، يسلّقهم بلسان حاد، مستخدماً (الإوزة) رمزاً لمعانٍه وترابكيه التي تُرعنها سخرية وإذاعاً، فيكتي بغيانها عن غبائهم، وبحركاتها المضحكة وسخافاتها عن حماولاتهم وحرّكاتهم النيل منه ومن أدبه وفنه وعقله، وقد كثي عن تلك الإوزة بقوله (أمَّ خفيف)، ولعل في اختياره

(١) ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع ص ١٣٥ / .، وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٤٤ / . متنك: بالضم: الضعف والقوة (أصداد).

(٢) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ١٥٠ / .، وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٥٤ / .

(٣) ابن شهيد، المصدر نفسه ص ١٥١ / .، وانظر (الذخيرة) ق ١ م ٢٥٥ / . النسبة: علامه الطريق.

لهذه (التسمية) إشارة إلى طيش أنداده وخفتهم وخلوهم من الحكمة، يقول: "ثم تكلمتُ بها مُبِيِّساً، ولها مؤنساً، حتى خالطتنا وقد عقدنا سلْمَها وكُفِينا حَرَبَها، فقلتُ: يا أمَّ خفيف، بالذِّي جعلَ غَذاءَكَ ماءً، وحشاً رأسكَ هواءً، ألا أَيْمَا أَفْضَلُ: الأَدْبُ أَمُ الْعُقْلُ؟ قالتُ: بِلِ الْعُقْلِ؛ قلتُ: فَهَلْ تعرِفُنِي في الْخَلَاقِ أَحْمَقَ مِنْ إِوْزَةً، وَدِعَيْنِي مِنْ مَلَئِهِمُ الْجَبَارِيَّ؟ قالتُ: لَا، قلتُ: فَنَظَلْتِي عَقْلَ التَّجْرِيَّةِ، إِذَا لَا سَبِيلَ لِكَ إِلَى عَقْلِ الطَّبِيعَةِ، فَإِذَا أَحْرَزْتِ مِنْهُ نَصِيبَكَ، وَبُوتَتِ مِنْهُ بَحْظَكَ، فَجِئْنِي نَاظِرِي فِي الْأَدْبِ، فَانْصَرَفْتُ وَانْصَرَفْنَا...")<sup>(١)</sup>.

إن هذا النص يتحدث عن نفسه بلا زيف ولا مواربة، تعرِض بارع، ونقد لاذع لمن وقفوا له مبارزين، جعلهم حمقى، ورغم ذلك يحاورهم عبر سؤال الإوزة عن الأدب والعقل بعد أن أفرغهم منها، وكذلك شبههم بالجباري؛ لأنَّ الطائر الذي يضرب به المثل أيضاً بالحمق والغباء، ثم ينصحهم بتحري التجربة والعقل، فإذا أحرزوهما يكونون أهلاً لمبارزته ومناظرته، وإلا فهم ليسوا أهلاً لمواجهته، ثم ينصرف وينصرفون، وبذكره (ينصرف) ما يوحى بعدم الافتراض بهم، وإهمال شأنهم.

ولعلنا في آخر المطاف نستطيع القول: إن ابنَ شَهِيدَ القرطبي كانَ عُصَارَةَ عَهْدِ وَتَجْرِيَةِ وَفَنِ وَثَقَافَةِ، أَنْتَجَتْ مِنْهُ بَعْدِ مَعانَاهُ وَجُورِ أَدِيبًا أَرِبَّاً وَنَاقِدًا لِبِيَا، وَرَجُلًا ذَا ذَكَاءَ حَادًّا وَمُوهَبَةَ فَذَّةَ وَخِيَالَ حَمَلَّ خَلَاقَ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَسَافِرْ بِهِ بَعِيدًا لِيَجُولَ فِي عَوَالَمَ هِيَ فِي الْأَصْلِ غَيْبِيَّةٌ تَسْمَعُ عَنْهَا وَلَا نَرَاهَا، لَكِنَّهُ بَفْطَنَتْهُ وَفَنَّهُ جَعَلَ تَلْكَ الْعَوَالَمَ تَبَدُّو وَكَانَهَا مَائِلَةً أَمَانَةً، وَكَانَهَا حَقِيقَةً، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَوْظِفَ ذَلِكَ الْخِيَالَ أَبْدَعَ تَوْظِيفَ، لِيَبْرُزَ لَنَا شَخْصِيَّةً، وَيَحْقِقَ ذَاهِنَهُ عَنْهُ، ثُمَّ لِيَبْيَنَ لِلْجَمِيعِ (الصَّدِيقِ وَالنَّدِ وَالْحَاسِدِ) فَنَّهُ الْمَيْزُ وَتَقَافَتِهِ الْعَمِيقَةُ، وَمَعْرِفَتِهِ الْوَاسِعَةُ لِعَصْرِهِ، وَبِهَا جَعَلَ مِنْ رَحْلَتِهِ فِي عَوَالَمَ (التَّوَابِعُ وَالْزَّوَابِعُ) وَسِيَّلَةً لِنَقْدِ حَسَادِهِ وَالنَّيلِ مِنْهُمْ كَمَا يَمْحَا لَوْنَ النَّيلِ مِنْهُ.

وَقَدْ أَفْلَحَ فِي ذَلِكَ أَيْمَا فَلَاحَ، فَلَمْ يَتَرَكْ مَثَلَّةً إِلَّا وَوَصَّمَهُمْ بِهَا، وَلَمْ يَتَرَكْ شَعْرًا أَوْ ثَرَأً إِلَّا وَدَفَعَهُمْ بِهِ، حَتَّى جَرَدَهُمْ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ، وَبِذَلِكَ وَفَقَ فِي إِثْبَاتِ نَظَرِيَّةِ التَّحْدِيِّ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا، وَلَعِلَّهُ أَرْضَى نَفْسَهُ، وَشَفَى غَلَّتِهِ مِنْ كَانُوا سَبِيْلًا فِي إِنْشَائِهِ تَلْكَ الرِّسَالَةِ (حَسَادَهُ وَأَنْدَادَهُ) وَعَدَّةَ ذَنَبَّهُ.

وبهذا يبرز ابن شهيد أديباً ونقداً فذاً، أحرز المدى في تناوله قضايا أدبية وبلاغية ونقدية عديدة، وجاورَ مَنْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحياناً، فهو بذلك يُعدُّ رُكناً مِنْ أَرْكَانِ الشِّعْرِ وَالشِّرْ وَالنَّقْدِ الْأَدِيبِيِّ فِي الْأَنْدَلسِ؛ فِي عَهْدِ الزَّهْوِ وَالْأَزْدَهَارِ؛ عَهْدِ قِرْطَبَةِ الْمُتَّالِفَةِ الشَّامِخَةِ شَمُوخَ أَدِيَّبَاهَا وَنَقَادَاهَا.

(١) ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع، ص/١٥٢، وانظر (الذخيرة) ق ١ م/ ٢٥٦ - ٢٥٧. مُبِيِّساً: داعياً: بَسَّ.

### المصادر والمراجع

- ١ - ابن بسام، الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، القسم الأول - المجلد الأول، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
- ٢ - التبريزي، الخطيب - شرح القصائد العشر، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان.
- ٣ - ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك. رسالة التوابع والزوايا، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان.
- ٤ - ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري و محمد زغلول سلام، طبعة ١٩٥٦ م، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
- ٥ - ابن العبد، طرفة. شرح الأعلم الشتمري، تحقيق: درية الخطيب - لطفي الصقال ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
- ٦ - المرزوقي، أحمد بن محمد. شرح ديوان الحماسة، الطبعة الأولى ١٩٥١ ، تحقيق: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- ٧ - امرؤ القيس، شرح الديوان، حسن السنديبي، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.



# أصول النقد النحوي عند ابن سيد في ضوء كتابه (اصلاح الخلل)

د. وليد السراقي\*

كتاب (الجمل)<sup>(١)</sup> لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ)<sup>(٢)</sup> مختصر<sup>(٣)</sup> نحوي تعليمي "أنجد وأغار وطارت شهرته في الآفاق كل مطار"<sup>(٤)</sup>، فقد كثرت فيه العبارات الدالة على الإلقاء والتعليم، نحو: "فافهم تصبُّ" ، و"اعلم..." ، و"فقسْ عليه تصبْ إن شاء الله" و"على هذا فقسْ تصبْ" وما أشبهها<sup>(٥)</sup>.

\* مدرس النحو والصرف في كلية الآداب الثانية بجامعة البعث، حماة.

<sup>(١)</sup> طبع الكتاب لأول مرة في الجزائر سنة ١٩٢٦ بتحقيق ابن أبي شنب، ثم أعيد طبعه في باريس سنة ١٩٥٧. وأعاد الدكتور علي توفيق الحمد تحقيقه على نسخ خطية كبيرة، وصدر عن مؤسسة الرسالة ودار الأهل سنة ١٩٨٢م، وقد صدرت طبعة الأولى في إيران سنة ١٤١٠هـ.

<sup>(٢)</sup> ترجمته في طبقات النحوين واللغويين: ١١٩، وال فهيست: ١١٨، ونهرست ابن خير: ٣٠٨، ٣١٩، ١٤، وتأريخ العلماء والنحوين: ٣٦، ٣٧، ٣٤١، ٣٤٤، ٤٩٤، ٣٤٥، ٢٤٤، والكامل: ٨، ٤٩١، ونهاية الرواية: ٢٠، ١٦٠، ووفيات الأعيان: ٣: ١٣٦،

، والعبر: ٢٥٤، والنجوم الزاهرة: ٣: ٣٠٧، وبنية الوعاء: ٢: ٧٧ ترجمة رقم ١٤٧٩، وشذرات الذهب: ٢: ٣٥٧.

<sup>(٣)</sup> الجمل: ٣٢٥، ٤٠٩، وتاريخ العلماء النحوين: ٣٦ و ٣٧.

<sup>(٤)</sup> إصلاح الخلل: ٢.

<sup>(٥)</sup> انظر في ذلك: ص ٨، ١٢، ١٣، ١٦، ٢٢، ٢٦، ٣٥، ٤٠، ٥٦، ٤٠، ٣٥، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٩٨، ٣٠١، ٣١٥، ٣٠٨، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٦٠.

وقد وقع الكتاب موقعاً عظيماً من نفوس المشتغلين بعلم النحو، فاشتعل به الناس، وعدّ كتاب العالم الإسلامي، وغداً كتاب المصريين وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام<sup>(١)</sup>، بل إن المغاربة جعلوه نظير كتاب سيبويه عند المغاربة، فتصدّوا لشرحه<sup>(٢)</sup>، وشرح أبياته، أو نقاده. وقد بلغت جملة شروحه مئة وعشرين شرحاً في مغرب الدولة الإسلامية وحده<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من المكانة التي تستنّها هذا الكتاب على مدى عقود من الزمن، وانشغال الناس بشرحه حتى بلغت شروحه ميلغاً عظيماً كان موضع نقد في أكثر الأصقاع احتفاءً به، وأعني بها بلاد الأندلس، فوضع أبو عبد الله محمد بن السيد الباطليسي<sup>(٤)</sup> كتابين، الأول في نقاده وإصلاح الخلل الواقع فيه<sup>(٥)</sup>، والثاني في تفسير أبياته التي استشهد بها<sup>(٦)</sup>. وستكون لنا وقفة عند الأول منها، نحاول فيها أن نستجلّي نقدات ابن السيد للكتاب وما خذه عليه من جهة، وننظر للأصول التي أقام عليها هذه النقدات من جهة ثانية. وهي نقدات لا أعتقد أنها صادرة عن موقف شخصي أو ميل فردي، ولكنها نقدات صادرة عن قواعد عامة قيد بها ابن السيد نفسه على غرار غيره من النحاة<sup>(٧)</sup>. ولهذا نجد ابن السيد يبتدئ كتابه (إصلاح الخلل) بالاعتراف بمكانة الكتاب وإعلاه شأنه، وبيان أهميته إذ كان مفتاح النظر في هذه الصناعة، "إفنا بكتابه افتحنا النظر في هذا العلم، وهو الذي رشح بصائرنا لما منحناه من الفهم"<sup>(٨)</sup> وهو "لعمري كتاب قد أخذ وأغار، وطار في الآفاق كل مطار، وواضعه -رحمه الله- قد نزع فيه المتنع الجميل، فإنه حذف الفضول، واختصر الطويل... وليس اختلال بعض عباراته مما يخلُّ به في العلم ومكانته، فقد قال الحكماء: من أَلْفَ فقد استهدف، فإن أَحْسَنَ فقد استعطف، وإن أَسَأَ فقد استقذف"<sup>(٩)</sup>.

<sup>(١)</sup> إنباه الرواة: ٢٦١.

<sup>(٢)</sup> نشأة النحو: ١٧٤.

<sup>(٣)</sup> مرآة الجنان: ٢: ٣٣٢.

<sup>(٤)</sup> ترجمته في: نفح الطيب: ١٨٥، ووفيات الأعيان: ٢: ٢٨٣، وإنباه الرواية: ٢: ١٤٣، وبغية الوعاة: ٥٦، ومقدمة تحقيق الخلل: ١٥، ومقدمة تحقيق لكتاب (رسائل في اللغة)، لابن السيد، ص ١٣ وما بعدها.

<sup>(٥)</sup> صدر الكتاب بعنوان: (إصلاح الخلل الواقع في الجمل)، وحققه د. حمزة عبد الله النشرتي، دار المربخ، الرياض ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م. وصدر أيضاً بتحقيق د. سعود عبد الكريم، العراق، ١٩٧٢م.

<sup>(٦)</sup> صدر بعنوان (الخلل في أبيات الجمل) بتحقيق الدكتور مصطفى إمام، القاهرة، ١٩٧٩م.

<sup>(٧)</sup> الأصول: ٢٢١.

<sup>(٨)</sup> إصلاح الخلل: ٢.

<sup>(٩)</sup> إصلاح الخلل: ٢.

يببدأ ابن السيد نقله بتحديد الباب الذي سيتناوله، ثم يورد قول الزجاجي تحت عنوان (مسألة)، ثم يأخذ في نقله مبتدئاً بقوله: ”قال المنسُر“، ومن ذلك قوله في باب (أقسام الكلام): ”مسألة: قال أبو القاسم الزجاجي - رحمة الله - : أقسام الكلام ثلاثة: اسم، و فعل، و حرف، جاء لمعنى. فالاسم: ما جاز أن يكون فاعلاً أو مفعولاً، أو دخل عليه حرف من حروف الخفض“<sup>(١)</sup>.

قال المفسّر: ”أما تقسيمه الكلام ثلاثة أقسام فصحيح لا اعتراض فيه لمفترض“<sup>(٢)</sup>. وأما تحديد الاسم بأنه ما جاز أن يكون فاعلاً، أو مفعولاً، أو دخل عليه حرف من حروف الخفض، فإنه لا يصح على الإطلاق...“<sup>(٣)</sup> وربما تنكب التقديم لما ينقده بكلمة (مسألة)، فبدأ مبشرة بتحديد الباب وذكر نص ”الزجاجي، فمناقشة المسألة ونقدتها لها، والأمثلة على ذلك كثيرة“<sup>(٤)</sup>. فابن السيد يبدأ بذكر المسألة مجملة، ثم يأخذ في تفصيلها.

وقد استظرف على آرائه ونقداته بعدد كبير من الشواهد القرآنية، والحديثية، فالشعرية. فقد بلغ عدد الآيات القرآنية أربعاً وتسعين آية، وعدد الأحاديث النبوية الشريفة سبعة أحاديث، أما الشواهد من الرجز بلغ عددها مترين وثمانية وسبعين شاهداً، إلى جانب ثلاثين نصف بيت اقتصر فيها على ذكر موضع الشاهد منها.

ذاك كان الإطار العام لبناء الكتاب، وستكون لنا وقفة مفصلة - إن شاء الله - عند معالمة منهج ابن السيد في نقله، وهي كثيرة، ولكنني سأكتفي في هذه الصفحات بمناقشة الأصلين الأولين الحد من جهة، والاضطراب المصطلحي من جهة أخرى، خشية الإطالة والتزاماً بمنهج المجلة، على أن أعود إلى القضايا الأخرى بشيء من التفصيل في بحث مستقل.

**١- الحدود: الحد Limit** يعنى التعريف Definition في أنه تحديد للفظة المفردة بسيطة كانت أم مفردة، مستقلة أم ضمن سياق، إلا أنَّ الحد خصُّ في الدراسات الفلسفية والمنطقية بالتعريف الأرسطي<sup>(٥)</sup>.

<sup>(١)</sup> الجمل: ١.

<sup>(٢)</sup> أقول: بل عليها اعتراض؛ فهذه القسمة غير صحيحة، فثمة قسم رابع تردد النهاة فيه بين الفعلية والاسمية، وهو ماسأله أحمد بن أبي صابر النحوي الأندلسي باسم المؤلف، وهي تعابير مسكونة جامدة تؤدي وظيفة إفصاحية، وهي أشبه بالأمثال التي جاءت على نسق معين، ومن ذلك: خوالف المدح، والذم، والتعجب، وأسماء الأفعال، وأسماء الأصوات؛ وكلها ذات دور مهم في إيجاد أسلوب إنشائي خاص، وإفاده المبالغة في الصفة أو الشيء.

<sup>(٣)</sup> إصلاح الخلل: ٥. وانتظر أمثلة أخرى على ذلك في: ٣٥، ٦٧، ٢٦٦، ٢٧١، ...

<sup>(٤)</sup> انظر إصلاح الخلل ص ٩٦، ١١٦، ١٢٨، ١٧٧، ١٨٢، ...

<sup>(٥)</sup> الجليلي، حلم: تقنيات التعريف، اتحاد الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٢ و ٤٣.

يعرف الحدّ بأنه قول دالٌ على ماهية الشيء، أي كمال وجوده الذاتي<sup>(١)</sup>. فالغاية منه الإحاطة بمحور المحدود بجميع أجزائه حقيقة، فلا يخرج منه ما هو فيه ولا يدخل فيه ما ليس منه من دون احتمال زيادة أو نقصان، لأن أيَّة زيادة في المحدود تنقضي إلى نقص المحدود، وكل نقص في الحد تفضي إلى زيادة المحدود<sup>(٢)</sup>.

ويشترط في الحد ما يأتي<sup>(٣)</sup>: الاطراد، والخلو من الجاز، ومن المشترك النظفي، والانعكاس.

وللحد مزالق وأغاليل<sup>(٤)</sup>، منها ما هو معنوي، ومنها ما هو لفظي. أما المعنوي فتحوتعريف الشيء بنفسه أو بمساويه في المعرفة أو الجهة، كان يقول: الماء هو الماء. وتحوتعريف الشيء بما لا يعرف إلا به، أي بأمر تتوقف معرفته وفهمه على معرفة المعرف في البداية، كقولنا: الشمس كوكب يرى في النهار. وأما النظفي، فتحوا استعمال ألفاظ غير مألوفة في الحد، كقولهم: النار أسطقس الأسطقسات<sup>(٥)</sup>. وتحواستعمال ألفاظ مجازية في الحد تكون أكثر عسرًا من المعرف، نحو قولنا: الأسد ملك الغابة، والجمل سفينة الصحراء. وتحواستعمال ألفاظ مشتركة لفظاً لا معنى، نحو: المولى: السيد والمسود، والعين: البصر والجاسوس.

وقد عكس كتاب (الجمل) اضطراب الزجاجي في مسألة الحد، فقد خلط بين الحد والرسم مثلاً فقال في حد الاسم: "ما جاز أن يكون فاعلاً أو مفعولاً، أو دخل عليه حرف من حروف المخصوص"<sup>(٦)</sup>، وهذا رسم للاسم لا حد له؛ ذلك أنه لا يستترن المحدود من جهة، وليس جامعاً ولا مانعاً من جهة أخرى؛ فنمة أسماء لا يمكن أن تكون فاعلاً أو مفعولاً ولا تقبل الدخول في علاقة الإضافة بمحروف الجر، فمن ذلك الأسماء المختصة بالنداء، نحو: يا هناه، ويا فل، وهما أسمان لا يكونان إلا في النداء. ومنها أسماء الاستفهام، وأسماء الشرط وبعض الألفاظ المخصوصة، نحو: جير، وعوض، ولعمرك، وأين الله.

ثم إنَّ حدَه الاسم بما قاله هو حد له بوظيفته داخل التركيب لا ببيان ماهيته. ولعلَّ أحسن ما يقال في حد الاسم: إنه مجموعة أصوات دالة على مسمى به دلالة وضع، وأنه دليل لنوى وضع إزاء المسمى<sup>(٧)</sup>.

<sup>(١)</sup> المحدود: ابن سينا، المصطلح الفلسفى عند العرب: ٢٢٩، وشرح الكافية ١: ١: ٢٤٨.

<sup>(٢)</sup> المحدود: جابر بن حيان: ١٦٥ (اضمن كتاب المصطلح الفلسفى عند العرب)، وشرح الكافية ١: ١: ٢٤٨.

<sup>(٣)</sup> إصلاح الخلل: ٢٣، وشرح الكوكب المنير ١: ٩١.

<sup>(٤)</sup> التسمية: ٧١.

<sup>(٥)</sup> الأسطقس: كلمة يونانية تعنى ما ينحلُّ إليه الشيء، أي مكونات الشيء التي يتحللُ إليها، وهي عند جالينوس: الماء، والنار، والترباب، والبهاء. انظر كتاب الماء (أسطقس) ١: ٦٠.

<sup>(٦)</sup> الجمل: ٢١.

<sup>(٧)</sup> الجمل: ٢١. وانظر التداخل الدلالي بين الاسم والمسمى والتسمية، مجلة جامعة قطر للأداب، ع ٢٧ / ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م، السنة السابعة والعشرون، ص ١١٤.

وَحْدَ الزُّجَاجِيُّ الفَعْلُ بِأَنَّهُ: "مَا دَلَّ عَلَى حَدَثٍ وَزَمَانٍ ماضٍ أَوْ مُسْتَقِبٍ"<sup>(١)</sup>. وَهَذَا أَيْضًا رَسْمٌ لَا حَدَّ؛ ذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْأَفْعَالِ مَا لَا أَحْدَاثٌ لَهَا، نَحْوُ قَوْلَنَا: اتَّفَى الضِّدَانُ، فَالْفَعْلُ (اتَّفَى) لَيْسَ لَهُ حَدَثٌ، وَ(كَانَ) النَّاقِصَةُ لَيْسَ لَهَا حَدَثٌ<sup>(٢)</sup>.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ لِلْحَدَّ أَهْمَيَّةً كَبِيرَةً، فَهُوَ أَصْلُ كُلِّ عِلْمٍ، وَلَا نَفْعٌ لِأَحَدٍ بِمَا عَنْهُ مِنْ عِلْمٍ إِذَا لَمْ يَحْظُ بِمَحْدُودِهِ، وَلَعِلَّ هَذَا يَفْسُرُ لَنَا سُرَّ اهْتِمَامِ ابْنِ السَّيْدِ بِمَحْدُودِ الزُّجَاجِيِّ فِي كِتَابِ الْجَمْلَةِ، وَيَوْقَنُنَا مِنْ جَهَةِ أُخْرَى عَلَى مَدِيِّ الْقَدْرَاتِ الْعُلْمَيَّةِ لِابْنِ السَّيْدِ، وَلَا عَجَبٌ فِي ذَلِكَ فَقْدٌ عَرَفْتُمْ عَنْهُ اشْتِغَالَهُ بِالْفَلْسَفَةِ، وَتَأْلِيفِ كِتَابٍ فِيهَا سَمَاءُ (الْحَدَائِقُ الْعَالِيَّةُ فِي الْمَسَائِلِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْمُوَيَّضَةِ).

ـ وَقَدْ نَهَى ابْنُ السَّيْدِ عَدَّةَ سُبُّلٍ فِي سُبُّلِ إِصْلَاحِ الْحَدَادِ الَّتِي أُورَدَهَا الزُّجَاجِيُّ فِي كِتَابِهِ، وَهَذِهِ السُّبُّلُ هِيَ:

أ - تَكْمِيلَةُ الْحَدَّ النَّاقِصَ: فَقَدْ حَدَّ ابْنُ السَّرَّاجِ الْاِسْمَ بِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَى مُفْرَدٍ، وَذَلِكَ الْمَعْنَى يَكُونُ شَخْصًا وَغَيْرَ شَخْصٍ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا الْحَدُّ غَيْرُ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ السَّيْدِ، لَأَنَّهُ لَا يَعْمَلُ جَمِيعُ خَصَائِصِ الْاِسْمِ، فَقَدْ خَلَا مِنِ الإِشَارَةِ إِلَى تَجْرِيدِ الْاِسْمِ مِنِ الدَّلَالَةِ عَلَى الزَّمَانِ، وَلَذَا يَكُونُ إِصْلَاحُ هَذَا الْحَدَّ بِأَنْ يَقَالُ فِيهِ: "مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَى فِي نَفْسِهِ مُفْرَدٌ مِنْ زَمَانٍ مُخْتَصٍ"<sup>(٤)</sup>.

ب - الزِّيَادَةُ فِي الْحَدِّ: فَقَدْ حَدَّ الزُّجَاجِيُّ الْحَرْفَ بِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَى فِي غَيْرِهِ<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا لَيْسَ بِمَدْدٌ، وَلَذَا لَا بدَّ مِنِ الزِّيَادَةِ فِيهِ: "لَمْ يَكُنْ أَحَدُ جُزَاءِ الْجَمْلَةِ"<sup>(٦)</sup>، أَوْ يَقَالُ فِي حَدِّهِ مَا قَالَهُ سَيِّدُهُ: "مَا جَاءَ لِمَعْنَى لِيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فَلْلَهُ"<sup>(٧)</sup>.

فَحَدَّ الزُّجَاجِيُّ مِنْ قَوْضٍ بِأَنَّ ثَمَّةَ أَسْمَاءَ مَعْنَاهَا فِي غَيْرِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَسْمَاءُ الْإِسْتِفَاهَمِ وَأَسْمَاءُ الشَّرْطِ فَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ بِجَرِيِّ الْحُرُوفِ لِنِيَابَتِهَا عَنْهَا، وَالْأَسْمَاءُ الْمُوصَولةُ، وَهَذِهِ مَعْنَاهَا فِي صَلَاتِهَا لَا فِيهَا نَفْسَهَا. وَبِالزِّيَادَةِ الَّتِي أُورَدَهَا ابْنُ السَّيْدِ يَتَخلَّصُ حَدُّ الْحَرْفِ مِنْ مُشَارِكِهِ فِي الْخَصَائِصِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْحَدَّ يَجِبُ أَنْ يَتَرَكَّبْ مِنْ:

<sup>(١)</sup> الْجَمْلَةِ: ٢١.

<sup>(٢)</sup> الْجَمْلَةِ: ٢٣.

<sup>(٣)</sup> إِصْلَاحُ الْخَلْلِ: ١٢، وَالْأَصْوَلُ: ٣٦.

<sup>(٤)</sup> إِصْلَاحُ الْخَلْلِ: ١٢.

<sup>(٥)</sup> الْجَمْلَةِ: ١٧.

<sup>(٦)</sup> إِصْلَاحُ الْخَلْلِ: ٢٧، وَمَرَادُهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ يَكُونُ أَحَدُ طَرَفَيِّ عَلَاقَةِ الْإِسْتَادِ.

<sup>(٧)</sup> الْكِتَابُ: ١٢. وَانْظُرْ نَقْلَ ابْنِ يَعْيَشِ لَهُدِّ ابْنِ السَّيْدِ لِلْحَرْفِ فِي شَرْحِ الْمُفْصِلِ: ٨. ١٣.

١- **ذكر حد كامل:** فقد اختار ابن السيد حدّاً للاسم رأه أشبه الأقوال بأن يكون حدّاً له ، فقال: وأشبه الأقوال بأن يكون حدّاً أن يقال: الاسم كلمة تدلُّ على معنى في نفسها مفرد غير مقترن بزمان محصل يمكن أن يفهم بنفسه<sup>(١)</sup>.

والعلة في ذلك أن من شروط الحد أن يكون مركباً من جنس الشيء الذي يشارك فيه غيره من جهة، وأن يكون مركباً من فصوص الشيء التي تفصل بها عن كل ما يقع تحت ذلك الجنس ، ف(الكلمة) تجمع تحتها أنواع الكلام الثلاثة: الاسم والفعل والحرف ، فهي كالجنس لهذه الأنواع. قوله: "تدل على معنى في نفسها": فصل خاص بالاسم يميزه عن الحرف. وغير مقترن بزمان محصل فصل يخلصه من الفعل. و"مفرد": فصل مخلص له من الجمل<sup>(٢)</sup>.

٢- **طرح حد بديل:** فقد ذكر الزجاجي في حدّ الفعل أنه إذا تقدم الأسماء وحدّ، وإذا تأخر ثُمّي وجمع للضمير الذي يكون فيه<sup>(٣)</sup>:

واعتراض ابن السيد واقع على مصطلحي (الثنية والجمع) اللذين أضافهما الزجاجي إلى الفعل ، وهما مصطلحان خاصان بالأسماء ، ولذا كان الوجه "أن يقول: وإذا تأخر لقه ضمير الاثنين أو الجمع أو ثني الضمير الذي فيه وجمع ، ونحو ذلك"<sup>(٤)</sup>.

ولكن يمكن الاعتذار للزجاجي إذا حمل كلامه على المجاز ؛ ذلك أنه نسب الثنوية إلى الفعل مجازاً وهو يزيد ضمير الفاعل المستتر فيه لما كان الفعل والفاعل كالشيء الواحد ، وكان كالجزء منه لأنّه يختتم تسكين آخر الفعل كما في (ذهبت) فراراً من اجتماع أربعة متحرّكات ، وهذا مکروه عندهم في الكلمة الواحدة<sup>(٥)</sup>.

**جـ الترجيح بين الحدود:** لدى تبليث ابن السيد عند الحدود التي ذكرها الزجاجي جهد في استعراض ما حدّه غيره من الحدود ورد عليهم جميعاً كالكندي ، وابن المقفع ، ثمَّ رکن إلى اختيار أبي نصر الفارابي للاسم معرباً عن استحسانه هذا الحد فقال: "أحسن ما حدّ به الاسم هو حد أبي نصر الفارابي (٣٣٩ هـ) :

<sup>(١)</sup> إصلاح الخلل: ١٤.

<sup>(٢)</sup> إصلاح الخلل: ١٥.

<sup>(٣)</sup> الجمل: ٢٢.

<sup>(٤)</sup> إصلاح الخلل: ٥٥.

<sup>(٥)</sup> إصلاح الخلل: ٥٥.

الاسم لفظ دالٌ على معنى مفرد يمكن أن يفهم بنفسه وحده من غير أن يدلُّ بيته لا بالعرض على الزمان المحصل الذي فيه ذلك المعنى<sup>(١)</sup>. وهو قول الفارابي في كتابه (العبارة).

وقد حدَّت الحروف بأنها أشكال تدلُّ بالمواضعة على الأصوات المقطعة تقطعاً يدلُّ بنظمها على المعاني بالمواطأة عليها<sup>(٢)</sup>. والحرف ما دلَّ على معنى لا يمكن أن يفهم بنفسه من غير اقتران غيره به<sup>(٣)</sup>.

وحدَ الرجاجيُّ (الزمان) بأنه حركة الفلك، وهذا التعريف غير صحيح، وفيه ما فيه من التسُّمُّح في العبارة؛ ذلك أنَّ الزمانَ في الحقيقة مدة حركة الفلك وكذلك زمان كل موجود من الأجرام إنما هو مدة وجوده ساكناً أو متحركاً<sup>(٤)</sup>.

فالزمان خاصَّة من خواص الأشياء الحسية، والفرق بينه وبين الدهر أن هذا الأخير خاصٌ بالأمور المعقولة؛ فقد عرفه الكندي بأنه "المعنى المعمول من إضافة النبات إلى النفس في الزمان كله"<sup>(٥)</sup>.

### ١) الاضطراب المصطلحي:

المصطلح أحد عناصر المنظومة المصطلحية التي هي بدورها تمثيل لنظومة المفاهيم والمصطلحات مفاتيح أي علم، من غفل عنها أو غابت عنه دلالاتها بقى خارج الأسوار ولم تفتح له الأبواب، فكان كالأمي الأعم. وما يمتاز به المصطلح من خصيصة: الدقة وحقيقة الانتفاء إلى المنظومة المصطلحية<sup>(٦)</sup>؛ ولذا ينبغي أن يكون المصطلح بعيداً عن اللبس.

<sup>(١)</sup> إصلاح الخلل: ١٦. وانظر: كتاب العبارة: أبو نصر الفارابي (٩٣٩هـ) تحقيق د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦. وقارن بكتاب: تلخيص كتاب أرسسطو طاليس في العبارة: أبو الوليد بن رشد، تحقيق د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

<sup>(٢)</sup> الحدود لخابر بن حيان: المصطلح الفلسفی عند العرب: ١٧٨.

<sup>(٣)</sup> معيار العلم: ٠٨٠

<sup>(٤)</sup> إصلاح الخلل: ١٠٤. وانظر: المصطلح الفلسفی عند العرب: ٢١١ (كتاب: الحدود الفلسفية للخوارزمي)، تحقيق د: عبد الأمير الأعظم، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٩م). وانظر: ٢٥٣، ٢٩٧، ٣٤٩.

<sup>(٥)</sup> الحدود: للف ZXالى ، ضمن كتاب (المصطلح الفلسفی عند العرب: ٢٥٣). وانظر أيضاً: ٢٩٦، والتعریفات: ١٠٩، وكشاف

اصطلاحات الفنون: ٧٩٩.

<sup>(٦)</sup> مقدمة في المصطلحية: ١٤١.

ومن معالم الاضطراب المصطلحي عند الزجاجي:

**١- الخطأ في إطلاق المصطلح:** فقد أطلق الزجاجي قوله (ثنية الأفعال وجمعها)، وهذا مصطلح من الخطأ إطلاقه في باب الأفعال، فالثنية لا تكون إلا لما كان له مفرد، وهي مشروطة بشروط سردتها كتب النحو. وما استعمله الزجاجي استعمال قائم على الجاز، وهو حذف المضاف، فالتقدير: ثنية ضمائر الأفعال وجمعها، وهذا الأصل –أعني حذف المضاف– كثير في كلام العرب. وقد كان هذا الأصل معتمد ابن السید في التماس العذر للزجاجي في ذلك.

وذكر الزجاجي في أثناء حديثه عن الأفعال الناقصة<sup>(١)</sup> أنه إذا كان بعدها مخفوض فما بعدها يرفع اسمًا والمخفوض<sup>(٢)</sup> خبر مقدم، وضرب لذلك مثالين ذكر في أحدهما جاراً ومحرراً، وذكر في الثاني ظرفاً<sup>(٣)</sup>: قال: كان في الدار زيد، وكان عندك عمرو، وليس عبد الله عذر. وقد تعقبه ابن السید لهذا الخلط بين الظرف والجار والمحرر وجعلهما اسمًا واحداً وإدراجهما تحت مصطلح واحد؛ ذلك أن الظروف أسماء، وحروف الخفض ليست كذلك<sup>(٤)</sup>. ومن هنا رأى ابن السید زيادة (أو) على المد حتى يتم إصلاحه.

وسمى الزجاجي (المصدر) اسم الفعل، فالفعل مشتق منه. واسم الفعل هو ما ناب عن الفعل في المعنى والعمل ولم يكن فضلة في الكلام، ولا متأثراً بما يدخل عليه من عوامل، ولا يقع مستنداً إليه ولا منعولاً<sup>(٥)</sup>.

وأطلق الزجاجي مصطلح (الأمر) من دون تفريق بين الأمر بالصيغة وبين الأمر بالحرف، فسلك فعل الأمر والفعل المضارع المسوبق بلام الأمر أو (لا) النافية تحت مصطلح واحد هو (الأمر)، فقبل الأمر دالٌ بصيغته على الطلب وليس بانضمام غيره إليه، أو بوساطة كقولنا: لا تقم، فدلالة على الأمر بواسطة حرف النهي، وهو طلب الترك<sup>(٦)</sup>. إلا أن الزجاجي فرق بين التوعين بالعلامة، فجعل (الوقف) علامة للأمر بالصيغة، وجعل الجزم علامة لصيغة المضارع الذي اقترن به لام الأمر أو دخلت عليه لا النافية.

(١) الجمل: ٥١.

(٢) جعل الخليل المخض في مقابل الرفع والنصب فيما هو خاص بنهيات الكلم. وسمى حروف المجرأ أيضاً حروف الإضافة، واتبعه سيبويه في ذلك، وسمى الجار والمحرر مضافاً ومضافاً إليه. انظر في ذلك: المصطلح النحوی: ٩٠، ١١٧، ١٣٨، ١٤٥.

والإحالات ثمة. وسمى الفراء الجرّ خصضاً. انظر معاني القرآن ١: ٣، وشرح الحدود النحوية: ٣٩٢.

(٣) الظرف مصطلح بصري، ويسميه الفراء محلاً، ويسميه الكسائي صفة، ويسميه عاملاً الكوفيين غاية. انظر المصطلح النحوی: ١٦٣، والإحالات ثمة. وانظر أيضاً: ١٤٠ و ١٤١.

(٤) إصلاح الخلل: ١٤٧.

(٥) شرح الحدود النحوية: ٣٢٩.

(٦) شرح الحدود النحوية: ٢٧١.

**٢- الخلط المصطلحي:** فقد ذكر الزجاجي في معرض حديثه عن الأفعال الناقصة أنه إذا كان بعدها مخصوص فما بعده يرفع اسمًا لها، والمحفوظ خبر متقدم، نحو: كان في الدار زيد، وكان عندك عمرو، وليس عبد الله عذر<sup>(١)</sup>.

وقد خلط الزجاجي بين نوعين من المخصوص، الأول: المخصوص بحرف جر، والثاني: الظرف، يجعل لها مسمى واحداً، وهو الاسم المخصوص. والظروف أسماء ولم يستحب مخصوصة ولا حروف خضر، ولذا كان اقتراح ابن السيد أن يقال: "إذا وقع بعد هذه الحروف حرف خضر أو ظرف وبذلك يخلو من الاعتراض"<sup>(٢)</sup>. وأعتقد أنَّ ما قاله الزجاجي لا مغفر فيه لأمررين:

- ١- أن الظرف والجار والمجرور يشتملهما مصطلح واحد هو مصطلح شبه الجملة.
- ٢- أن الظروف لا تكون ظروفًا حتى تتضمن معنى حرف الجر (في)، فكانَ الأصل فيها الجر. ولكن يبدو لي أن مصطلح (شبه الجملة) لم يكن قد استقر لزمن الزجاجي.

**٣- غموض المصطلح:** فقد ذكر الزجاجي أن كل شيء كان خبراً للمبتدأ كان خبراً لل فعل الناقص ، من فعل وما اتصل به ، وظرف ، وجملة . وفي هذا المصطلح إخراج للفعل من مصطلح الجملة وجعله قسماً مختلفاً وهو من جهة أخرى عام لذا يحتاج إلى تقييد ، لأن خبر المبتدأ قد يكون استهابياً ، نحو: زيد هل لقيته؟ وعمرو كم رأيته؟ ويخبر عنه بالأمر والنهي ، نحو: زيداً ضربه ، وعمرو لا تعرض له ، وبالتفصيص كقولك: زيد هلاً أكرمه وبالدعاء . وهذه كلها لا يجوز الإخبار بها عن كان وأنواعها .

ومن جهة ثالثة: إن بعض هذه الأفعال لا يجوز الإخبار عنها بالفعل الماضي ، وهي (ليس ، صار) والأفعال المسبوقة بـ (ما).

ورابعاً: منها ما هو موضع خلاف بين النحاة ، فكثير منهم لا يجيز الإخبار عنها بالماضي إلا مقروناً بـ (قد) وأجاز بعضهم ذلك محتاجين بقوله: (إن كان قميصه قد من قبل) [يوسف: ٢٦].

**د- التعميم:** فقد غدا إطلاق الزجاجي أحکامه من غير تخصيص أو تقييد عادة له في كتابه ، وهذا يؤدي إلى اللبس والإبهام . ومن ذلك أن الزجاجي ذهب إلى جواز العطف بـ (لكن) إذا كان بعدها جملة ، ويكتن

<sup>(١)</sup> الجمل: ٥٥.

<sup>(٢)</sup> إصلاح الحال: ١٤٧.

إذا تلاها مفرد<sup>(١)</sup>، فيجوز أن تقول: خرج محمد لكنْ عمرو لم يخرج، وانطلق أخوك لكنْ زيد مقيمٌ، ويُمتنع: خرج محمد لكنْ عمرو.

وهذا حكم مطلق يقع في اللبس والإبهام، فعلى قول الزجاجي يجوز أن تقول: (خرج محمد لكنْ عبد الله يضحك)، فـ (عبد الله يضحك): جملة تامةٌ، ومع ذلك فالتركيب خاطئ؛ لأنَّ حكم الزجاجي يلزمُه التقيد بأن تكون الجملة التالية (لكنْ) مضادة ما قبلها.

وهنا يعمد ابن السيد إلى تعليل هذا التقيد، فيفرق في العطف بين (لكنْ) و(لا)، وهما متضادتان؛ ذلك أنَّ الأولى لإيجاب ما بعدها ما تفي عما قبلها، و(لا) وضعت لتفتي عما بعدها ما أوجب لما قبله، وعندما تأتي (لكنْ) بعد كلام موجب تشبه (لا) في نفي ما أوجب لما قبلها عما بعدها<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك أيضاً قول الزجاجي في العطف بـ(أم): "أقام زيد أم أخوك؟ ومعناه: أيُّهما قام؟ فإنْ قلت: قام زيد أم أخوك، لم يجز؛ لأنَّ (أم) لا يعطِّف بها إلا بعد الاستفهام"<sup>(٣)</sup>.

وقد أقرَّ ابن السيد بصحة الحكم الذي أورده الزجاجي، إلا أنَّ كلامه ملتبس، لأنَّ يوهم أنَّ (أم) ليس لها إلا هذه الحال، أعني العطف بعد الاستفهام. ولذلك لابدَ من رفع التوهم الملتبس بتخصيص (أم) هذه بالمتصلة، فالتعبير الصحيح أن يقال: "لأنَّ (أم) المتصلة لا يُعطِّف بها إلا بعد ألف الاستفهام... لأنَّ (أم) هذه تكون متصلة ومنقطعة، و(أم) المتصلة وحدها تعادل ألف الاستفهام... وليس في كلامه -أي الزجاجي- ما يخصُّ ذلك بألف الاستفهام دون غيرها". فابن السيد يرى أن إصلاح العبارة يكون بتخصيص (أم) بصفة يرتفع بها اللبس والإبهام<sup>(٤)</sup>.

ونهج في تحرير الاضطراب المصطلحي سبلاً أزاحها تقوم على:

**أ- تفسير المصطلح:** ففي معرض تعليقه على (دعوت الله سمِيعاً) يجعل (سمِيعاً) حالاً، وهو رأي غير مجمع عليه، عرض لمصطلح (القطع) عند الكوفيين، وعنى القطع عندهم أنَّ (سمِيعاً) أصلها (السمِيع) فتكون صفة للفظ الجلالة، إذ التقدير: دعوت الله السمِيع على أنها صفة، فلما قطعت الألف واللام من الصفة نصبت. ومن الأمثلة على ذلك قول امرئ القيس:

<sup>(١)</sup> المجمل: ٣٢.

<sup>(٢)</sup> المholm في إصلاح الخلل: ١٢٣.

<sup>(٣)</sup> المholm في إصلاح الخلل: ١٢٤.

<sup>(٤)</sup> المholm في إصلاح الخلل: ١٢٤.

## وعالَيْنَ قِنوانًا مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرًا<sup>(١)</sup>

والمراد من البسر الأحمر، ثم حذفت منه الألف واللام فتصب على المدح والتعظيم<sup>(٢)</sup>.

ومصطلح القطع مصطلح كوفي يراد به النصب على الحال، فقد قال الفراء في تعليقه على قوله تعالى: (هدى لل McDonnell (البقرة/٢٢): "فتنصب (هدى) على القطع، لأن النكرة لا تكون دليلاً على معرفة"<sup>(٣)</sup>، وإن شئت نصب (هدى) على القطع من الهاء في (فيه)، كذلك قلت: لاشك في هاديا<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك أيضاً أن بعضهم قد يذهب في معنى (الفضلة) إلى أن المقصود بها ما لا معنى له وما لافائدة منه؛ ولذا استدرك ابن السعيد عليهم ذلك وقطع عليه طريق الظن هذه؛ ذلك أن المراد بهذا المصطلح أمران اثنان: أولهما: أن حكمها أن تجيء بعد تمام الكلام واستقلاله<sup>(٥)</sup>. وثانيهما: أنها لا تأتي إلا تابعة لغيرها، فهي لا تستقل ب نفسها فتقطع أحد طرق الإسناد<sup>(٦)</sup>.

وأطلق الزجاجي على (كان) وأخواتها مصطلح الحرف<sup>(٧)</sup>. وهذا المصطلح خالف فيه الزجاجي الجمhour، وهو موضع تعقبه فيه العلماء، وابن السعيد واحد منهم؛ ذلك أنها أفعال ناقصة، ونقصانها لا يبتعد بها عن الفعلية<sup>(٨)</sup>. الذي أميل إليه أنه لم يرد بمصطلح (الحرف) المعنى الذي استقر له من بعد، وأنه قسيم الاسم والأفعال، ولكن مراده بهذا المصطلح (الكلمة). وهو تعبير درج عليه التحاة، فقد قال سيبويه: "قول: أنا زيد الفاسقُ الخبيث... ويلقنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصباً: (وامرأته حمالة الخطب) (المسد: ٤) لم يجعل الحمالة خبراً للمرأة"<sup>(٩)</sup>. وقد يكون هذا من باب إطلاق المجزء والمراد به الكل، أو اعتبار

<sup>(١)</sup> عجز بيت صدره: سوامق جبار أثيث فروعه ..... والبيت في: تفسير القرطبي ١٨ : ٤٧ ، والبحر الخيط ١ : ٢٦٩ ، ٤٥٩ : ٨ ، ٢٤٩ ، وتفسير الشعبي ٩ : ٢٨٨.

<sup>(٢)</sup> إصلاح الخلل: ١١٠ و ١١١.

<sup>(٣)</sup> يريد بذلك أنها لا يُوصف بها.

<sup>(٤)</sup> معاني القرآن ١: ١٢ و ١١. وانظر: المصطلح النحوي: د. عوض حمد القزوبي، جامعة الرياض، ط ١، ١٤٠١ هـ: ١٩٨١، ص ١٧٠. وانظر ما يقابل المصطلح عند البصريين: المصطلح النحوي: ٥٥، ٦٩، ٧٠، ١٤٠، ١٠٦، ١٦٨، ١٧١.

<sup>(٥)</sup> إصلاح الخلل: ١١٦. وانظر: شرح الحدود للماكهي (ت ٩٧٢ هـ) تحقيق د. صالح العايد، مطباع جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م، ص ٣٥٨.

<sup>(٦)</sup> إصلاح الخلل: ١١٦.

<sup>(٧)</sup> الجمل: ٤١.

<sup>(٨)</sup> إصلاح الخلل: ١٣٤.

<sup>(٩)</sup> الكتاب: ٢ : ٧٠.

دلالة التضمن ؛ ذلك أن الكلمة تتضمن الحرف ، فهو المقطع الذي تتألف منها بنيتها ؛ ففي ذلك توسيع للدلالة ، والحال في ذلك كالحال في إطلاق مصطلح (كلمة) على كل من الجملة ، أو الخطبة ، أو القصيدة ، فيقال : ألقى المدير كلمته ، وقال الشاعر كلمة ، والحديث في ذلك مشهور .

ب - التأويل : فقد أكثر الزجاجي من ذكر تثنية الأفعال وجمعها ، ومصطلح التثنية لا يجوز إطلاقه على الأفعال ، ولذلك اعتذر ابن السید للزجاجي بأن ذلك من قبيل التسمُّع والتتجوز ، وأوجب تقدير مضاف محنوف ، فكان المراد تثنية ضمائر الأفعال وجمعها ، وحذف المضاف كثير في كلام العرب<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك إطلاق ابن السید مصطلح (الحرف) على الأسماء الجازمة والمحروف معاً. في هذا إخراج للكلام مخرج الجاز والتسمُّع ، فليس كل ما ذكره الزجاجي حروفاً ، فمنها ما يندرج تحت مصطلح الحرف ومنها هو من باب الأسماء. ولكن ذلك كله لم يمنع ابن السید من التماس العذر للزجاجي والجنوح إلى تأويل عبارته ، معللاً هذا الأغلاط بعلتين : أولاهما : أن الأسماء الجازمة منها تجزم لتضمنها معنى حرف الشرط ونباتها عنها ، ولما ناب عن الحرف جاز أن تسمى حروفاً. ثانيةهما : جواز تسمية الأسماء والأفعال حروفاً ؛ لأنها صارت كالحدود للكلام ، والشئ إنما يتعدد مجهاهاته ؛ أي : بحروفه ، وتسميتها بالحروف ليس مستحيلاً في القياس.<sup>(٢)</sup>

ج - الحمل على النظير : ففي اعتذاره للزجاجي لإطلاقه مصطلح (العطف) على (إما) لشدة صحبتها (الواو) واقتانها بها عضد رأيه في ذلك بنظائر كثيرة من مصطلحات نحوية هي بمط إجماع النحاة ، ومن ذلك تسميتهم (الألفين) في (حرماء) ألفي التأنيث ، والتأنيث إنما يكون بالهمزة الثانية فحسب. ومنه أيضاً إطلاق مصطلح الجواب على (الفاء) الواقع في جواب الشرط فيقولون : هي جواب الشرط ، والصواب أن الجواب ما بعدها لا هي<sup>(٣)</sup> .

إن ما قدمناه لا يعدو أن يكون أهم الصوی التي تهدئ بها ابن السید في نقهـه (الزجاجي) في كتابه (الجمل) في مسائل الحدود والمصطلحات ، وسعـيه إلى إصلاح الخلل الواقع فيه. فقد ضربنا صفحـاً عن كثـير من المعالم الأخرى خشـية الإطـالة وتجاوزـ الحـد.

<sup>(١)</sup> إصلاح الخلل : ٢٤٤.

<sup>(٢)</sup> نفسه : ٢٦٤.

<sup>(٣)</sup> نفسه : ٨٨.

وعلى أية حال يمكننا بعد هذا العرض لأصول النقد النحوي عند ابن السِّيد أن نخلص إلى جملة من النتائج، لعلَّ من أهمها:

- ١- لم يكن ابن السِّيد في تبعه (الزجاجي) يرمي عن قوس من التعصُّب العلمي المقيت، الذي يعمي الأبصار ويصمُّ الآذان عن الحق الأبلج.
- ٢- أن ابن السِّيد كان يتهدى بجملة من الأصول المتبعة عن شخصية علمية جعلت وكدها إعادة الحق إلى نصابه، وإصلاح الخلل الذي علق بكتاب (الجمل).
- ٣- الاتزان العلمي والدقة والموضوعية في نقده الكتاب وصاحبها، والاحتفاظ بالمكانة العلمية للزجاجي لكتابه (الجمل)، فلم يعرض له بتطاول، ولم يخرج في نقاداته عن أصول النقد المنهجي.
- ٤- عدم الاقتصر في نقاده على مجرد ذكر موضع الخلل، بل كان يعقب ذلك بذكر سبيل إصلاح الخلل، من تكملة للحد وسد الثغرة فيه، أو اقتراح بدليل له، أو توضيح مصطلح غامض، أو تقويم عبارة مُلْسِنة. وهذا ما يؤكد أن هدفه إحقاق الحق، لا البحث عن نقائص الآخرين والتشهير بمعاهم.

### ثبات المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ارتشاف الضرب: أبو حيان الأندلسي، حققه د. محمد رجب عثمان، ط١، مكتبة الحاخمي، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣. إصلاح الخلل: ابن السيد، حققه د. حمزة النشرتي، دار المريخ، الرياض.
٤. الأصول: ابن السراج، حققه د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
٥. إباه الرواة: القفطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا.
٦. البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، مطباع السعادة ، الرياض.
٧. بنية الوعاء: جلال الدين السيوطي ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا.
٨. البلغة في تاريخ أئمة اللغة الفيروزأبادى، حققه محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢م.
٩. تاريخ العلماء النحوين: أبو الحasan التنوخي المعري ، حققه د. عبد الفتاح الخلو، مطبع جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٨١م
١٠. التعريفات: محمد بن علي الجرجاني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
١١. تقنيات التعريف: د. حلام الجيلالي ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م
١٢. تلخيص كتاب أرسطو في العبارة، : ابن رشد، حققه د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
١٣. الجامع لأحكام القرآن الكريم ، تحقيق عبد العليم البردوني ، عالم الكتب.
١٤. الجمل: الزجاجي، تحقيق د. توفيق الحمد، انتشارات استقلال، ط١، طهران، ناصر خسرو، حاج نایب، ١٤١٠هـ.
١٥. خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي ، حققها عبد السلام هارون، مطبعة الحاخمي، القاهرة.
١٦. ديوان رؤبة بن العجاج: حققه المستشرق وليم الورد ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
١٧. ديوان النابغة الذبياني ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٨. ديوان زهير بن أبي سلمى ، حققه د. فخر الدين قباوة ، حلب.
١٩. رسائل إخوان الصفا : دار صادر ، بيروت.
٢٠. رسائل في اللغة : ابن السيد البطليوسى ، حققه د. وليد محمد السراجي ، مركز الملك فيصل ، الرياض ، م. ٢٠٠٦.
٢١. الزمن واللغة : د. فاضل غالب المطلابي ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.
٢٢. شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلى ، حققه محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٦ م.
٢٣. شرح أشعار البذليين : أبو سعيد السكري ، حققه عبد الستار أحمد فراج ، مراجعة محمود شاكر مكتبة دار التراث ، القاهرة.
٢٤. شرح الحدود النحوية : جمال الدين الفاكهي ، حققه د. صالح العايد ، مطابع جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٩٠ م.
٢٥. شرح الكافية : الرضي الأستراباذى ، حققه د. حسن المخططي وزميله ، ط١ ، جامعة محمد بن سعود ، ١٩٩٣ م.
٢٦. شرح الكوكب المنير : محمد بن أحمد الفتوحى المعروف بابن النجار ، حققه د. محمد الزحيلى والدكتور نزيه حماد ، جامعة أم القرى ، ط٢ ، ١٤١٣ هـ.
٢٧. شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش ، المطبعة المنيرية ، مصر ، بلا تاريخ.
٢٨. الشمسية في القواعد المنطقية : مهدي فضل الله ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٨٠ م.
٢٩. ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، عبد العزيز النجار ، القاهرة / ١٩٨١ م.
٣٠. طبقات النحوين واللغويين : أبو بكر الزبيدي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة.
٣١. العبارة : ابن رشد ، حققه د. محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ م.
٣٢. علاقة المنطق باللغة عند علماء المسلمين ، د. حسن بشير صالح ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ٢٠٠٣ م.
٣٣. الفروق في اللغة : أبو هلال العسكري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٧ م.
٣٤. الفهرست : ابن النديم ، ط. رضا تجدد ، طهران.
٣٥. الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، ١٩٧٩ م.
٣٦. الكتاب : سيبويه ، حققه عبد السلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت.

٣٧. كتاب الماء: أبو عبد الله الصخاري، وزارة الثقافة، مسقط، عُمان، ط١، ١٩٩٦ م.
٣٨. كشاف اصطلاحات الفتوح: محمد بن علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة الدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان، ناشرون، ١٩٩٦ م.
٣٩. لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٢ م.
٤٠. اللغة العربية معناها ومبناها: د. قام حسان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ م.
٤١. اللمع: عثمان بن جني، حققه حامد المؤمن، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٥ م.
٤٢. مجالس العلماء أبو القاسم الزجاجي، حققه عبد السلام هارون، الكويت، ١٩٨٤ م. نسخة مصورة.
٤٣. المصطلح الفلسفى عند العرب: د. عبد الأمير الأعسم، مكتبة الفكر العربي، بغداد.
٤٤. المصطلح النحوى: د. عوض القوزي، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، ط١، ١٩٨١ م.
٤٥. معانى القرآن: الفراء، حققه أحمد يوسف بخاتى، عالم الكتب، بيروت، بلا تاريخ.
٤٦. معيار العلم: أبو حامد الغزالى: د. سليمان دنيا، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٩ م.
٤٧. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، : جمال الدين يوسف بن تغري بردي، ط٢ ، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
٤٨. نزهة الآلية: أبو البركات الأنباري، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ٢٠٠٣ م.
٤٩. نشأة النحو العربي، محمد طنطاوى، ط٢ ، القاهرة، ١٩٦٩ م.
٥٠. وفيات الأعيان: ابن خلkan، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

**المجلات:**

- مجلة جامعة قطر للآداب، جامعة قطر، كلية الآداب ع٢٧، سنة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م



# تجليات الفكر الصوفي في ديوان المديح النبوى

(نفائس المنج وعرايس المدح)  
لابن جابر الأندلسى

□ د. محمد زلاقي \*

إن العلاقة بين شعر المديح النبوى والشعر الصوفى علاقة أكيدة ووطيدة، ذلك أن المديح النبوى هو شعر نشأ وازدهر في الأوساط الصوفية. فهو إن صح لنا التعبير - ابن البينة الصوفية، تربى في حجرها وتندى من لبنها حتى استقام عوده. ولا غرو بعد ذلك أن يستمد بعض ملامحه من هذه البيئة الأم.

ولقد أكد على هذا الارتباط، وهذه العلاقة بين المديح النبوى والتصوف أكثر من باحث. فأول ما استهل به زكي مبارك حديثه عن نشأة المدائن النبوية هو قوله: "المدائن النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف"<sup>(١)</sup>. وعند تعليل محمود علي مكي لروايج المديح النبوى بمصر خلال القرن السابع الهجري، ركز علىربط ذلك الرواج بنشاط الحركة الصوفية، فقال: "ويكاد المديح النبوى منذ بداية القرن السابع الهجري يكون موضوعا لا يختلف عنه شاعر في مصر، فمنهم المقل، ومنهم المكثر، ومنهم من كانوا يفردون له دواوين كاملة، وأغان على ذلك ازدهار الفكر الصوفى، والقبول العظيم الذي لقنته الطرق الصوفية "<sup>(٢)</sup>.

\* مدرس في جامعات الجزائر.

(١) المدائن النبوية ، مبارك زكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م ، ص ١٧.

(٢) المدائن النبوية ، مكي محمد علي ، ط ١ ، الشركة المصرية العالمية ، للنشر ، لونجمان ، مصر ، ١٩٩١ ، ص ١٠٦.

وذهب علي الخطيب إلى أن المديح النبوى لم يعرف إلا في حضن البيئة الصوفية. يقول: "لم يكن [المديح النبوى] فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية، كالرثاء والوصف منها والنسيب، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير الصوفية إلا القليل".<sup>(١)</sup>

أما عباس الجرجاري، فيحكم في اطمئنان أن قصيدة المديح النبوى حققت اكتمالها ونضجها داخل الأجواء الصوفية، حيث قال: "وفي اعتقادنا أن فن المديح النبوى وجذ صيفته المكتملة حين احتك بالتصوف، بعد أن ازدهر هذا الأخير وانتشرت مذاهبه وطرقه"<sup>(٢)</sup>.  
فهؤلاء الباحثون جميعا - على اختلاف بيئاتهم - مشرقاً ومغارباً - قد أكدوا من خلال شهاداتهم المتقدمة على وجود علاقة قوية بين المديح النبوى والتتصوف.

والباحث في شعر المديح النبوى بعامة يجد أن هذا الشعر قد استوعب كثيراً من الأفكار والمفاهيم الصوفية. فقد كان العالم الصوفي بأبعاده الواسعة، ومفاهيمه المتعددة، من أهم المصادر التي استقطبت اهتمام شعراء المديح النبوى ، حيث التفتوا بعنابة واضحة إلى هذا المصدر الشري ، واستقروا منه كثيراً من المعاني التي سعوا من خلالها إلى محاولة استكمال معالم الشخصية الحمدية والارتقاء بها إلى المستوى الذي يجعلها تفوق في بشريتها كل البشر، وفي "نبوتها كل الأنبياء والرسل .

ولعل من أبرز المفاهيم الصوفية التي استوحها هؤلاء الشعراء من محارب الصوفية ، ما يتصل "بالحقيقة الحمدية" أو "نظيرية النور الحمدى" ، كما تُعرف لدى فلاسفة الصوفية المسلمين. والتي تقدم تفسيراً فلسفياً لحقيقة محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، تتصل بمصدره، وقدمه ، ونورانيته ، وكماله ، وقطبيته ، وبالتالي فضله على كل الموجودات ، وما إلى ذلك من المعاني والمفاهيم التي تشارك في تشكيل تصور كامل لمضمون هذه النظرية.  
ومضمون هذه النظرية أن محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حقيقة، أو صورتين: إحداهما تتجلى في الصورة البشرية التي يمثلها النبي محمد في هيئته التي ظهر بها للناس ، وشاهدوه بها في مكان وزمان معينين، وثانيةهما ، حقيقة ذات طبيعة روحية أو نورانية. وهو نور أزلٍ قديم ، سابق في وجوده لكل الأكوناون والموجودات ، وهي حقيقة غيبية خارجة عن إطار التعين والتحديد، إنها كما يقول ابن عربي: "موجود ميتافيزيقي محض ، خارج عن

(١) الأدب الصوفي، الخطيب علي، بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، مصر، ١٤٠٤ هـ، ص ٦٨.

(٢) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، الجرجاري عباس، ط٣، مكتبة المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٦، ص ١٤٣.

حدود الزمان والمكان".<sup>(١)</sup> وتصف هذه الطبيعة الغيبية بالأزلية، فهي سابقة لوجوده<sup>(٢)</sup> الحسي في صورة النبي المرسل، بل إنها متقدمة عن سائر الخلق .

أما عن المصدر النوراني والطبيعة النورانية للرسول<sup>(٣)</sup>، فقد استقاها الصوفية - إلى جانب الحديث النبوى -<sup>(٤)</sup>، من القرآن الكريم. وذلك في قوله تعالى : "قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مِّبِينٌ"<sup>(٥)</sup> .

ويتفق في هذا تأويل الصوفية مع تفسير الطبرى، حيث أشار إلى أن المقصود بكلمة "نور" هو محمد<sup>(٦)</sup>. وأن المراد بعبارة "كتاب مبين" هو رسالة الإسلام التي كلف محمد بتبليلها، ونصّها القرآن الكريم<sup>(٧)</sup> .

وهذه الطبيعة الروحية، بقدر ما هي قديمة سابقة لكل وجود، فهي متاخرة باقية إلى حيث يشاء الخالق. ولا تنتهي بوفاة محمد<sup>(٨)</sup> في صورته المادية البشرية. إنها - إن صح التعبير - حقيقة تتضوّي على ثنائية قابلية تشمل القبل والبعد، القدّم والتأخر، البداية والنهاية.

وقد اعتمد الصوفية في تأكيد هذه الاستمرارية للحقيقة الروحية على بعض ما ورد في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا"<sup>(٩)</sup> . فورود كلمة "يُصْلُونَ" داخل هذا السياق في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرارية، فيه دلالة واضحة على أنّه ممداً<sup>(١٠)</sup> حقيقة باقية.

وتأسيساً على هذا المصدر النوراني للنبي محمد<sup>(١١)</sup>، وعلى اعتبار وجوده السابق لكل الموجودات، فإن أصحاب هذه النظرية يرون أن الحقيقة الحمدية تمثل أول التجليات الإلهية في صور الوجود. وهي بذلك تجمع بين الخالق من حيث كونها تحجّل له، وبين المخلوق من حيث إنها كانت بمثيّته وأمره. وهذا ما عبر عنه الحالج بمعصطلحي : اللاهوت والناسوت<sup>(١٢)</sup> .

(١) فصوص الحكم، محي الدين بن عربي، تعليق: أبو العلاء غيفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (١٣٦٥ - ١٩٤٦)، ص ٣٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣١٩.

(٣) المائدة ، الآية ١٥.

(٤) المصطفى المفسر، ينظر: الطبرى، دار الشروق ، القاهرة، ١٩٨٠ ، ص ١٢١.

(٥) الأحزاب ، الآية ٥٦.

(٦) ديوان الحالج - معه أخبار الحالج وكتاب الطواحين، وضع حواشيه وعلق عليه : محمد باسل عيون السود، ينظر: الحالج (أبو المفتي الحسين بن منصور)، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م ، ص ٣٧.

وبينبني على هذا أيضاً أن النور الحمدى هو مصدر الخلق جميعاً، فمحمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هو الروح التي "أفاضت على الوجود بنورها وصدر كل شيء عنها" <sup>(١)</sup>.

ومن هذا النور كذلك انبثقت أنوار النبوات؛ فكلنبي إنما هو صورة من ذلك النور الأزلي. وهذا ما قاد فلاسفة الصوفية إلى القول بوحدة الوجود، على اعتبار وحدة المشا أو المصدر.

بل إن زكي مبارك يرى أن منشأ الحقيقة الحمدية عند الصوفية يعود إلى الاعتقاد بوحدة الوجود. حيث يقول : "الحقيقة الحمدية هذه مدحشة لأنه يُردد إليها كل شيء، فهي الموصوفة بالتساوی على العرش الرحمني. وهي لا تحيز، فلا يحصرها أين. ومفهوم جداً أن هذه حالة إلهية الإنسان، والإنسان إله وملأه في وقت واحد، أي أن له درجتين، درجة العبودية، ودرجة الألوهية. أفيكون لهذا كله شيئاً غير القول بوحدة الوجود؟" <sup>(٢)</sup>.

وانطلاقاً من قناعة هؤلاء بأن الحقيقة الحمدية هي أصل كل موجود، فقد آمنوا بأنها مصدر كل علم، وأنها منبع العلم الباطني الذي يستمد منه سائر الأنبياء علمهم. وهي –إذاً– الأصل الذي تلتقي فيه كل الأنبياء والشريائع السماوية، وما دام الأنبياء والرسل جميعاً يتلقون أنوار نبوتهم من النور الحمدى "فكلنبي من لدن آدم إلى آخرنبي، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طيبته فإنه بحقيقةه موجود. وهو قوله كنت نبياً وأدم بين الماء والطين" <sup>(٣)</sup>.

هذا يعني أنه ليس هناك اختلاف بين الأنبياء والرسل إلا في المظهر الخارجي، ففي الحقيقة، هناكنبي واحد بعثه الله في أزمنة مختلفة وفي صور متعددة متباعدة، فما الأنبياء إلا روح واحدة لها حقيقة أزلية واحدة. هذا ما يتعلق بضمون فكرة الحقيقة الحمدية. أما عن تاريخ ظهورها في البيئة الصوفية، فالمتفق عليه أن الحسين بن منصورالحلاج (ت ٣٠٩ هـ) <sup>(٤)</sup> هو أول من تحدث عنها ويلور مفهومها، وصاغ مضمونها. وبعد طه عبد الباقى سرور من الذين أكدوا هذه الرىادة بقوله : "ولا جدال في أن الحللاج قد وجّه خطوط الحياة الروحية في الإسلام إلى معارج وأفاق لم تعرفها من قبله، وكان في طليعة هذه المعارج والأفاق فكرة

(١) الأدب الصوفي، اتجاهاته وخصائصه، صابر عبد الدايم ، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. ص ٥٤.

(٢) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، (د.ت)، ج ١، ص ١٦٩.

(٣) نصوص الحكم ، محي الدين بن عربي ، ص ٦٣، ٦٤.

(٤) الحللاج شهيد التصوف الإسلامي ، طه عبد الباقى سرور، ط٢، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م. ص ١٤٥.

الخلاج ، أو نظريته عن الحقيقة الحمدية أو النور الحمدي <sup>(١)</sup> . والمطلع على مضمون النظرية عنده ، يجد أنه صاغ لها مفهوماً متكاملاً دليلاً ، ظل يشكل مرجعية أساسية لمن جاءوا بعده من متصوفة الإسلام ، اللهم إلا ما تعلق ببعض المصطلحات التي أضيفت إلى هذه النظرية ، أو تلك الإضافات التي تستمد مصاديقها وقيمتها من ذلك النبع الأول الذي فجره الخلاج . وهي - بذلك - إضافات تثير مفهوم النظرية ولا تخرج عن حدوده .

ويتلخص جوهر التصور الخلاجي للحقيقة الحمدية في ما أوردته في كتابة "الطواسين" ، ونصه "طس سراج من نور الغيب ، بدا وعاد ، وجاءو السراج وساد ، قمر تجلى بين الأقمار برجه في فلك الأسرار" <sup>(٢)</sup> . بعد أن أقر الطبيعة التورانية للحقيقة الحمدية ، أكد أن هذا النور الأزلية هو مصدر كل النبات . وما الأنبياء والرسل جميعاً إلا صور من ذلك النور . وأن أكمل صورة قد تمثلت في النبي محمد <sup>(عليه السلام)</sup> باعتباره أول تعين للحقيقة الإلهية في صور الوجود . يقول الخلاج : "أنوار النبوة من نوره بربزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أبؤر وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همه سبق الهم ، واسم سبق القلم لأنه كان قبل الأم" <sup>(٣)</sup> .

فمضمون الحقيقة الحمدية عند الخلاج ، يتلخص في أن مخدماً <sup>(عليه السلام)</sup> صاغه الله من نور ، وأنه أول تجل للحق في صورة الخلق ، وهو - بذلك - ذو طبيعة أزلية قدية سابقة لكل الموجودات ، بل إن هذا النور هو مصدر كل النبات . وأن هذه الحقيقة قد تجلت أولاً في صورة آدم عليه السلام ، وظلت تنتقل في الأصلاب إلى أن ظهرت أخيراً في صورة محمد خاتم النبيين . وبهذا ، حاز محمد - الحقيقة - القبل والبعد ، والقدم والتأخر .

وقد تلقت البيئة الصوفية - بعد الخلاج - هذا المفهوم بمعناية كبيرة حتى صار من أهم نظرياتها ، متخذًا في ذلك تسميات أو مصطلحات أخرى ، كمصطلح "الكلمة" <sup>(٤)</sup> عند حمي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) الذي يعد أول من طور الفكرة من فلاسفة الإسلام . ثم مصطلح "القطبية" <sup>(٥)</sup> عند ابن الفاراض (ت ٦٣٢ هـ) ، ليأتي مصطلح "الإنسان الكامل" <sup>(٦)</sup> عند عبد الكريم الجيلي (ت ٨٠٥ هـ) .

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

(٢) الطواسين ، الخلاج ، مكتبة بول جونتيير ، باريس ١٩١٣ ، ص ٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٤) فصوص الحكم ، ابن عربي ، ص ٣٢١ .

(٥) شعر عمر بن الفاراض ، ينظر: عاطف جودة نصر ، دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الأندلس ، بيروت - لبنان ، ص ١٩٠ إلى ١٩٥ .

(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١١ .

ومثلما كان لهذه النظرية - الحقيقة الحمدية - صداتها لدى الصوفية، كان لها تأثيرها الواضح أيضاً في الشعر الديني بعامة، والشعر الصوفي خاصة، فقد أصبحت مادة غنية للشعر الصوفي في القرن السابع الهجري<sup>(١)</sup>.

وكذلك الشأن بالنسبة لشعر المديح النبوى، حيث وجد مادحو الرسول ﷺ في هذه النظرية مادة خصبة، استلهموا من أفكارها ومعانيها ما أسعفهم كثيراً في بناء صورة متسامية للشخصية الحمدية. فما مدى حضور هذه المفاهيم الصوفية في المدح النبوية لدى الشاعر محمد بن جابر الأندلسي ؟

الحقيقة أن القارئ لديوان المدائح النبوية (نفائس المنح وعرايس المدح) لابن جابر الأندلسي ، يقف على مفاهيم وصور عديدة مستوحاة من محراب الصوفية ، ستحاول أن تبيّنها من خلال بعض النماذج الشعرية التي تستخلصها من هذا الديوان .

فمن تجليات المفهوم الصوفي في مدائحه ، توظيفه للحقيقة الحمدية ، ومصدر خلقه<sup>(٢)</sup> التوراني ،  
حيث يقول :

وَكُنْتْ بِصَلْبِ آدَمْ قَبْلُ نُورًا      بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ قَدْ ارْتَبَعْتَ

محمد<sup>(٣)</sup> خلق من مادة خاصة تختلف عن تلك التي صيغ منها سائر البشر ، إنها كما حدها التصور الحلاجي ، والفكر الصوفي الإسلامي بعامة ، تمثل في ذلك النور الإلهي الأزلي القديم الذي أراده الحق أن يكون مصدراً لأول نجف له في مخلوقاته ، ألا وهو محمد<sup>(٤)</sup> في حقيقته الروحية. وقد ظل ذلك النور يتنقل في أصلاب شريفة طاهرة إلى أن ولد معه<sup>(٥)</sup>.

يقول ابن جابر في هذا المعنى :

لَمْ يَزُلْ نُورُكَ الْمُبِينُ يُرَى فِي      أَشْرَفِ الْأَمْهَاتِ وَالْأَبَاءِ

وقوله :<sup>(٦)</sup>

وَمَذْ خَلَقَ الرَّحْمَنَ آدَمَ لَمْ يَزُلْ      يَنْقُلُ فِي الْأَصْلَابِ نُورًا وَيُذْرَجُ

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٢) ديوان المديح النبوى (نفائس المنح وعرايس المدح)، محي الدين بن جابر الأندلسي، تحقيق: محمد طيب خطاب ، ط ١. مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٢٦ - ٢٠٠٥ ، ص ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

إلى أن بدا كالصدر لا غيم فوقه  
به يهتدى في ظلمه الليل مدلج  
فالحقيقة الحمدية - إذن - هي ذلك النور الذي أفاضه الله على أول مخلوقاته، وقد شاء له أن يكون -  
بعد ذلك - مصدراً لكل المخلوقات وال موجودات ، ألا وهو نبى محمد(ﷺ) في صورته الروحية.  
وتأسساً على هذا، ظهرت فكرة القدّم في الوسط الصوفى وأسبيقه(ﷺ) في الوجود، فهو سابق لكل  
الموجودات. يقول ابن جابر: <sup>(١)</sup>

قبل خلق الأنام كان نبى مرسلا  
مودعاً سره إلى أن أذيعـا  
وهو بذلك سابق لآدم أبي البشرية <sup>(٢)</sup>:

كان للخلق نبى مرسلا  
قبل أن يوجد من آدم خلـقـا  
فقد كان خلق محمد(ﷺ) في حقيقته الروحية النبوية قبل أن يشكل آدم من مصدره الطيني في صورته  
البشرية <sup>(٣)</sup>:

وكان آدم طيناً عندما وجبت  
له النبوة بالتفصيص في الأزل  
فمحمد(ﷺ) كان موجوداً - من حيث نبوته - وآدم مازال لم يخط عالم العدم <sup>(٤)</sup>:

وبالنبوة رب العرش فضلـاـ  
إذا كان آدم لم ينقل من العـدـم  
وربما من هنا استلهموا الصوفية فكرة أن الرسول(ﷺ) أب لآدم وابن له في الوقت نفسه ، أي ثنائية  
الأب والابن. ومفادها أن محمد(ﷺ) باعتباره الفيض الأول الذي فاض من ذات الله تعالى ، وأن كل  
المخلوقات صادرة عن هذا الأصل أو الفيض ، فإنه بذلك أب لآدم من حيث الجانب الروحي أو المصدر  
النورى. وهو بالموازاة ابن له من حيث وجوده الحسى في صورته البشرية التي ظهر بها للناس في زمان ومكان  
معلومين. وقد عبر الشاعر الصوفى عمر بن الفارض عن هذه الفكرة بقوله <sup>(٥)</sup>:

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٣٤.

(٥) الديوان، ابن القارض (أبو حفص عمر)، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٧٩، ص ١٠٥.

وأنتي وإن كنتُ ابنَ آدمَ صُورَةَ فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِأَبُوتِي حيث تحيل الكلمة "معنى" على الحقيقة النبوية والمصدر التوراني الأزلي القديم، أما الكلمة "صورة" فترتبطنا بالنبي محمد(ﷺ) في صورته البشرية الحسية الشهودية.

وبهذا نصل إلى ثانية "القبل والبعد، أو القدم والتأخر" لدى المفهوم الصوفي، فمحمد(ﷺ) - الحقيقة / النبوة - هو أول الخلق ، وآخر من يبعث لأن العالم متصلق به، مشروط بوجوده واستمراره. ولهذه الفكرة تجلياتها في مدائح ابن جابر، من ذلك قوله<sup>(١)</sup> :

خُتَّمْتَ بِهِ الرُّسُلُ الْكَرَامُ وَقَبْلَهُمْ حُسِيتْ نِبْوَتَهُ وَتَمْ عُلَّا  
وقوله<sup>(٢)</sup> :

لَخَتَمَ جَمِيعَ الرَّسُلِ أَخْرَتْ بَعْثَةَ وَسَبَقَكَ فَضْلًا مَا عَلَيْهِ خَفَاءُ  
وَكَنْتَ نَبِيًّا حِيثُ آدَمَ لَمْ يَكُنْ لَرُوحٍ وَجَسْمٍ طَابَ مِنْهُ لَقَاءُ

ويتبين على فكرة القدم في خلق النور الحمدي ما ذهب إليه الصوفية من أن جميع الأنبياء والرسل إنما يستمدون نورهم من ذلك النور الأزلي ، ويصدرون في نبوتهم عن ذلك الفيض الذي أودعه الخالق في الذات الحمدية. وهذا ما أكدته الحلاج - كما سبق - في قوله : "أنوار النبوة من نوره بربرت". وقد نفذت هذه الفكرة إلى شعر ابن جابر الأندلسي، حيث يقول<sup>(٣)</sup> :

وَكُلَّ مَا نَبِيَّ فَهُوَ جُوهَرَةٌ مِنْ بَحْرِهِ وَهُوَ الْمَعْنَى لِكُلِّهِمْ

ويتوسع في هذا المفهوم قائلاً<sup>(٤)</sup> :

وَقَالَ كَنْتَ نَبِيًّا حِيثُ لَا بَشَرٌ  
بِهِ تَوَسِّلُ فِيمَا قَبْلَ آدَمَ  
وَكَانَ فِي صَلْبٍ يُشَيَّثُ بَعْدَ ثُمَّ حُوِيَ

<sup>(١)</sup> الديوان ، محمد بن جابر الأندلسي ، ص ٥٨٥.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه ، ص ٧٦.

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه ، ص ٥٣٤.

<sup>(٤)</sup> المصدر السابق ، ص ١٩٩.

**أنشأه في خير أرحام وأخرجه للناس من أدرم الأصلاب إخراجا**

**نبوة محمد(ﷺ) هي مصدر كل النبوات ، ونوره منشأ كل الأنوار ، وما مننبي إلا ويستمد حقيقته وخلقه من ذلك العين المقدس . يقول ابن جابر مؤكدا هذا التصور<sup>(١)</sup> :**

**وبه مولد كل الأنبياء من صفي الله حتى للشفاء**

**فما مننبي إلا ويستمد نوره ونبوته من نبوة محمد(ﷺ) ، وعليه فكل الأنبياء مدينون له بالفضل . من هنا وجد شعراً المديح النبوى - وقبلهم شعراً الصوفية - مجالاً للتعالى والتسامي بالشخصية الحمدية على سائر الأنبياء والرسل ، فهذا ما نقرأه في قول ابن جابر<sup>(٢)</sup> :**

**فالرسل من عيسى لأدم كلهم تبع له وهو الإمام المهدى**

**أنت الأخير ولم يزل لك فيهم خبر ففي التحقيق أنت المبتدى**

**حيث يؤكد أن كل الرسل تبع للنبي محمد(ﷺ) ، وأنهم جميعاً متعلمون بنبوته وبذلك الفيض الإلهي الأول . وبهذا حاز محمد(ﷺ) مرتبة الشرف وكان أفضل الرسل والأنبياء<sup>(٣)</sup> :**

**زين النبوة عين الرسل خاتمه في البعث أولهم في رتبة الشرف**

**بل إنه صاحب الخصوصية والتجليل دوناً عن سائر الأنبياء والرسل<sup>(٤)</sup> :**

**هادي البرية من بعد الضلال ومن له على الرُّسُلِ تخصيص وتفضيل**

**ويحاول ابن جابر أن يوسع في بيان فضل محمد(ﷺ) على سائر الأنبياء والرسل ، وما كان عليهم من كرامات وخير ، فيستلهم من النص القرآني والتاريخ الإسلامي ما يسعفه في صياغة هذه الفكرة حيث يقول<sup>(٥)</sup> :**

**فالأنبياء معادن في الوجود بدت وهو العبارة عنها عند معتبر**

**وكلهم منه يجئي طيب التمر فكان كالروض طابت منابته**

<sup>(١)</sup> المصدر نفسه ، ص ٣٦٨.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه ، ص ٢٦٢.

<sup>(٣)</sup> المصدر نفسه ، ص ٤١٣.

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه ، ص ٤٥٠.

<sup>(٥)</sup> المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

نجاة نوح بِطَامِ الْمَوْجِ مِنْهُمْ  
 خلاص يومن من أحشاء معنكر  
 حمى النبیح شفی أیوب من ضرر  
 هذَا الْمَقَامُ وَلَا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَشَرٍ

ملاذ آدم إِذْ نَادَى بِتَوْتَيْهِ  
 حِرْزُ الْخَلِيلِ غَدَةُ النَّارِ دَعْوَتَهِ  
 بِشَرِّيَ الْمَسِيحِ مَنَاجَةُ الْكَلِيمِ بِهِ  
 فَلَمْ يَنْلِ فِي سَمَاءِ اللهِ مِنْ مَالِكٍ  
 وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ<sup>(١)</sup>:

يَشْمَلُهُ مَا كَانَ مِنْ عَفْوٍ وَمِنْ لَطْفٍ  
 وَقَدْ جَرَتْ فِي عَظِيمِ الْمَوْجِ مِنْ قَنْدَفِ  
 مِنْ نَارٍ مَغْرُودٌ لَمَّا أَنْ عَلَاهُ طَفْقِي  
 صَوْنًا لِمَوْدَعِ نُورٍ مِنْهُ مَكْنَفِ

لَوْلَمْ يَكُنْ نُورُهُ فِي ظَهَرِ آدَمَ لَمْ  
 وَهُوَ الْمَخْلُصُ نَوْحًا فِي سَفِيتَهِ  
 وَنُورُهُ صَانٌ إِبْرَاهِيمَ عَنْ لَمَبِ  
 وَقَدْ فَدَى اللَّهُ اسْمَاعِيلَ خَيْرَ فَدَى

فهذه الآيات تؤكد فضل النبي محمد(ﷺ) على كل الأنبياء والرسل، وأن كل ما أحبطوا به من الرعاية الإلهية إنما كانت بسبب محمد - المحقيقة / المصدر التورى - الذي يعد أول تجلٍ للحق، وأول مصدر للنبوات، وكل الموجودات. وهذا ما يتناغم ويتوافق مع الفكر الصوفي الذي يرى "أن حقيقة الرسول مطلقة، ليست مرتبطة بزمن، فهو أول خلق الله وآخر رسله. وأزلية الحقيقة الحمدية هي التي يستمد منها الأنبياء والأولياء في كل زمان ومكان<sup>(٢)</sup>".

ومثلاً كان الرسول(ﷺ) مصدراً للنبوات، فهو أيضاً أصل لكل الخلق والكائنات. فكل ما في الوجود إنما منشأه ومرده إلى ذلك التَّعْينُ الأولُ الذي قَتَلَهُ الحقيقة الحمدية. يقول زكي مبارك مؤكداً هذا التصور الصوفي : "إن الصوفية يتصورون ذاتاً أحديّة لا تكثُر إلا بالتعيينات ، والتَّعْينُ الأولُ هو محمد(ﷺ) ، وهو الحكمة الفردية ، وعنه نشأت جميع التعيينات حتى الأنبياء . ومن أجل ذلك كان سيد جميع الناس ، وكان خاتم الأنبياء<sup>(٣)</sup> ."

<sup>(١)</sup> المصدر السابق ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

<sup>(٢)</sup> الحرية التواصيلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري ، آمنة بعلوي ، مشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١ ، ص ٢٦٩ .

<sup>(٣)</sup> الصوف الإسلامى في الأدب والأخلاق ، مبارك زكي ، ص ٢٣٢ .

فالرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ) لدى الصوفية هو سر الكون، وغايته، ومحوره، وعلة وجوده، بل إنهم : "يتمثلون الوجود مربوطاً بالحقيقة الحمدية أو ثق رباط"<sup>(١)</sup>.

وقد استلهم ابن جابر هذا المفهوم في موضع مختلف من ديوانه بصيغة وتعابيرات مختلفة منها قوله<sup>(٢)</sup> :

سِرُ الْوِجُودِ وَمَعْدَنُ الْفَضْلِ الَّذِي  
فَهُوَ سِرُ الْوِجُودِ وَأَصْلُهُ وَمَصْدُرُ كُلِّ فَضْلٍ، وَبِذَلِكَ، فَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مُتَعْلِقٌ بِهِ، مُرْبُوتٌ بِحَقِيقَتِهِ.  
لِأَجْلِ هَذَا سُخْرَةِ اللَّهِ لَهُ كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ مُوجَدَاتٍ وَكَائِنَاتٍ يَقُولُ ابْنُ جَابِرٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى<sup>(٣)</sup> :

فَأَذْعُنَ حَتَّى الشَّارِدُ الْمُتَوَحِشُ  
لِهِ سُخْرَةُ الْوِجُودِ جَمِيعُهُ

ولا شك أن مفهوم الحقيقة الحمدية - كما هو في تصور فلاسفة الصوفية المسلمين - هو الذي انتهى بالشعراء إلى أن يتناولوا جملة من المعاني والصفات في امتداد الذات الحمدية، ألبسوها مفردات وعبارات تعتمد الصيغ المطلقة أو تؤدي معناها؛ فمحمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ) هو سيد الكون، وأحسن الخلق، وأفضل الأنبياء، وأقربهم شاناً، وأقربهم منزلة إليه، وغيرها من الصيغ والعبارات التي تضفي طابعاً من المخصوصية والتفرد على شخص الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ)، على غرار ما نجد في قول ابن جابر الأندلسي<sup>(٤)</sup> :

خَيْرُ النَّبِيِّينَ فِي بَدْءِ وَمُخْتَنَمٍ  
وَسَيِّدُ الرُّسُلِ مِنْ مَاضٍ وَمُلْتَحَقٍ  
وقوله<sup>(٥)</sup> :

هُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ الْكَرَامِ يَضْمُنُهُمْ  
هُوَ بَدْرُ هَالِتِهِمْ وَشَمْسُ سَمَائِهِمْ  
وَهُوَ - عَلَى الإِطْلَاقِ - خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ<sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

<sup>(٢)</sup> الديوان، محمد بن جابر الأندلسي، ص ٥٩٣.

<sup>(٣)</sup> المصدر السابق، ص ٣٤٥.

<sup>(٤)</sup> المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

<sup>(٥)</sup> المصدر نفسه، ص ٣٣١.

<sup>(٦)</sup> المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

## محمد ذو العلا والحمد أكرم منْ مشى على الأرض من حافِ وَمُتَعَلِّ

والقارئ لديوان ابن جابر ، يقف على صور عديدة ، ومعانٍ وصيغٍ كثيرة تعلو بالشخصية الحمدية ، تخرج بالشاعر - أحياناً - إلى حد المبالغة على طريقة الصوفية ، كالقول بأنَّ مُحَمَّداً (ﷺ) هو علة الكون ، وإقرار الارتباط الشرطي بين الوجود الحمدي والوجود الكوني ، وأنَّ كل ما في الكون إنما خلق لأجله (ﷺ) وبسيبه ، وغيرها من المفاهيم التي راجت في الوسط الصوفي ، وتلقفها شعراء المديح النبوي بعامة لتوظيفها في مقام التسامي بالذات الحمدية .

وقد حاول زكي مبارك أن يتلمس مبرراً لمادحي الرسول (ﷺ) فيما انتهجه من المبالغة والخلو في مدحهم للنبي محمد (ﷺ) ، فأعاد ذلك إلى تأثير الفكر الصوفي ، وتحديداً مفهوم الحقيقة الحمدية التابع أصلاً من القول بوحدة الوجود . هذا المفهوم الذي يعلو بالشخصية الحمدية فوق كل المخلوقات ، على اعتبار أنَّ الحقيقة الحمدية مثل أول التجليات الإلهية .

كما فسر ذلك الغلو بمناسة المسلمين للنصارى ، ومحاولة الارتفاع برسول الإسلام على شخصية المسيح عيسى عليه السلام . فإذا كان هؤلاء يعتقدون بأنَّ عيسى ابن الله ، فإنَّ متصوفة الإسلام يتتجاوزون ذلك ، ويقتخرون بأنَّ نبيَّهم هو أصل كل الخلق ، بما في ذلك الأنبياء والرسل . يقول زكي مبارك بهذه الشأن : "إلى هنا عرف القارئ كيف نشأ الإغراق في مدح الرسول ، فهو قائم على أساس القول بوحدة الوجود . وقد صح عندي بعد التأمل الذي دام سنتين أنَّ الصوفية أرادوا أن يتهموا شخصية المسيح ليضفوا ثوباً على النبي الإسلام . فإذا كان المسيح ابن الله كما يزعم النصارى ، فمحمد أرفع من ذلك ، لأنَّ مُحَمَّداً يقدر على كل شيء ولولاه لما ظهر عن الله شيء" <sup>(١)</sup> .

وإذا كان زكي مبارك قد التمس للشعراء مبرراً لتلك المبالغة في مدح الرسول (ﷺ) ، وربطها بالمفهوم الصوفي للحقيقة الحمدية . ومحاولة الارتفاع بشخصه الكريم إلى ما يفوق مقام المسيح عليه السلام ، وكذا سائر الأنبياء والرسل ، فإننا نجد في القرآن الكريم ما يبرر هذه الظاهرة ، ظاهرة الغلو في التسامي بالذات الحمدية . فقد سبق أن أضفت النص القرآني خصوصية واضحة على نبي الإسلام وارتفع به إلى أعلى الدرجات ، من ذلك قوله تعالى : "وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ" <sup>(٢)</sup> . وقد رفع ذكر محمد إلى ذكره تعالى في الصلوات الخمس اقترانا .

(١) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، زكي مبارك ، ص ٢٤٠ .

(٢) الشرح ، الآية ٤ .

ونحن نجد في حادثة الإسراء والمعراج مثلاً ما يعلو بالذات الحمدية إلى درجة التفرد المطلق. فالحادثة تؤكد رفعة محمد (ﷺ) عن سائر الأنبياء والرسل. وكذا درجة التقريب عند الله التي لم ينافسها فيها مناوس. فقد بلغ "سدرة المتهى" وهي أقرب مكان إلى عرش الرحمن، بعد أن جاوز عدة سماوات كان قد التقى فيها بالأنبياء والرسل، وهو ما يثبت صفة التجاوز لهم في المقام والرتبة، بل لقد بلغ ما لم يبلغه جبريل عليه السلام نفسه، وهو أمين الوحي ودليله في تلك الرحلة المقدسة. فكان -وحده- قاب قوسين أو أقرب إلى الحق تبارك وتعالى، لقوله جل شأنه: "وَهُوَ بِالْأَقْرَبِ الْأَعْلَى ثُمَّ ذَنَا فَتَدَلَّلَ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَتَّمَارَوْهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَى" (١).

فاحادثة المعراج تؤكد على منزلة الرسول (ﷺ) عن باقي الأنبياء والرسل، وتحنه صفة الخصوصية والتفرد من حيث إنه بلغ ما لم يبلغه رسول من قبل، وحتى الملك جبريل نفسه.

وقد استوعبت قصيدة المديح النبوى لدى ابن جابر الاندلسي هذه المعاني، وعبرت عنها في سياق التسامي بالشخصية الحمدية وإبراز خصوصيتها وتفردها. من ذلك قوله (٢) :

سموتَ مجاوزاً سبعاً طباقاً      ومن فوق الْبُرَاقِ لِهَا سَمَوْتَا  
فَصِرَتْ إِلَى مَقَامِ لَانْبَسِيَّ      وَلَا مَلِكٌ رَقِىَ حِيثَ ارْتَقَيْتَا  
فَقَدْ حَلَّ (ﷺ) بِسِدْرَةِ الْمُتَهَى مُفَرِّداً مِنْ غَيْرِ مَرَاقِفٍ ، وَخَصَّ بِالْتَّلْقِيِ الْمَبَشِّرُ عَنْ رَبِّهِ ، وَهُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي  
رَفَعَتْ لَهُ الْحُجْبُ ، فَبَلَغَ مَا لَمْ يَلْعَبْهُ غَيْرُهُ بِقَوْلِ ابْنِ جَابِرٍ (٣) :

وَخَصَّكَ مِنْ قَرْبِ وَمِنْ رُؤْيَا بِـا      لَهُ لَمْ تَصُلْ مِنْ قَبْلِكَ الْعَقَـلَاءُ  
وَنَاجَكَ فَرِدًا دُونَ شَاءِ وَلَمْ يَكُنْ      بِـغَيْرِكَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ يُجَاهَـاءُ  
وَمَا تَقْدِيمَ يَتَضَعُ أَنَّ الشَّاعِرَ ابْنَ جَابِرَ الْأَنْدَلُسِيَّ قَدْ اسْتَوْعَبَ فَعَلَّا مَفْهُومَ الْحَقِيقَةِ الْحَمْدِيَّةِ كَمَا هُوَ لِدِي  
الْفَكِرِ الصَّوْفِيِّ ، وَاسْتَلْهَمَهُ وَوَظَفَهُ فِي مَدَائِحِهِ بِمَا يَضْفِي عَلَى الْشَّخْصِيَّةِ الْحَمْدِيَّةِ صَفَّةَ التَّمِيزِ وَالتَّفَرْدِ ، وَيُرْتَقِي  
بِهَا إِلَى الْمَسْتَوِيِّ الَّذِي يَعْلُو عَلَى كُلِّ الْمَقَامَاتِ ، فَمُحَمَّدٌ هُوَ ذَلِكَ النُّورُ الْأَزْلِيُّ الْقَدِيمُ ، وَأُولَئِكُمْ إِلَيْهِ ،  
لِيَكُونُ أُولَئِكُمْ تَحْلُلُ لِلْحَقِيقَةِ فِي صُورَةِ الْخَلْقِ ، وَمِنْ هَذَا النُّورِ ابْتَعَثَتْ كُلُّ النَّبَوَاتِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ - أَيْضًا -

(١) النجم ، الآية ٧ إلى ١٤.

(٢) الديوان ، محمد بن جابر الاندلسي ، ص ١٦٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٥.

ظهرت كل المخلوقات، فالعالَم كله - بما ينطوي عليه من مكونات - إنما متعلق بالوجود الحمدي، إنه الواسطة بين الله والعالَم، لذا، فهو الأول والآخر، وهو أفضَل الخلق، وسيد الكون، وتابع الأنبياء، وأقربهم إلى الله منزلة ومقاماً.

وأيا كانت جذور المفهوم الصوفي للحقيقة الحمديَّة، سواء اتصلت بالقرآن الكريم، أم بالمرجعية المسيحية<sup>(١)</sup>، أم بالمصدر اليوناني<sup>(٢)</sup> فإنَّ الذي يستفاد أنَّ الشاعر ابن جابر الأندلسي، وغيره من مادحي الرسول<sup>(عليه السلام)</sup> قد وجدوا في هذا المفهوم فضاءً ثُرَا استقروا منه معالِم وصفات ومعانٍ ، أعادتهم وأسعفهم في مجال المديح النبوِّي، ومكثُهم من التسامي بصورةِ محمد النبي<sup>(صلوات الله عليه وسلم)</sup> بما يفوق كل الرتب، وليس فوقه إلا الذات الإلهية .

وإذا كنا قد وقفنا فيما تقدَّم عند تجليات الفكر الصوفي في المدحنة النبوية لابن جابر الأندلسي من خلال توظيفه للحقيقة الحمديَّة، أو ما يعرف لدى الصوفية بنظرية النور الحمدي ، فإنَّا نلتقي في ديوان الشاعر بملامح صوفية أخرى ، لعلَّ من أبرزها ما اصطلاح عليه بالغزل الصوفي أو الحب الحمدي ، والذي نقرأ فيه حرقة الصوفي ووجده ، وشوقه المتوجه إلى الرسول<sup>(عليه السلام)</sup>، وذلك من خلال التعبير عن لهفته إلى زيارة البقاع المقدسة ، وال الوقوف عند ضريحه المقدس ، والتعقب بأجواء تلك البيئة الطاهرة التي هي من متعلقات الشخصية الحمديَّة ومعطياتها العامة.

وتعود الرحلة إلى البقاع المقدسة من أبرز المضامين التي عالجتها قصيدة المديح النبوي عند ابن جابر الأندلسي ، وهي عنصر أساسى ومضمون درج عليه شعراء التصوف بحيث شكلت لديهم ولديه أيضا رحلة شوق صوفي .

كما أننا نقرأ في مدايَح ابن جابر عن ذلك الحنين الغامر إلى البقاع المقدسة بل والتغزل بها في أسلوب رمزي ، حيث تتحسَّس تلك الشكوى المؤلمة من وطأة البعد وامتداد المسافة ، والأمل الفياض في الظفر بزيارة حمى الرسول<sup>(عليه السلام)</sup> والفوز بلشم ترابها المقدس ، وتفجير الخُدُّ به ، وهو ملمع استوحاه الشاعر من محارب الصوفية .

وإلى جانب هذا، ثمة صور وملامح صوفية أخرى يزخر بها ديوان ابن جابر الأندلسي ، وهي من الوفرة بحيث لا يمكن أن يسعها هذا المقام ، والعزاء أن تكون موضوعنا لدراسة أخرى إن شاء الله.

(١) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ص ٢٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

## الببليوغرافيا

- ١ - الأدب الصوفي، الخطيب علي، بين الحجاج وابن عربى، دار المعارف، مصر، ١٤٠٤ هـ، ص ٦٨.
- ٢ - الأدب الصوفي، صابر عبد الدايم، اتجاهاته وخصائصه، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. ص ٥٤.
- ٣ - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، الجراري عباس، ط ٣، مكتبة المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٦ ، ص ١٤٣.
- ٤ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، (د.ت)، ج ١، ص ١٦٩.
- ٥ - الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري، آمنة بعلوي، منشورات أخاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ ، ص ٢٦٩.
- ٦ - الحجاج شهيد التصوف الإسلامي، طه عبد الباقى سرور، ط ٢، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م. ص ١٤٥.
- ٧ - ديوان ابن الفارض (أبو حفص عمر)، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٧٩ ، ص ١٠٥.
- ٨ - ديوان الحجاج - معه أخبار الحجاج وكتاب الطوايسين، ينظر: الحجاج (أبو المفيث الحسين بن منصور)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص ٣٧.
- ٩ - ديوان المديح النبوى (نفائس المنع وعرائس المدح)، محي الدين بن جابر الأندلسي، تحقيق: محمد طيب خطاب ، ط ١. مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص ١٧٢.
- ١٠ - شعر عمر بن الفارض، عاطف جودة نصر، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت - لبنان، ص ١٩٥ إلى ١٩٠.

- ١١ - فصوص الحكم، محي الدين بن عربي ، تعليق: أبو العلاء عفيفي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة  
٣٢١ (١٩٤٦ - ١٣٦٥)
- ١٢ - المدائح النبوية، مبارك زكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥  
م، ص ١٧
- ١٣ - المدائح النبوية، مكي محمد علي ، ط١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر ، ١٩٩١  
ص ١٠٦
- ١٤ - المصطفى المختصر، الطبرى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٢١ .



# أوراق تراثية



# أخبار التراث

□ أ. د. عبد الإله نبهان\*

## المستجاد من فعّلات الأجواد:

بتصريح من مجمع اللغة العربية بدمشق لدار البيئة للطباعة والنشر بدمشق صدرت الطبعة الثانية ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م من كتاب "المستجاد من فعّلات الأجواد" لمؤلفه أبي علي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ وقد عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي ت ١٩٥٣ م وكانت طبعته الأولى قد ظهرت في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م أما هذه الطبعة الثانية فإنها بتحقيق الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ومراجعة الدكتور ممدوح خسارة عضو المجمع.

عرف محقق الكتاب بالكتاب فقال: (هذا سفر في أخبار الكرماء في الجاهلية والإسلام، يحمل أدباً وأخلاقاً وتاريخاً واجتماعاً، أفرغه مؤلفه في مصحف واحد وأسماه "المستجاد من فعّلات الأجواد" مؤلفه صاحب "نشوار المحاضرة" و"الفرج بعد الشدة" القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ).

قال كرد علي ... فالمستجاد صورة جميلة من أدبنا القديم مبعث حضارتنا" وهذا هو الفن الذي يقضي علينا الواجب أبداً أن نتدوّقه ونتفاوضه، ونربوه ونترواه، لما فيه من عبة أرواح أجدادنا، ومنها نقش الكمال في اللفظ والمعنى ونمسي على آثارهم فتنشأ شخصيتنا الجديدة وهو إلى هذا من خير ما تكشف به مقاييس الأخلاق في أمتنا ومعابر عاداتها ومدنيتها".

\* عضو اتحاد الكتاب العرب "جمعية البحوث والدراسات" ، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقال المؤلف التتوخي في مقدمته بعد الحمدلة والصلة على النبي ﷺ:

وأما بعد، أطّال الله في النعمة عمرك، وحسن مع التقى عملك، وبذلك في السلامه أمّلك، وختم بالصالحات أجلك، فإنك طلبت مني أن أجمع لك من أخبار الأجواد أجودها، ومن فعاليات الكرام أسنابها وأرشدها، فاستخرت الله في المقال، وتحيرت من ذلك ما سمعت لي في الحال، مما أحس به يستفز القارئ والسامع، ويقع منه أرفع الواقع، وألفته كتاباً سميتـه (المستجاد من فعاليات الأجواد) فكان لقبه مطابقاً، ولغرضك موافقاً، ولا يستحسن سابقاً، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب».

ثم بدأ بسرد أخبار الكرماء وكرمهم، فسرد اثنين وخمسين ومئة خبر، ثم ذيل الكتاب بسبعين نكتة سماها "نكت عجيبة" قدم لها بقوله: "وقد ذيلت ذلك بنكت عجيبة من الأجواد المصيبة فإنها تستجاد من الأقوال كما استجید ما قبلها من الأفعال، والله ولـي التوفيق والإقبال".

فمن الأخبار التي أوردها قال: «حدث أبو بكر محمد بن علي المازري بمصر قال: كنت أساير أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بدمشق وقد خرجنا للصيد وأخذنا على نهر ثوراً فيينا نحن نسير إذ تلقاه أعرابيًّا فأخذ بعنان فرسه وأنشده:

لَهْدَنْتُ عَنْكَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَجَبِ  
إِنَّ السَّنَانَ وَهَذَا السَّيفُ لَوْنَطَةٌ  
أَفْسَيْتُ مَالِكَ تُعْطِيهِ وَتَهْبِهِ  
يَا آفَةَ الْفَضَّةِ الْيَضَاءِ وَالْذَّهَبِ

فقال أبو الجيش: يا غلام، ادفع إليه ما في الخريطة، وكان فيها خمس مئة دينار، فقال: أيها الأمير زدني، فقال أبو الجيش لن حضر من الغلمان: اطروا سيفكم ومناطقكم عليه، فبادر سبعة عشر غلاماً فطرعوا مناطقهم وسيوفهم. فقال: أيها الأمير أقتلني، فأمر أن يدفع إليه بغل من بغال الموك وحمل ذلك معه، وعدنا من الصيد. فما استقر بي مجلس حتى ورد علي توقع أبي الجيش خمارويه: (تقدّم - أمعني الله بك - بصياغة سبعة عشر سيفاً وسبعين عشرة منطقة ذهبًا جيداً للغلمان مكان ما بذلوه، ليتحرّر من تأخّر من الغلمان على ما فاتهم من ذلك).

هذا وقد يطول الخبر فيردي في عدة صفحات، وقد يقصر ليكون في عدة أسطر وقد يكون متوسطاً. ومن النكت التي ذيل بها الكتاب قوله:

«خرج الحاجاج بن يوسف متصدداً، فلقي أعرابياً فقال: كيف سيرة الحاجاج فيكم؟ قال: ظلّومٌ غشومٌ لا حياء الله ولا بياه، قال له: فلو شکّعوه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ فقال الأعرابي: هو والله أظلم منه وأغشم فعليه لعنة الله. فأغضب ذلك الحاجاج وقال له: أما تدرى من أنا؟ قال: وما عسيت أن تكون؟

قال : أنا الحجاج ، فقال الأعرابي : وتدري منْ أنا ؟ قال : لا ، مَنْ أنت ؟ قال : مولىبني أبي ثور أجنّ مرتين من الشهر وهذه إحداهما . فضحك الحجاج وانصرف عنه ) .

جاء الكتاب مع فهارسه في ٢٤٠ ص

( ومن الجدير بالذكر أن مراجع هذا الكتاب هو الدكتور عبد الإله نبهان ، وقد حصل خطأ ذكر بدلاً منه الدكتور ممدوح خسارة فنرجو ألا يحمل أي مأخذ في المراجعة على الدكتور خسارة ) .

### تاریخ حکماء الإسلام :

- بتصريح من مجمع اللغة العربية بدمشق لدار البيئة للطباعة والنشر صدرت الطبعة الثانية ١٤٣٣ هـ ٢٠١٢ لكتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي (٤٩٩ - ٥٦٥ هـ) وقد عني بنشره وتحقيقه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي (ت ١٩٥٣) وكان إصدار الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٤٦ م ، وقد راجع هذه الطبعة الثانية الدكتور أحمد محمد قدور عضو المجمع .

ولد البيهقي في قصبة ساپزور من نواحي بيهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان ، وكان أبوه عالماً وأمه حافظة للقرآن الكريم ، وبدأ تعلمه مبكراً وتنتقل مع والده وحفظ كتاباً ، ثم انتقل إلى مرو وقرأ فيها على يحيى بن عبد الملك «وكان ملكاً في صورة إنسان» وحاضر البيهقي في المناظرة والجادلة وعقد مجالس الوعظ في الجماع .. واستكمل علومه في رحلات أخرى وكان يقول المقطوعات من الشعر ، فمن ذلك قوله :

إلى كم أرجي من زمانِي مسراً وقد شاب من رأس الزمان قذال  
وبال على الطاوس ألوان ريشه وعلم الفتى حقاً عليه وبال  
وللدهر تفرق الأحبة عادة وللجهل داء في الطبع عضال  
لقد ساد بالمال المصنون معاشر وأخلاقهم للمخزيات عيال  
ويبي لهم ذل المطامع عزةً وعندهم كسب الحرام حلال

قال محقق الكتاب : قضى ظهر الدين حياته متلماً يرتاد البلاد ويلقي الرجال ، ويأخذ عنهم ، وتنتف ثفافة جمعت بين علم الآخرة والدنيا ، وانصرف إلى التأليف والوعظ والتدرис . وكان فوض إليه ، وهو في السابعة والعشرين من سنّه فضاء بيهق فقال عن نفسه : إنه بخل بزمانه وعمره على إنفاقه في مثل هذه الأمور التي قصارها ما قال شريح القاضي : « أصبحت ونصف الناس على غضبان » .

وشهد البيهقي في أيامه مشهداً مؤلماً، شهد الغز والترك يخربون في سنتي ٥٤٨ و٥٥٦ هـ بلاد خراسان، ولاسيما نيسابور دار العلم فيها، ويدكرون جوامعها ويحرقون خزانات كتبها ويقتلون علماءها، وخرّبوا مدارس الشافعية والحنفية ومن قتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعي الذي قال فيه ابن الأثير: إنه لم يكن في زمانه مثله..».

قال محققه: «ومهما يكن فإن تاريخ حكماء الإسلام رسم ناحية جميلة من نواحي التفكير الإسلامي في زمن يكاد يكون خاتمة الإسلام، رسم ناحية جميلة من نواحي التفكير الإسلامي في زمن يكاد يكون خاتمة سمو العقل ومبدأ تراجع العلم في الإسلام. وكما عرفنا من تراجم الحكماء للقططي أموراً كثيرة ، فقد حمل كتاب البيهقي فوائد أثيرة كان بعضها مجھولاً. وصدق أستاذى السيد محمد المبارك : تصحيح الكتب القدية أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة».

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة موجزة ، ومن جملة ما قال فيها :

«وها نذا ناسج في تصنيف هذا على منوال مصنف كتاب صوان الحكمة ، وهو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجزي ، مشيد بما لهم من ح荣ة ، وذاكر من تواريخت الحكماء وفوائدهم ما قرب غروب نجومه في مغارب النسيان ، وأدرجه الدهر تحت طي الحدثان والله المستعان» ثم شرع بإيراد التراجم مرتبة حسب القديم ، فبدأ بـ "حنين بن إسحاق" ثم ابنه "إسحاق بن حنين بن إسحاق" ثم "حييش الطيب" ثم "تابت بن قرة الحراني" ثم "محمد بن زكريا الرازمي المتطب" وهكذا حتى بلغت تراجم الحكماء إحدى عشرة ومتة ترجمة ، ومعظم تراجمه موجزة ، باستثناء ترجمة ابن سينا أبي علي الحسين بن عبد الله (ت ٤٢٩ هـ) فقد طالت حتى جاوزت نحواً من خمس عشرة صفحة ، بينما استغرقت ترجمة أبي الريحان البيروني نحواً من صفحة ونصف ، ولم يكن البيهقي يعني بذلك الولادة والوفاة لكنه كان يعني بإيراد عبارات لكل حكيم يقبسها من كتبه ، كما كان يعني ذكر بعض مؤلفات الحكيم المذكور ، وقد يذكر خبراً أو حكاية ، وسنورد مثالاً منه ترجمته لأبي الريحان البيروني :

أبو الريحان البيروني : من أجلاء المهندسين ، وقد سافر في بلاد الهند أربعين سنة وصنف كتاباً كثيرة ، ورأيتُ أكثرها مخططة ، والقانون المسعودي الذي صنفه في عهد السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود ، غرّة في وجوه تصانيفه ، وله مناظرات مع ابن علي ، ولم يكن الخوض في بخار المقولات من شأنه ، وكلّ ميسّر لما خلق له ، وزادت تصانيفه على حمل بغير ، وكان موفقاً في هذا السعي المشكور. وبيرون التي هي منشأه وموالده ، بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ، ولا غرو فإن الدر ساكن الصدف.

قال في تحقيق أمر منازل القمر: سهولة الشيء، وصعوبته فلما تطلق، وإنما تضافان إليه بحسب اختلاف الأحوال، فيسهل بها من جهة ويتعدّر من أخرى.

وقال:

- جلَّ خَطْرُ الْمُلُوكِ عَنِ الْمَجَازَةِ بِالْأَنْتَقَامِ.
  - لِيُسَّرَّ لِلْمَلِكِ أَنْ يَحْسَدَ إِلَّا عَلَى حُسْنِ التَّدِبِيرِ وَالسِّيَاسَةِ.
  - الْمَلِكُ أَفْلَى النَّاسَ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ، وَأَكْثَرُ النَّاسَ خَطْرًا وَقَرْبًا إِلَى الْهَلاَكِ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَبْخَلُ، وَيَجِدُنَّ، فَإِنْ مَا قَلَّ عَنْهُ لَا يَكْثُرُ، وَمَا كَثُرَ لَا يَنْدَمُ.
  - الْمَنْ يَبْطَلُ إِحْسَانَ الْمُحْسِنِ.
  - الْعَاقِلُ مِنْ أَسْتَغْنَى بِتَدْبِيرِ الْيَوْمِ عَنْ تَدْبِيرِ الْغَدِيرِ.
  - لَا تَحْقِرُ الْأَمْرَ الصَّغِيرَ، فَلِلْأَمْرِ الصَّغِيرِ مَوْضِعٌ يَتَفَقَّعُ بِهِ، وَلِلْأَمْرِ الْكَبِيرِ مَوْضِعٌ لَا يَسْتَغْنَى عَنْهُ.
  - مَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَلْفَةُ وَالْعَادَةُ وَاصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْعَامَةُ فَلَا تَخَالَفُهُ.
  - مِنْ كَفَاهُ التَّدِبِيرُ بِالْكَلَامِ لَا يُؤْدِبُ بِالسُّوطِ وَالسِيفِ
  - مَدَارِسُ أَخْلَاقِ الْحَكَمَاءِ وَالْعُلَمَاءِ يَحْيِي السَّنَةَ الْحَسَنَةَ وَتَمْيِيْزُ الْبَدْعَةِ السَّيِّئَةِ.
  - السَّنَنُ الصَّالِحةُ عَلَامَاتُ الْخَيْرِ وَالْحَقِيقَةِ.
  - لِكُلِّ يَوْمٍ أَمْرٌ حَاضِرٌ، وَلِكُلِّ غَدٍ مَا فِيهِ يَحْدُثُ.
- جاء الكتاب مع فهرسه في ١٨٩ صفحة.

### - كتاب أسرار العربية:

صدر عن دار البيعة بتصریح من مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٣٢ - ٢٠١١ كتاب أسرار العربية للإمام أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سفيان الأنباري (٥١٣ هـ - ٥٥٧ هـ) وقد يعني بتحقيقه المرحوم الشيخ محمد بهجة البيطار (١٨٩٤ - ١٩٧٦ م) وراجع هذه الطبعة الثانية الدكتور مدوح خسارة عضو المجمع. وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عام ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م قال محققه الشيخ البيطار: «وكتاب أسرار العربية بين ما في قواعدها النحوية من إحكام في الوضع، وإتقان في الترتيب والتبويب، وحكم ولطائف في الأحكام، وقد وصفه مؤلفه (الأنباري) بقوله:

ويعد.. فقد ذكرت في هذا الكتاب الموسوم "أسرار العربية" كثيراً من مذاهب النحوين المتقدمين والتأخررين، من البصريين والكوفيين، وصححت ما ذهبت إليه منها بما يحصل به شفاء الغليل، وأوضحت فساد ما عداه بواضح التعليل، ورجعت في ذلك كلّه إلى الدليل، وأعفيتها من الإسهاب والتطويل، وسهلته على التعلم غاية التسهيل».

أما مؤلفه الأنباري فقد سكن بغداد من صباه إلى وفاته، وتفقه بالذهب الشافعي بالمدرسة النظامية، وتتصدر لقراء النحو فيها، وصنف مصنفات خلودية لطلابه وما تزال مرجعاً حتى يومنا هذا كالإنصاف في مسائل الخلاف وكتاب أسرار العربية ولمع الأدلة في أصول النحو وزنها الآباء في طبقات الأدباء والإغرب في جدل الإعراب وهذه الآثار كلّها مطبوعة ومحققة. وله غير ذلك.

قسم الأنباري كتابه إلى أربعة وستين باباً استوعب فيها أبواب النحو عالج فيها كل باب بطريقة جدلية، فإن قلت قلت.. وقدعني بالحدود وأسباب التسمية في كل باب. فالباب الأول عنوانه: علم ما الكلم؟ واشتمل على ما يلي:

لم سمّي الاسم اسمًا؟ ما حدّ الاسم، علامات الاسم، لم سمّي الفعل فعلًا؟ حدّ الفعل، لم سمّي الحرف حرفاً؟ أقسام الحرف وحده. "كيف" اسم أو فعل أو حرف؟ تقديم الاسم على الفعل، والفعل على الحرف.

وتسير سائر الأبواب على هذا النمط الذي يتجه إلى السؤال والجواب فمثلاً باب القسم وهو الباب الحادي والأربعون، يأتي على هذا النحو:

لم حُذف فعل القسم؟ لم قلتم إن الباء هي الأصل في حروف القسم؟

لم جعلوا الواو دون غيرها بدلاً من الباء وخصوصها بالظهور؟

لم جعلوا التاء بدلاً من الواو وخصوصها باسم الله تعالى؟

لم جعلوا جواب القسم باللام وإن، وما، ولا؟

لم جاز حذف "لا".

فالكتاب مخصص لمن درسوا النحو واتجهوا إلى التعمق في معرفة العلل والحدود وإلى التبحر في أحكام النحو.

وسنعرض نموذجاً من أحد الأبواب يدل على أسلوبه، قال في الباب الثامن والأربعين: باب ما لا ينصرف:

إن قال قائل : كم العلل التي تمنع الصرف ؟ قيل : تسعة ، وهي وزن الفعل ، والوصف ، والتأنيث ، والألف والنون الزائدتان ، والتعريف ، والعجمة ، والعدل ، والتركيب ، والجمع ، ويجمعها يبتان من الشعر وهي :

جَمْعُ وَوْصَفُ وَتَأْنِيْثُ وَمَعْرَفَةُ  
وَالنُّونُ زَائِدَةٌ مِنْ قَبْلِهَا أَلْفُ

فإذن قيل : ومن أين كانت هذه العلل فروعًا ؟ قيل : لأن وزن الفعل فرع على وزن الاسم ، والوصف فرع على وزن الموصوف ، والتأنيث فرع على التذكير ، والألف والنون الزائدتان فرع لأنهما تجربان مجرى علامة التأنيث في امتناع دخول علامة التأنيث عليهما ، لا ترى أنه لا يقال : عطشانة وسکرانة ، كما لا يقال : حمراة وصفراة ، والتعريف فرع على التذكير ، والعجمة فرع على العربية ، والجمع فرع على الواحد ، والعدل فرع لأنه متعلق بالمدعول عنه ، والتركيب فرع على الإفراد ، فهذا وجه كونها فروعًا.

وعلى هذا النمط الجدل يأتي سائر الباب وكذلك أبوابه جميعاً جاء الكتاب مع فهارسه في ٤١٤ صفحة.

### - حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر:

عن دار البيئة بتصریح من مجمع اللغة العربية بدمشق صدرت الطبعة الثانية من كتاب "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" عام ١٤٣٣ - ٢٠١٢ لمؤلفه الشيخ عبد الرزاق البيطار (١٢٥٣ - ١٣٣٥ هـ) وحققه ونسقه وعلق عليه حفيده المرحوم الشيخ محمد بهجة البيطار (١٨٩٤ - ١٩٧٦ م) من أعضاء المجمع العلمي العربي ، وراجع هذه الطبعة الدكتور عبد الإله نبهان عضو المجمع وكانت الطبعة الأولى قد صدرت عن المجمع عام (١٣٨٠ - ١٩٦١).).

قال محققه الشيخ محمد بهجة في مقدمته : «إن هذا التاريخ يقع في ثلاثة مجلدات ، ويبلغ نحو (١٨٠٠) ألف وثمانين مئة من الصفحات بالقطع المتوسط وقد كتبه مؤلفه في أدوار من عهود شبابه وكهولته وشيخوخته ، وترجم فيه أيضاً لطائفه من رجال القرن الرابع عشر وهم أحياء ، ثم ترك الكتابة والتصحيح فيه قبل وفاته بأكثر من عشر سنين لما أضر بيده اليمنى من الأسى والشلل القليل إلى أن توفاه الله تعالى سنة ١٣٣٥ هـ وقد ترجم له الأستاذان الجليلان محمد كرد علي في مجلة الجمع العلمي والزركي في الأعلام . ونشر كاتب هذه السطور له ترجمة مفصلة في مجلة النار (م ٢١ ص ٣١٧ - ٣٢٤) تأتي هنا».

وقال مؤلفه في مقدمته بعد أن ذكر شغفه وولعه بجمع أخبار السادة والأعيان: «فاقتصرت على ذكر من وصلت إليه، وطوبت غالباً ذكر من لم أكن أعلم ماله وعليه، وحسب الطالب أن يقتصر على من وصلت إليه قوته وحوله، وأن يعلم أن ما لا يدرك كله لا يترك جله، ولم أزل أقدم في هذا العزم رجلاً وأؤخر أخرى، وأتردد في الإقدام والإحجام ولا أدرى أيهما أخرى، إلى أن تذكرت ما قيل، من أن بديع الأقواب، إن المرء ابن وقته وساعته، وكل ينفق على قدر وسعه واستطاعته، ومن كانت بضاعته مزاجة، فهو من الملام بمناجة، وذيل العفو عليه مسبول، والكف عن زلة مرجو ومأمول، وقد قيل:

يُلام الفتى فيما استطاع من الأمر  
ألا ليقل من شاء ما شاء إنما

وكان الأمين الحبي (ت ١١١١هـ) ترجم أهل القرن الحادي عشر في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» والمرادي محمد خليل (ت ١٢٠٦هـ) ترجم لأهل القرن الثاني عشر في كتابه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» فأراد أن يكمل ما بدأه ويترجم لأهل القرن الثالث عشر للهجرة. قال: «فأردت أن أتطرق عليهم بما يكتبون لكنابهم ذيلاً، وإن كنت أعلم أنني لست بذلك أهلاً..».

رتب المؤلف أسماء الأعلام المترجمين حسب الألف باء بادئاً بإبراهيم متيباً يوسف وبلغ عدد التراجم ٧٧٨ ترجمة، متفاوتة الطول، فمنها ما هو موجز ومنها ما هو موسع، وكثبت التراجم بلغة مسجوعة، وكان المؤلف يورد قصائد طويلة لترجميه من الشعراء أو العلماء الذين يقولون الشعر والترجمون يتممون إلى بلاد الإسلام وإن كان أكثرهم في الكتاب من بلاد الشام ومصر وقد قطع المؤلف سيرورة الترجم في الجزء الثالث وذكر القتال مع روسية واستيلاء الفرنسيين على الجزائر وذكر القتال بين محمد علي والسلطان محمود وألحق محققاً الكتاب ثلاثة تراجم بالجزء الثالث وهي ترجمة محمد بن حسن الشطي وأحمد بن حسن الشطي ومحمد جميل بن عمر الشطي.

وكان الحق يختتم كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بموجز يضممه ما اشتمل عليه الجزء من فوائد وفرائد يرکز فيها على أهم ما ورد في تراجم الكتاب.

اشتمل الكتاب إضافة إلى اشتماله على تراجم العلماء والأعيان على تراجم لشخصيات مهمة كجمال الدين القاسمي (الحلاق) وجمال الدين الأفغاني وعبد الحميد الزهراوي وعبد القادر الجزائري الذي تجاوزت ترجمته ثلاثين صفحة، ومحمد علي باشا ومحمود خان بن عبد الحميد خان والسلطان مراد الخامس بن عبد المجيد وغيرهم كثير. فمن تراجمه الموجزة:

عبد الخالق بن علي المزجاجي الهندي رحمة الله:  
علامة التحقيق، وفهامة التدقير، ويعسوب الأفضل، ونخبة الأمثل، من طار في الآفاق ذكره،  
وانشر في العالم مقامه وقدره، وقد مدحه بعضهم بقوله:

نبِطَتْ تَمَائِلَهُ عَلَيْهِ بِنَزْلٍ سَامَ بِاهْلِيهِ عَلَى الْأَبْرَاجِ  
أَهْلُ الشَّمَائِلِ وَالْفَضَائِلِ وَالْعَلَا سُرْجُ الْهَدَى يَهُمُّ بِنَوْزِلَاجِي  
تَرَبَّى فِي حَجُورِ التَّرْقَى، وَتَمَسَّكَ بِجَهَالِ التَّنْزَهِ وَالتَّرْقَى، وَأَخْذَ الْعِلْمَ عَنْ أَهْلِهِ، وَتَرَقَّى إِلَى أَنْ اعْتَرَفَ  
الْكُلَّ بِفَضْلِهِ، وَمَنَابَهُ مَشْهُورَةٌ غَنِيَّةٌ عَنِ الْإِطْنَابِ، وَمَأْثُرَهُ مَعْرُوفَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْإِسْهَابِ، سَمِعَ صَحِيحَ  
الْإِيمَانَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْبَخَارِيِّ الْحَفْيِيِّ مِنَ الْإِمامِ الْعَلَامِ السَّيِّدِ أَحْمَدِ بْنِ مُحَمَّدِ  
مَقْبُولِ الْأَهْلِ، وَسَمِعَ مِنْهُ أَيْضًا صَحِيحَ الْإِيمَانِ مُسْلِمَ بْنِ الْحَجَاجَ، وَكَثِيرًا مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفَةِ، وَكَانَ  
أَثْرِيًّا عَلَى مَذَهَبِ السَّلْفِ يَعْمَلُ بِالْحَدِيثِ، تَوَفَّ رَحْمَةَ اللَّهِ بَعْدَ الْأَلْفِ وَالْمِئَتَيْنِ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى. جَاءَ الْكِتَابُ  
فِي ثَلَاثَةِ مَجَلَّدَاتٍ فِي سِبْعِ مِئَةِ صَفْحَةٍ وَالْأَلْفِ.

رشيد بقدونس (١٨٧٥ - ١٩٤٣).

عن مجمع اللغة العربية بدمشق صدر كتاب: من أعمال سوريا: رشيد بقدونس بإعداد زهير رشيد.  
رشيد بقدونس مناضل عربي ولد عام ١٨٧٥ بدمشق وفيها درس ثم التحق بالمدرسة الحرية في  
استانبول، وحارب مع الجيش العثماني في البلقان، وأسر في اسبارطة ١٩١٣ في الحرب مع اليونان. وفي عام  
١٩١٤ حارب في القوقاز وحارب بين عامي ١٩١٧ - ١٩١٨ في فلسطين. وكان ضمن الأعضاء المؤسسين  
للمجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩١٩.

و ضمن خطة المجمع في إحياء ذكرى أعضائه كلف السيد زهير بقدونس ابن المرحوم رشيد بتاليف كتاب  
بپرخ لوالده اعتماداً على الوثائق التي تركها فكان هذا الكتاب الذي اشتتمل على مقدمة كتبها الأستاذ  
الدكتور أحمد قدور عضو المجمع وعلى فصلين وملحق.

### الفصل الأول: جهاده وحياته:

- نبذة عن سيرته (حياته في الجيش العثماني، والجيش العربي، وعمله في المجمع).
- مكتب عبر منبر الوطنية.
- حياته العسكرية والسياسية.

- آراءه السياسية في المنهى.

- ثقافته ونشاطه التربوي واللغوي.

- عودته من المنهى وجهاده الوطني.

**الفصل الثاني : مؤلفاته وترجماته**

ملحق وثائق وخطوطات وصور

جاء الكتاب في ٢٢٠ صفحة

- وقد أصدر المجمع كراسين اشتمل أحدهما على الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين المرحوم محمد زهير البابا عضو المجمع والثاني على الكلمات التي ألقيت في حفل تأبين المرحوم الدكتور عبد الكريم الأشتر عضو الشرف في المجمع وستخصصهما بتفصيل أكثر في عدد قادم.

- غير المطرد في القراءات القرآنية : قراءة في العلاقة بين القاعدة والنصل.

عن دار العصماء بدمشق صدرت الطبعة الأولى ١٣٣٤ هـ - ٢٠١٣ م من كتاب "غير المطرد في القراءات القرآنية"تأليف الدكتور محمد عبدو فلفل.

قدم للكتاب الأستاذ الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف عضو مجتمع اللغة العربية بالقاهرة أثني فيها على الكتاب وبين أهم ما امتاز به وقال : «وقد جاء هذا الكتاب فضلاً عما سبق في لغة علمية صافية لا كرازة فيها ولا ترهل ، ويغلف معالجته أدب جم وتقدير كبير لعلمائنا وتوثيق دقيق وحواشٍ ثرة وصياغة محكمة ، تجعل قارئه يقبل عليه ، وكلما مضى فيه ازداد به افتاناً وإعجاباً ، وتحققت له متعة يندر أن تتحقق له في مثله مما يتناول مجاله».

هذا وقد تتبع المؤلف ما لم يطرد من القراءات عند النحاة وبين مواقفهم منها ، بدأ بما قبل سيبويه وانتهى إلى أبي حيان النحوي وستذكر فصوله بالتفصيل نظراً لاتساع مجال الاستقراء لديه :

المقدمة

**الفصل الأول : في العلاقة بين القراءة القرآنية والقاعدة.**

**الفصل الثاني : ما لم يطرد في القراءات عند من قبل سيبويه**

**الفصل الثالث : ما لم يطرد في القراءات عند سيبويه.**

**الفصل الرابع : ما لم يطرد في القراءات عند الكسائي.**

**الفصل الخامس : ما لم يطرد في القراءات عند الفراء.**

الفصل السادس: ما لم يطرد في القراءات عند الأخفش.

الفصل السابع: ما لم يطرد في القراءات عند المبرد.

الفصل الثامن: ما لم يطرد في القراءات عند الزجاج.

الفصل التاسع: ما لم يطرد في القراءات عند ابن السراج.

الفصل العاشر: ما لم يطرد في القراءات عند النحاس.

الفصل الحادي عشر: ما لم يطرد في القراءات عند الزجاجي.

الفصل الثاني عشر: ما لم يطرد في القراءات عند السيرافي.

الفصل الثالث عشر: ما لم يطرد في القراءات عند الفارسي.

الفصل الرابع عشر: ما لم يطرد في القراءات عند ابن جنبي.

الفصل الخامس عشر: ما لم يطرد في القراءات عند الزخشيри.

الفصل السادس عشر: ما لم يطرد في القراءات عند ابن يعيش.

الفصل السابع عشر: ما لم يطرد في القراءات عند ابن الحاجب.

الفصل الثامن عشر: ما لم يطرد في القراءات عند ابن عصفور.

الفصل التاسع عشر: ما لم يطرد في القراءات عند ابن مالك.

الفصل العشرون: ما لم يطرد في القراءات عند الرضي.

الفصل الحادي والعشرين: ما لم يطرد في القراءات عند أبي حيان.

الفصل الثاني والعشرون: سبل معالجة النحة لما لم يطرد لديهم في القراءات.

مدخل: ما لم يطرد في القراءات عند النحة عامة.

سبل معالجة النحة لما لم يطرد في القراءات.

أولاً: الاقتصر على عدم طرد ما في القراءة.

ثانياً: تلحين ما في القراءة.

ثالثاً: الطعن في ضبط رواة القراءة.

رابعاً: حمل ما في القراءة على اللهجة الخاصة.

خامساً: توجيه ما في القراءة وتأويله.

المصادر والمراجع.

الأيات القرآنية

مسائل النحو والصرف.

وقد جاء الكتاب في ٢٢٦ صفحة.

## ـ شذور ذهبية من اللغة العربية:

عن دار العَرَبَ ودار نور بدمشق صدر عام ٢٠١٢ كتاب "شذور ذهبية من اللغة العربية" للدكتور ماجد أبو ماضي اشتمل الكتاب على مقالات ومحاجت في اللغة العربية والأدب، فمن المباحث مبحث: "خصائص اللغة العربية قديماً: لهجة طيء، آنثوذجاً" و"لغة الأدب في المقاومة" و"الدلالة الفكرية للإعراب في اللغة" و"اللغة العربية في مواجهة التحديات" فهذا الكتاب كما قال المؤلف "يتضمن قضايا لغوية تخصّ اللغة العربية وتحثّ في موضوعات لها علاقة بالحياة المجتمعية وتتسّع كل إنسان في مجال التعبير بما في ذهنه من أفكار، وتصدره من عواطف وقلبه من أحاسيس، كل هذا بواسطة اللغة. فاللغة هي وعاء الفكر، بل هي الفكر ذاته، فهي تعبر عن المستوى المفكري والثقافي والتعبيرى للإنسان، وتظهر معالم شخصيته من خلال أسلوب حديثه وطريقة تعبيره اللغوي، فالواجب يدعونا إلى التمسك بلغتنا لأنها وسيلة التفاهم بين أبناء الأمة، وهي الرابط والخطيب المتن الذي يجمع شمل هؤلاء الأبناء...".

اشتمل الكتاب على مباحث لها علاقة مباشرة بالتراث كبحث في لهجة طيء وبحثه في معاجم الألفاظ وعلى مباحث لها علاقة باللغة وتيسيرها ومشكلاتها وعلى مباحث أدبية معاصرة، وجاء في الكتاب في ٢١١ صفحة.

وكان الدكتور أبو ماضي قد أصدر عن دار الأمة بدمشق عام ٢٠٠٨ كتاب الجهود اللغوية لابن مالك من خلال آرائه في كتبه وكتب من جاء بعده درس فيه عصر ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ وكتب مقدمة عن الجهود اللغوية قبل ابن مالك ثم استعرض جهود ابن مالك اللغوية وليس النحوية، فتحدث عن الصاد والظاء وعن المثلثات اللغوية وعن ظاهرة الترادف مستعرضاً ما ألفه ابن مالك في هذه الموضوعات ثم استعرض ما ألف في توافق المعاني فاستعرض كتاب ابن مالك "الألفاظ المختلفة الوضع في الألفاظ المولدة المعنى. ثم استعرض "رسالة في الاشتقاق..".

ثم عرض في الباب الأخير لآراء ابن مالك التي وردت في غير كتابه: فعرض لما جاء في "ارتشاف الضرب" لأبي حيان الأندلسي ٧٤٥هـ وما جاء في "همع الهوامع" للسيوطى ت ٩١١هـ وما جاء في شرح الأنفيه للمرادي ت ٧٤٩ ولما جاء في خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ت ١٠٩٣هـ. جاء الكتاب في ٢٠٠ صفحة.

ثم صدر للدكتور أبو ماضي عن دار الأمة بدمشق عام ٢٠١٠ كتاب "التغيير البنوي عند ابن مالك النحوى" واحتوى هذا الكتاب على بابين، واحتوى كل باب على فصول:

## الباب الأول :

الفصل الأول : علم الصرف عند ابن مالك.

الفصل الثاني : التغيرات التي ظرأت على بنية الكلمة لغرض معنوي.

الفصل الثالث : التغيرات التي ظرأت على بنية الكلمة لغرض لفظي.

الباب الثاني : الاحتجاج وأصوله عند ابن مالك في الصرف.

الفصل الأول : السمع.

الفصل الثاني : القياس.

ويعُد هذا الكتاب شاملاً لدراسة الجهود الصرفية لابن مالك كما تجلّت في مؤلفاته.

وجاء الكتاب مع فهارسه في ٢٦٢ صفحة.

- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

اكتمل صدور المجلد ٨٦ من مجلة المجمع بأجزائه الأربع، وقد اشتمل هذا المجلد على البحوث الآتى ذكرها :

فهرس الجزء الأول

من المجلد السادس والثمانين

"البحوث والدراسات"

دور المسؤولين في نشر اللغة العربية

الرحيل وراء الكلمات

اللسانيات والمشكلات اللغوية الراهنة

وقوع المعرب في القرآن الكريم

البهاء زهير الأزدي وتنافع الولاء لوطنين

المغايرة الأسلوبية في القرآن الكريم

"قد" اسمًا وحرفاً، دلالاتها واستعمالاتها

الشعر وأثره في بناء الثقافة

حديث "يابن آدم" دراسة أسلوبية جمالية

صورة أنطاكية في المحيلة السردية العربية

المعادلات الموضوعية في شعر الحنين

أثر القراءن في الحكم على الألفاظ بالغرابة  
"المقالات والآراء"

- |                      |                                      |
|----------------------|--------------------------------------|
| د. ضياء الدين القالش | صفحة لغة، إلا..؛ وإنـا..؛ وإنـاـز    |
| د. مكي الحسني        | النحو بين الإيقاع والتوازن           |
| د. عدوخ خسارة        | خمسون عاماً من الكتابة العلمية       |
| د. عمر شابسيغ        | كتاب الأمثال الصادر عن بيت الشعر     |
| د. عبد الإله نبهان   | صورة تراثية فريدة للزهد              |
| د. عبد الكريم الأشتر | تعليم اللغة العربية وآفاقها في فرنسا |
| د. نزيه كسيبي        | "أنباء مجتمعية وثقافية"              |

أعضاء مجمع اللغة العربية في مطلع عام ٢٠١١  
الكتب والمجلات المهدأة إلى مكتبة الجمع في الربع الرابع من عام ٢٠١٠

فهرس الجزء الثاني

من المجلد السادس والثمانين  
"البحوث والدراسات"

- |                     |  |
|---------------------|--|
| د. محمود السيد      | تدريس النحو بين التشدد والتسهيل              |
| د. لبانة مشوح       | اللسانيات في التراث اللغوي العربي            |
| د. أحمد محمد قدور   | أصولات اللغة عند سيبويه، مراجعة وتفسير       |
| د. رضوان الداية     | طريقة أبي الفتح البستي في الجناس             |
| د. أحمد حallo       | الزَّجر والعيافة والطَّيرَة في الشعر الجاهلي |
| د. عبد الهادي خضرير | أثر التشيهي البليغ بأسلوب التركيب الإضافي    |
| د. سمير معرفة       | الضرورة الدلالية                             |
| د. أحمد صوان        | تراث الحكائي وقصص الأطفال المعاصرة           |
| أ. ناصر الجباعي     | مصطلحات نقدية عند أبي عبيدة                  |
|                     | "المقالات والآراء"                           |
| د. مكي الحسني       | صفحة لغة، حتى إذا..                          |
| د. عبد الإله نبهان  | الإبابة في تفصيل ماءات القرآن                |

- أحمد الطراولسي في مرأى تلميذ قديم  
قصة أول ترجمة للقرآن الكريم  
قراءة في كتاب قضايا ومواقف  
“أنباء مجتمعية وثقافية”

الكتب والمجلات المهدأة إلى مكتبة المجمع في الربع الأول من عام ٢٠١١

فهرس الجزء الثالث  
من المجلد السادس والثمانين  
”البحوث والدراسات“

- التحى الوظيفي في تعليم النحو  
الجهات الأربع واستعمالاتها في العربية  
التعريب الفكري واللغوي للعلوم  
الجهر والبسم عند سيبوبيه  
منهج الشريشي في شرحه لمقامات الحريري  
مداخلات الأفغاني في صوغ المصطلح العلمي  
مصطلاح المطارحة، أصوله وتطوره  
ظواهر أسلوبية في شعر ابن دريد  
موازين الأفعال وأنواعها، دراسة وتحقيق  
خصائص المنهج العلمي لتوصيف الكلم عند سيبوبيه د. عيسى بن سديره  
”المقالات والأراء“

- صفحة لغة ”مختص أم إخصائي“ ”احصى أم أخصى“ د. مكي الحسني  
الاستدراك على أبي علي في الحجة  
الدكتور جميل صليبا ، المربى والفيلسوف  
معجم الاستشهادات للدكتور علي القاسمي  
استدراك على ديوان العباس بن مردان

**فهرس الجزء الرابع  
من المجلد السادس والثمانين  
”البحوث والدراسات“**

- النظام التعليمي في سوريا واقعًا وتحديات د. محمود السيد
- وظيفة التأثيل في الصناعة المعجمية العربية د. أحمد عزوز
- عبد الكافي المرعب د. عبدالعزيز بن ساري السُّلْمي (٧٥..هـ)
- العربية من وجهة نظر الآخر د. محمد عبدو فلفل
- السعيد السيد عبادة د. (ضوء السقط) يشهد لصاحب بحسن ...
- أثر القرآن الكريم في كتابات ناصيف د. أحمد العلاونة
- علم المعاني في أمالى ابن الشجري د. منيرة محمد فاعور
- من إضافات الرمخنثري في أسلوب العطف د. إبراهيم مناد
- ”المقالات والأراء“**

- صفحة لغة، هذا...، ذلك، ... د. مكي الحسني
- كتاب (بحر العوام) بين طبعتين د. مازن المبارك
- صفحات لغوية، (في بعضها نظر) د. ممدوح خسارة
- مراجعة في كتاب ، تحف الخواص د. محمد رضوان الداية
- نظارات نقدية في كتاب (الورقة) لابن الجراح د. عباس هاني الجراح
- قراءة في (شرح القصائد السبع) لابن كيسان أ. خير الله الشريف
- ”أبناء مجتمعية وثقافية“**

الكتب وال مجلات المهدأة إلى مكتبة المجمع في الربعين ٢ و ٣ من عام ٢٠١١ فهرس المجلد السادس والثمانين



ڪتب و ڪتاب



# أحمد راتب النفاخ

## وجهوده في خدمة التراث

أحمد راتب النفاخ (١٤٤٦ / ١٩٢٧ - ١٤١٢ / ١٩٩٢)

د. سمر رحبي الفيصل\*

علامة الشام، لغوي وباحث موسوعي. ولد في دمشق (سورية)، في أسرة عُرفت بالصلاح والتقوى. التحق - وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره - بكتاب قرب مسجد الشيخ محبي الدين بن عربي، ثم في مدرسة (الصاحبة) الابتدائية، فثانوية جودة الهاشمي. وكان فيها كلها مجليلًا طلعة، نظم الشعر وهو يافع، وعارض في بداية مرحلته الثانوية قصيدة مهيار الدليمي، فلفت إليه الأنظار، وخصه أساتذته بالتقدير والتشجيع. دخل قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وتخرج فيه حاملاً الإجازة

عام ١٩٥٠، ونال شهادة أهلية التعليم الثانوي من كلية التربية عام ١٩٥١، وعيّن مدرساً للغة العربية في منطقة حوران جنوبي سورية. ثم استقبله قسم اللغة العربية بجامعة دمشق معيداً فيه بين ١٩٥٣ - ١٩٥٥، حيث أوفدته الجامعة إلى القاهرة لتحضير الماجستير والدكتوراه. فحصل على الماجستير عام ١٩٥٨ عن الشاعر ابن الدمينة، وسجل رسالة الدكتوراه عن علاقة التحوّل بالقراءات القرآنية، وأنجز قدرًا كبيراً منها، ولكنّه زهد بالألقاب وعاد إلى دمشق دون أن يكمل رسالته، ولم يقبل أن ينال الدكتوراه في الفصول التي أنجزها من هذه الرسالة على الرغم من إلحاح المشرف، وهو الدكتور شوقي ضيف، على ذلك، وسعيه لدى أصدقاء النفاخ

\* عضو اتحاد الكتاب العرب، جمعية البحوث والدراسات.

إلى أن يغروه بالتنازل عن نشان الكمال مؤقتاً، ويدفعوه إلى زيارة القاهرة مرة واحدة ليس غير لحضور المناقشة وتقديم الشهادة له. عاد النفاخ مدرساً إلى قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وبقي يدرس فيه سبعة عشر عاماً (١٩٦٢ - ١٩٧٩)، انتخب في أثنائها (عام ١٩٧٦) عضواً في جمع اللغة العربية بدمشق وعضوًا في الجمع العلمي الهندي. وانصرف بين ١٩٧٩ - ١٩٩٢ إلى العمل في جمع اللغة العربية رئيساً للمقررين وعضوًا في لجنة الأصول ولجنة المجلة والمطبوعات.

اتصف النفاخ بالذكاء المتفرد، والتهم في الإقبال على العلم، حتى أنه اشتهر بلقب علام الشام وحاجتها في القراءات والتلحو والبلاغة واللغة وفقه النصوص العربية القديمة. كان حاضر البديهة، حريصاً على الاقتداء بالسلف الصالح، محباً للغة القرآن، عاماً على إفادة الآخرين، شديداً على المتحذلقين الذين يدعون المعرفة بتراث الأمة الإسلامية، كرعايا لا يدخل على الناس بالعلم الذي يملكونه وبالعون الذي يستطيع تقديمها، صارماً في الحق، شاعراً ذات زنزة صوفية، ينظم الشعر دون أن يرقنه باسمه، وفيما لأساتذته محمود محمد شاكر وشوقي ضيف وعز الدين التوخي وعبد العزيز الميمني الرأجوكتي ومحمد البزم وأجد الطرابلسي، حفيماً بأصدقائه عبد الهادي هاشم وشاكر الفحام وحاتم الصامن، برياً بأهله. فتح منزله لطالبي العلم وشاداته من الباحثين، وبنزل للوافدين إليه مكتبه العامرة بفانيس الكتب ونوارد المخطوطات. لم يدخل على أحد بعلم؛ لأنَّه كان مؤمناً بأنَّ العلم لا يُكتنز، وأنَّ الأمة العربية الإسلامية لن تنمو وتستعيد أمجادها إذا لم ينهض أبناؤها بواجبهم في صون تراثهم ورعاية لغتهم عنوان هو يفهم. ولعلَّ قسوته وجدة طبعه عائدتان إلى أنه كان يرى الأدعية يسوسون الناس ويعيثون فساداً باللغة والتراث. وهؤلاء لا يؤخذون باللين والتسامح لأنَّهم يعيشون بمصائر الأمة العربية. ومن ثمَّ راح يقوس عليهم، ويندد بهم، ويصوب ما يكتبونه وما يحققونه من التراث العربي، فنسبوه إلى القسوة وحدة الطبع بدلاً من أن يقدروا إخلاصه وعلمه، وراحوا يكيدون له حتى أخر جوهه من جامعة دمشق، فتفرغ للعمل الجماعي وهو أقرب إلى اليأس، وقصَّ حياته على التقلُّل بين منزله وعمله في جمع اللغة العربية، يخرج من أحدهما إلى الآخر حتى توفي صباح يوم الجمعة (١٤١٢/٨/١١ - ١٩٩٢/٢/١٤) وهو يقرأ القرآن.

كان النفاخ جلَّا من جبال العلم كما وصفه الدكتور شاكر الفحام، ونمطاً فريداً بين معاصريه. يتكلَّم في حياته اليومية باللغة الفصيحة، ويُغري الآخرين باستعمالها في أحاديثهم. خلقه الله معلماً يقرأ ويُدرِّس دون أن يهتم بنشر إنتاجه في كتب مطبوعة. عرفه كما عرفه آلاف من طلابه صارماً في العلم، قوياً في الحق، صابراً على المكائد والحساد، تندَّق المعرفة على لسانه وكأنَّه يُعرف من كتاب مفتوح، حتى إنَّ المستمع إليه يعجب من إحاطته بعلوم العربية، وقدرته على النفاذ إلى أغوارها، والتدقق في مظانها

ومذاهب رجالاتها. ولكنَّه بقى طوال حياته زاهداً في طباعة إنتاجه، ومن ثمَّ لم تكن كتبه القليلة معبرة عن معارفه ومهاراته كلها، ولكنَّها كتب غزيرة الفائدة، باقية على الدَّهر نموذجاً للدرس اللغوِي والعنابة بالتراث العربي. تُضاف إليها مقالاته وتعليقاته المنشورة في مجلَّة اللُّغة العربيَّة بدمشق، ومجلَّة معهد المخطوطات العربيَّة بالقاهرة، ومجلَّة العرب بالسعوديَّة. كما تُضاف إليها المخطوطات التي حققها ولم ينشرها كمعاني القرآن للأخفش، ومعاني القراءات للأزهري، وطبقات القراء للذهبي، والشِّيرازيات والعسكريَّات لأبي علي الفارسي، وجمال القراء للسخاوي. أمَّا كتبه المطبوعة فهي:

١ - النصوص الأدبية - كتاب جامعي لطلاب شهادة الثقة العامة، صدر ضمن مطبوعات جامعة دمشق عام ١٩٥٥ يأشراف أحمد راتب النقاش.

٢ - ديوان ابن الدِّمِيَّة، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب - القاهرة ١٩٥٩. وهو تحقيق دقيق لشعر ابن الدِّمِيَّة مصدر بقدمة وافية عن حياته ونسبة وتاريخ مقتله. وهذا الديوان جزء من رسالة الماجستير التي نالها النقاش من جامعة القاهرة عام ١٩٥٨.

٣ - الاتباع لأبي الطِّيب اللغوِي، تحقيق عز الدين التَّوخي، منشورات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق عام ١٩٦١. وكان التَّوخيَّ حَقَّ هذا الكتاب على نسخة أصاب الخرم أولها فذهب بخطبة الكتاب. وعشر بعد طباعة الكتاب عام ١٩٦١ على مخطوطة ثانية غير مخرومة، فنشر في مجلَّة مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق خطبة كتاب الاتباع منها. وحين رغب الجمع في إعادة طباعة الكتاب أضاف الخطبة إليه مع ملاحظات النقاش واستدراكاته على التَّحقيق.

٤ - مختارات من الشعر الجاهلي - اختيارات وتعليقات - دمشق ١٩٦٦. وهذا الكتاب مختارات من عيون الشعر الجاهلي، تُعد نموذجاً للاختيار والتحقيق العلمي الدقيق. وقد جعل النقاش هذه المختارات متناً لتدريس الشعر الجاهلي في السنة الأولى من قسم اللغة العربيَّة بجامعة دمشق ابتداءً من عام ١٩٦٦.

٥ - فهرس شواهد سيبويه - بيروت ١٩٧٠. نسق في هذا الكتاب ما ورد في كتاب سيبويه من شواهد القرآن، وشواهد الحديث (وهي قليلة)، والشواهد الشعرية (وهي كثيرة في نحو من ١٠٤٧ بيت)، فقرب كتاب سيبويه إلى الناس والاختصاصيين، ودهلم على مواضع مسائله، ومهَّد لهم بتعليقاته سبل الإفادة منه.

٦ - القوافي لأبي الحسن الأخفش - تحقيق - بيروت ١٩٧٤. بذل النقاش جهداً كبيراً في تحقيق هذا

الكتاب حتى أصبح نموذجاً يحتذى في تحقيق التراث العربي. وكان أحب كتبه إليه وأثرها عنده. وهو محقق عن نسخة يتيمة.

- شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري - تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف - الجزء الأول - دمشق ١٩٨١. وقد وُكل إلى النفاخ أمر مراجعة التحقيق، فأضاف إليه فوائد جمة طالت في الأبواب الأخيرة ما دعا إلى جعل الكتاب في قسمين، طبع القسم الأول منها عام ١٩٨١، ولم يصدر القسم الثاني بعد.

### حول النفاخ:

مجلة جمع اللغة العربية بدمشق (١٩٧٨) / عبد البادي هاشم (١٩٧٨) - ٢٢٠ - ٢١١/٥٣ - عبد البادي هاشم (١٩٨٥) - عبد القادر عياش (١٩٨٥) / جريدة الأسبوع الأدبي (العدد ٢٤٢) د. سمر روفي الفيصل (١٩٩٠) / جريدة الدستور الأردنية (١٩٩٢/٢/١٦) - زهير الشاويش / جريدة البعث السورية (١٩٩٢/٢/٢٧) - د. عبد الكريم الأشتر / جريدة اللواء الأردنية (١٩٩٢/٤/٨) - أحمد العلاونة / مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٩٢) / د. شاكر الفحام (١٩٩٢) / جريدة الرباط المغربية (١٩٩٢) - عبد الله الطنطاوي / مجلة جمع اللغة العربية بدمشق (١٩٩٢) / د. عادل الموا (١٩٩٢) / ذيل الأعلام (١٩٩٨) - ٢٧ - ٥٣٦ - ٥٢٣/٦٧ - ٥٤٠ - ٥٣٧/٦٧ - ٢٦ - ١٩٩٢).



# آخر الكلام



# العمل المؤسسي المبكر لإحياء تراث العربي ونشره

□ د. نهاد الجرد\*

تراث الأمة هو ما تملكه من معطيات حضارية تتجلّى في آثارها وأوابدتها وعلوّمها وفنونها وآدابها، وبشكل التراث المكتوب لأيّ أمة حجر الأساس الذي تبني عليه مأثرها ومنجزاتها، فهي التعبير الأصيل عن امتدادها الروحي والعقلي، ولا تكون مغالين إذا أكدنا بدايةً أنَّ تراث العرب المدون وثيقة إثبات روعة حضارتهم، ولذلك أيضًا لا يجوزنا شهادة الشهود لتأكيد ما نذهب إليه، فالشواهد التي تؤكد أهمية الكتابة والنتاج العقلي والوجداني في الحضارة العربية الإسلامية كثيرة وأوابد هذه الحضارة ومنجزاتها العلمية والفنية والأدبية التي أضافت إلى رصيد معارف الإنسانية وإبداعاتها لا ينكرها إلا أحد أو معاند، ولعلَّ غنى المكتبة العربية التراثية المخطوطية التي وصلتنا مفرقة مبعثرة في مكتبات العالم كله أن تكون الشاهد على عصرية الحضارة العربية الإسلامية، فقد كانت الكتب لدى أسلافنا ((منتزهات القلوب))<sup>(١)</sup>، ولأهمية التراث العربي المكتوب توجهت إليه عناية النهضويين فيبلاد الشام،

\* عضو اتحاد الكتاب العرب، جمعية البحوث والدراسات.

<sup>(١)</sup> روى ياقوت في معجمه (معجم الأدباء) ص ١٤٢ قال: (قال أبو سعيد السمعاني: سمعت الأمير أبي نصر أحمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الميكالي يقول: تذاكرنا المترفات يوماً وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أئمه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخر: بل نهر الأبلة. وقال آخرون: صندوق مرتقد، وقال بعضهم: نهروان بنداد، وقال بعضهم: شعب بوان بارض فارس، وقال بعضهم: نوبهار بلخ. فقال هذه مترفات العيون، فلين انت من مترفات القلوب؟ قلنا وما هي يا أبي بكر؟ قال: (عيون الأخبار) للتنبي، (الزهرة) لابن داود، (قلق المشناق) لابن أبي طاهر. ثم أنشأ يقول:

ومن تلك نزهته قينة      وكأس نحث و كاس تصب  
فنزلتها واستراحتنا      تلاقي العيون و درس الكتب

واستلهموا قيمه وذخائره في حراكم السياسي والاجتماعي للخروج من الحالة التي كانت الأمة قد آلت إليها في أواخر الفترة العثمانية، ولم تقتصر عنابة هؤلاء الأعلام بالتراث على نشر ما استطاعوا نشره، أو التعريف بما وصلهم من المكتبة العربية الرخارية بشتى أنواع المعرف، بل نهدوا كذلك إلى تنسيق جهودهم والخروج بها من إطار العمل الفردي إلى مستوى الأعمال المنظمة مؤسسيًا، ومن هنا أتت الجهود الطيبة والمساعي الحميدة التي كانت من ثمارها تأسيس أول مكتبة عامة في بلاد الشام في العصر الحديث، وهي المكتبة العمومية<sup>(١)</sup>، ويرجع الفضل الكبير في هذا الأمر إلى الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام والشخصية التوورية الفذة التي تركت أثراً لها على كثيرين من أعلام عصره. وقد ساعد إنشاء هذه المكتبة في إنقاذ المخطوطات المبعثرة في المدارس الوقفية بعد أن كانت محصورة ((بأيدي المتولين وحرم الناس من مطالعتها))<sup>(٢)</sup>، وقد عرفت هذه المكتبة فيما بعد بدار الكتب الظاهرية واضطاعت بدور المكتبة الوطنية مدة قرن كامل، وألغت مجموعاتها الخطية مقتنيات مكتبة الأسد المكتبة الوطنية الحديثة في سوريا.

ومن مظاهر العمل المؤسسي المبكر في مجال إحياء التراث تأسيس ديوان المعارف، وقبله شعبة الترجمة والتاليف التي أحدثت في عهد الحكومة العربية بعد الثورة العربية ودخول الجيوش العربية إلى دمشق، وكانت مهمة شعبة الترجمة والتاليف: ((تدبر اللغة العربية الرسمية لنشر الثقافة بين الموظفين واستبدال المصطلحات العربية بالتركية ))<sup>(٣)</sup> ثم رأت الحكومة العربية أن تجمع فروع الثقافة في دائرة واحدة، فضمت أمور المعارف العامة إلى أعمال شعبة الترجمة والتاليف، وجعلتها (ديوان المعارف) الذي حددت مهماته في ((النظر في أمور المعارف والتاليف، وتأسيس دار للأثار والعنایة بالماکتب ولاسيما دار الكتب الظاهرية))<sup>(٤)</sup> وبعد اتساع أعمال ديوان المعارف وازدياد حركة التاليف والترجمة والاصطلاحات تم إحداث الجمع العلمي العربي واستقل الجموع عن ديوان المعارف في الثامن من حزيران ١٩١٩. وعهد برئاسته إلى علامة الشام محمد كرد علي. وبدأ بجمع اللغة العربية بالاضطلاع بهمات أكثر تخصصاً في مجال إحياء التراث العربي فقد (( وكل إليه النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية... كما يعني بجمع المخطوطات القديمة

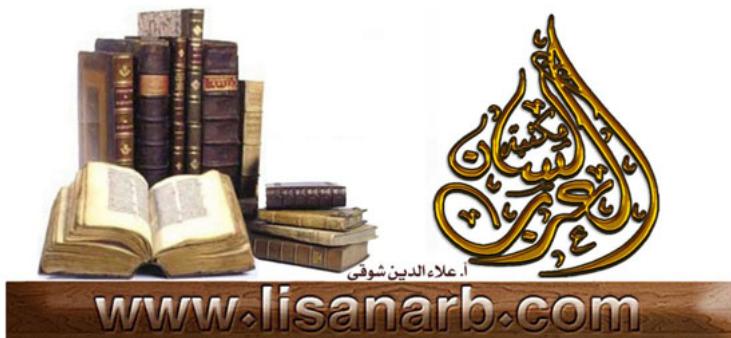
<sup>(١)</sup> انظر: القتبي، أحمد، تاريخ الجمع العلمي العربي، دمشق: الجمع العلمي، ١٩٥٦، ص ١٢٥، وما بعدها حول وثائق تأسيس المكتبة العمومية.

<sup>(٢)</sup> المرجع نفسه: ص ١٢٦.

<sup>(٣)</sup> المرجع نفسه ص ٣.

<sup>(٤)</sup> المرجع نفسه ص ٥.

الشرقية والمطبوعات العربية والإفرنجية على اختلاف موضوعاتها ))<sup>(١)</sup>، وهكذا أينعت نشاطات العلماء الذين عملوا في إطار الجمع العلمي العربي وأسهمت في تكوين البيئة العلمية العاملة في مجال إحياء التراث العربي ونشره بالأساليب العلمية القوية، وقد برزت أسماء كبيرة كان لها شرف الريادة في هذا المجال لا يجوز لنا في هذه العجلة أن نخططها ، كالأستاذ الرئيس محمد كرد علي<sup>(٢)</sup> ، الذي أسهمت نشاطاته بتكوين المناهج العلمية في نشر النصوص التراثية ، ((وكان دستوره في تحقيقاته أن يثبت في المتن الرواية التي يعتقد أنها أقرب إلى الصحة أو ترجع عنده أنها كذلك ، وبيفي الاختلاف للحاشية ، وإذا أعجزه إثبات الصحيح في كلمة أو جملة أبقاها على حالها مع الإشارة إلى أنه قد توقف فيها ، ثم إصلاح بعض الأخطاء بالاستعانة بما ييسر له من المصادر ، وإبقاء مالم يهتدى إلى ما رسمه الناسخ متوجناً التخمين والاستبطاط ما أمكن ))<sup>(٣)</sup>. وقد كان دأب هؤلاء الرواد في مجال إحياء التراث الاختيار من المكتبة العربية ما فيه قائمة مباشرة لجوانب نهضة الأمة ، وما فيه خدمة مباشرة لتحديث اللغة العربية ونشر المعارف وربطها بماضيها المجيد. وبذلك أرسى هؤلاء الرواد في بلاد الشام مع العاملين في مجال التراث العربي في البلدان العربية الأخرى المناهج العلمية الرصينة وأقاموا الصوسي التي ينبغي على العاملين في نشر وإحياء التراث أن يهتدوا بها ، كما تهيات الأسس والأدوات الميسرة للعناية بال מורوث الثقافي ونشره .



<sup>(١)</sup> المرجع نفسه ص ١١ وما بعدها.

<sup>(٢)</sup> انظر: معروف، ناجي: محمد كرد علي من علماء العرب الخالدين {في} محمد كرد علي مؤسس الجمع العلمي العربي : كتاب

مهرجان ذكرى مرور مئة عام على ولادة الأستاذ الرئيس سنة ١٩٧٦ ، دمشق: مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٧ ص ٦٤ .

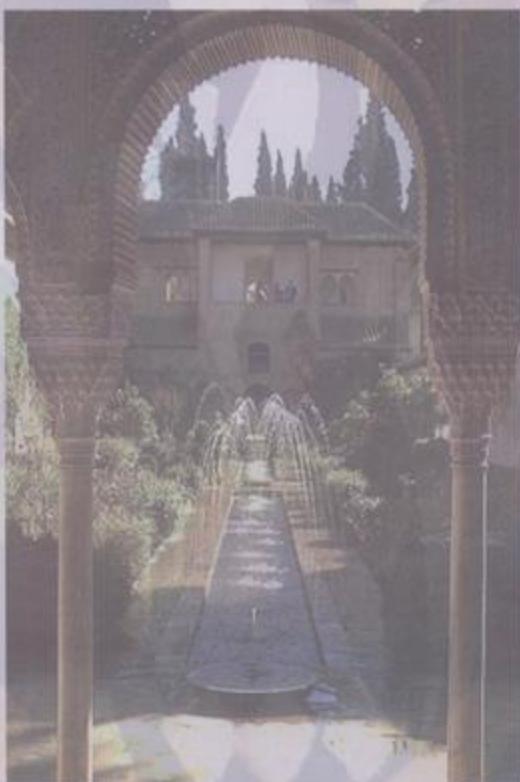
<sup>(٣)</sup> المرجع نفسه ص ٨٤ .

في العدد القادم:

- د. عمر مصطفى: «أثر معانٍ القرآن» للفزاء في مغنى اللبيب
- د. محمد رضوان الداية: د. عبد العزيز الأهوازي وجهوده في خدمة التراث
- د. عبد النبي اصطييف: تلقي الغرب لرسالة ابن فضلان
- د. فاروق اسماعيل: العربية الجنوبيّة وصلتها بالقصص
- د. عز الدين دياب: أنثروبولوجيا التنمية الثقافية في ضوء التراث والمعاصرة
- د. عفيف بهندي: العمارة الدمشقية والتراجم المعماري
- صفية جنيدى: صورة المرأة في المجتمع العربي

### ملف العدد القادم «دراسات في أدب المتنبي» وفيه:

- أ. د. محمد عبدو فافل: شعرية التشكيل النحوي في قصيدة «واحرّ قلباه» للمتنبي
- أ. د. علي حداد: حين تصنّع القصيدة، قراءة في قصيدة «واحرّ قلباه» للمتنبي



السعر:

داخل القطر (٥٠) ل.س.

خارج القطر (١٠٠) ل.س.

قصر الحمراء في الأندلس